

تكيّف الكفيف

هكتور تشيفني
و
سيدل بريفرمان

ترجمة
د. محمد عبد المنعم نور
راجعه
د. عبد الحميد يونس

تكيف الكفيف

تأليف:
هكتور تشيفنى - سيدل بريرمان

ترجمة:
د. محمد عبد المنعم نور

راجعه: د. عبد الحميد يونس



وزارة الثقافة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

• تكيف الكفيف

• هكتور تشيفنى - سيدل برئرمان

• تصميم الغلاف: عماد عبد الغنى

• المراجعة اللغوية: محمد منصور

الطبعة الأولى 2013م

الهيئة العامة لقصور الثقافة.

• رقم الإيداع: ١٧٧٤٤/ ٢٠١٣

• الترقيم الدولى: 978-977-718-511-0

• الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت: 23904096

المتابعة والتنفيذ

أحمد بكر

تكيف الكفيف

هذه ترجمة كتاب

The Adjustment of the Blind.

تأليف

Hector Chevigny

and

Sydell Braverman.

اهداء

الى

ماري درانجا كامبل

إذا ظن أحدهم أنه حر لا يلبث أن يجـــد أنه
مقيد فاذا ما كان شجـــاعا واعترف بقيده كان
ذلك بداية شعوره بالحرية . . .

جوته

مقدمة

مع هذه الأصوات الكثيرة التى ترتفع مستنكرة لهذا العصر الآلى ، قد يسر الإنسان أن يسمع صوتاً يعرب عن الرضا والارتياح ، ويأتى هذا الصوت من ناحية قد لا ينتظر صدوره منها ، هي ناحية أبناء النور المكفوفين ، ذلك أن المكفوف يعرف أكثر من سواه ما يعتور أيامنا هذه من ضعف روحى وأدبي ، وبالرغم مما يواجهه من متناقضات ومفارقات ، إلا أنه بعد الإلمام بالتاريخ الماضى لأمثاله لا يختار إلا أن يعيش فى هذا العصر .

والأسباب لذلك مادية وروحية معاً ، أما من الناحية المادية فلأن هذا العصر بآلاته ومعداته يقدم للمكفوف الإمكانيات ليتساوى مع المبصر ، فقليلون هم الذين يدركون مثلا أهمية اختراع بسيط كالآلة الكاتبة التى تمكن المكفوف من الاتصال بالمبصر عن طريق الكتابة وهناك أمثلة أخرى ، فمنذ مائةسنة مثلا ، كان المكفوف إذا أراد الاتصال بزميل فى الجانب الآخر من المدينة التى يقطنها ـ مضطراً عاطفياً إن لم يكن مادياً إلى البحث عنه . وقدزالت هذه العقبة عن طريق التليفون . كما أن الراديو ووسائل النقل الحديثة والآلة المسجلة يستوى فى الانتفاع بها المكفوف والمبصر علي السواء ، ويضاف إلى ذلك الاختراعات الأخرى الخاصة بالمكفوفين ، مثل الكتابة البارزة بطريقة برايل

التي تنتجها آلات كاتبة ومطابع خاصة، وكذا الكتب الناطقة المتداولة فى المكتبات العامة . وهذه الفوائد جميعاً لم تتحقق إلا بفضل الآلة وحدها . يضاف إلى ذلك ايضا أنه لا يوجد سبب مادى يحول دون تشغيل المكفوف لكثير من المعدات الأخرى التى استحدثت فى الصناعة .

أما من الناحية الروحية فإن أى خاطر يخطر بالعودة بالمكفوف إلى الماضى تملأ نفسه بالهلع لمجرد تفكيره في القرون الطويلة التى قضاها فى الشقاء والهوان . فقد ظل مثلا طوال ثلاثة آلاف سنة من تاريخ الحضاره الأوربية معزولا اجتماعياً ومحكوماً عليه أن يعيش بين طبقة تحيا حياة التسول ، طبقة يسقطها المجتمع من حسابه . ولم يكن يظن أن المكفوف يصلح لأن يؤدى عملا نافعاً ، وفى الواقع كان مما يتنافى مع خشية الله محاولة الاستفادة من فاقدى البصر . ولم يكن فى الحضارات العظمي خلال الألف سنة الماضية — ما عدا حضارة اليابان — ما يوفر للمكفوف مكانة اجتماعية لائقة أو يهيء له سبيل العمل .

ففي أوربا أقام المجتمع فى القرن السابع عشر الملاجيء للمكفوفين ، لا ليحل مشكلتهم ، بل ليحجب هذه المشكلة . وهكذا أضاف ظلاماً إلى الظلام الذى يعيش فيه المكفوف دون أن يوفر عملا نافعاً له .

ويذكر المكفوف أيضاً أنه لم يرد فى التاريخ إلا اسم مكفوف واحد نال حظاً من التعليم قبل القرن الخامس الميلادى ، ثم يصمت التاريخ بعد ذلك ثلاثة عشر قرناً قبل أن يسجل اسم مكفوف آخر ، ولعله يدرك أيضاً أنه حتى سنة ١٧٨٤ ميلادية لم يكن هناك فصل مدرسى واحد للمكفوفين ، وقد كان من قبيل التدخل فى قضاء الله محاولة تثقيف من حرم نعمة البصر .

أما التطورات التى طرأت علي حالة المكفوفين والتى نلمسها الآن فتعتبر حديثة العهد لدرجة أن أول متخصص فى تعليم المكفوفين لم يرحل عن هذه الدنيا إلا منذ ثمانين سنة .

إن الكفيف الذى يعرف تاريخه لا يفقد صبره وحلمه إلا مع أولئك الذين يحنون إلى تلك الأيام السعيدة فى زعمهم ، والتى يعتبرها المكفوفون أياماً قاسية شديدة الوقع على نفوسهم . ولم يكن الإشفاق الذى يظهره الغير عليهم ليخفف من آلامهم . ومنذ قرن ونصف من الزمان بدأ المكفوفون فى مدن أوربا الكبرى يخرجون من ملاجئهم مطالبين بمكانهم فى المجتمع ، وكان ذلك مع بزوغ فجر سياسى واجتماعي جديد . فقد كانت الثورة تنذر بالوقوع وكان الناس يتحدثون عن الحرية والمساواة وحقوق الأفراد . ومع أن مطالبة المكفوف بالحرية والإخاء أفزعت البعض ، إلا أنه لم يكن أحد

ليستطيع أن ينكر عليه ذلك ، ولو من الناحية النظرية على الأقل.
بدأ الكفيف ينشىء المؤسسات التى ترعاه اجتماعياً ، والتى أصبحت اليوم راسخة كجزء من ميدان الخدمة الاجتماعية ، يعود الفضل فيه إلى جهوده وجهود أصدقائه الذين يثقون فيه وفى مقدراته ، والمكفوف الذى يلم بتاريخه يعرف أيضاً أن حظه وسعادته يتوقفان على أولئك الذين يؤمنون بحقوق الفرد ، ويرفضون المبدأ الذى يقول إن الفوارق الجسمية تبرر عزل بعض الجماعات عن المجتمع أو معاملتها معاملة خاصة .

ومع أن المكفوف يستطيع أكثر من معظم الناس أن يقدر المميزات الروحية والمادية الموجودة فى العصر الحاضر فهو يستطيع كما سبق أن ذكرنا ، أن يميز أكثر من غيره المفارقات التى تتخلل الحياة فى عصرنا هذا . وقليلون هم الذين يدركون ، كما يدرك المكفوف ، مقدار فشلنا الروحي فى التمشى مع التقدم العظيم الذى أحرزناه فى الميدان العلمي والآلى . فلقد كان ينتظر أن تجعل الآلة الكفيف فى مركز يختلف اختلافاً كلياً عن الماضى . فمع أنه الآن ، ومن الوجهة النظرية على الأقل ، يحتل مكانه فى المجتمع فهو لا يزال يعاني صعوبات اجتماعية ، لا بسبب فقدانه البصر، بل بسبب تأثير حالته هذه على المبصرين . فلا يزال هناك حاجز عاطفي بينه و بينهم ، وهذا الحاجز هو من بقايا الماضي ، حين كان كل من لمس يد المكفوف

يصلي لله فى صمت أن يبقى عليه نعمة البصر . ولا يزال الناس يعتقدون أن التبرع لجمعية ترعى المكفوفين أفضل من إيجاد عمل لواحد منهم . وهو شعور ترسب من الماضى الذى كان الناس يعتقدون فيه أنه ليس من طاعة الخالق أن يوفروا للمكفوف عملا ، بل الواجب أن تقدم له صدقة . وما زال البعض إلى الآن يتقدمون باقتراح يرمى إلى حل مثل هذه المشاكل عن طريق وضع المكفوفين فى مستعمرات منعزلة يكونون فيها مجتمعهم الخاص .

لقد ظلت طريقة تصرف الكفيف وتفكيره وشعوره سراً غامضاً ، فإن حاسة البصر لا غناء عنها فى تحديد مركز الإنسان وهدفه فى الحياة . وإذا غضضنا الطرف عن الوظيفة ، فإن مجرد الحكم على المكفوفين أن يعيشوا بلا بصر كان ولا يزال ، مصدراً لإثارة مشاعر بدائية من العجب والرهبة . ولإيضاح الحقيقة البسيطة القائلة إن للمكفوفين وظيفة فى الحياة ، قامت مجموعة من الخرافات والمغالطات ، فزعم بعضهم أن الحواس الباقية لدى المكفوف تعمل معاً لتعويضه عن الحاسة المفقودة ، وزعم آخرون أن جلد الوجه وعضلاته عند المكفوف تنمو فيها حساسية شديدة للأجسام الغريبة . وزعم فريق ثالث أن المكفوف يمنح حاسة سادسة وسابعة لا يتمتع بها المبصر . وذهب غير هؤلاء وأولئك إلى حد الزعم أن جلد المكفوف تنمو فيه عيون صغيرة تبصر . أما عن الناحية العقلية عند المكفوفين ، فقد

بنوها أيضاً على مبـــدأ التعويض ، إذ تنقل الحواس الباقية إلى المخ انطباعات علي غرار انطباعات المبصر . ولقد انغرست هذه المعتقدات فى نفوس الناس لدرجة أن بعض العلمـاء قبلوها كحقائق وبنوا عليها نظريات محكمة أكثر تعمقاً توصلوا منها إلى نتائج أغرب من الخيال ، ولم يتعرض علماء النفس التجريبيين لبحث هذه المجموعة من الخرافات إلا منذ حوالى ثلاثين سنة، وكان قصدهم التحقق من صحة هذه الآراء ليتخذوا منها أساساً لوضع علم نفس مستقل للمكفوفين . ولـكن سرعان ما انهارت أمام التجارب العلمية المحكمة ، ووضح بكل جلاء استحالة وضع علم نفس خاص بهم لأنهم لا يختلفون إطلاقاً عن غيرهم إلا من ناحية فقدان حاسة البصر . على أن هذه النتيجة تعد سلبية علي ما يبدو إذ قد جعلت مركز المكفوفين لدى البعض أكثر غموضاً عن ذى قبل .

ولما كانت مثل هذه المعتقدات لا تستند إلى التجربة الشائعة فقد امتدت أيضاً إلى محيط مشاعر المكفوفين وعواطفهم ، فاعتقد البعض أنهم يعيشون فى حالة شعور دائم بالظلام وبالكـآبة الشاملة ، وأن هذا النقص الجسمى يؤثر بطريقة ما تأثيراً مباشراً علي شخصية الكفيف ، ولـكن أحداً لم يقدم أى دليل يعتمد على التجربة لإثبات هذه المعتقدات أو دحضها . إذ أن علم النفس التجريبي كان ينظر إلى المشاعر على أنها بعيدة عن متناول طريقة بحثه وتجاربه ، وما تم فى

هذا الميدان لم يكن إلا من قبيل الهدم لا البناء . ولم يقم المحللون النفسيون وعلماء النفس إلا بالنزر اليسير فى هذه الناحية . ومن الحزن أنه يبدو أن بعض هؤلاء قد قبلوا هذه المعتقدات من غير أن يتأكدوا من صحتها .

وبالنظر لضخامة مشاكل المكفوفين وقدمها وأهميتها الاجتماعية ، وبالنسبة إلى الاهتمام الزائد الذى يبديه كل من العلماء والعاديين من الناس بهذه المشاكل ، فإنه لما يدعو طالب العلم إلى الدهشة ، أن يجد عدد الكتب التى تتناول هذا الموضوع ضئيلا ، فقد قدره البعض بما لا يزيد عن ثلاثة آلاف مؤلف فى جميع اللغات تتناول الموضوع من جميع نواحيه بما فيها الاقتصادية والنفسية ، وإذا كان هذا الرقم ليس له مغزى خاص ، فإنه يمكننا أن نذكر أن رواية هاملت وحدها لشيكسبير قد كتب عنها أكثر من خمسة آلاف تعليق . وقال خبير بما كتب عن المكفوفين من مراجع ، إن الكتاب الجدد فى هذا الموضوع يميلون إلى تكرار آراء المؤلفين القدامى ومواصلة السير فى الطريق المطروق ، وإن كثيراً من هذه الكتب — التى يفترض فيها أنها كتب علمية — محض خيال مبنى إلى حد كبير على معلومات شخصية لا تقوم على أساس إحصائى أو تجارب تحليلية مناسبة .

إن هذا الكتاب محاولة لهدم الخرافات القديمة التى شاعت عن

الحياة العاطفية للمكفوفين ، ولكنه فى الوقت نفسه محاولة لإضافة معلومات إيجابية خاصة بنشاط المكفوفين عقلياً وجسمياً . وسيتناول بالبحث الدقيق ماهية الأمور التى يجب علي المكفوفين التكيف إزاءها . ولكى يتم هذا العمل بطريقة فعالة ، سنقر بالبحث فى سيكولوجية عالم المبصرين الذى تقع علي عاتقه مسئولية المكانة الاجتماعية التى تميز بين المكفوفين و بين غيرهم من الناس . ومن المؤكد أن هذا الكتاب ليس أول كتاب يبحث المشكلة الاجتماعية التي يواجهها الكفيف فى مجتمعنا ، ولكنه على قدر علمنا أول كتاب يحاول بحث هذه المشكلة مسترشداً بتاريخ المكفوفين خلال السنوات الألف الماضية وعلى ضوء علم النفس .

ويخشى أن يشتمل الكتاب على هفوات كثيرة ، ولكننا نأمل أن تكون من النوع الذى لا بد من ظهوره فى كل محاولة جديدة كهذه ، ولا ننتظر أن يكون من السهل الوثوق من ناحيته الموضوعية إذا ماتعرضنا لثقافتنا الخاصة وعصرنا الحاضر ، ويمكننا هنا أن نقتبس ما قاله نيلز بوهر « إنه من الصعب أن يلعب المرء دوراً مزدوجاً ، وفيكون ممثلا لمنظر ما متفرجاً عليه فى الوقت نفسه » إلا أننا حاولنا جهدنا ألا نعتمد على معلومات شخصية ذاتية ، بالرغم من أن أحدنا كفيف والأخرى مبصرة لها عيادتها النفسية ، وإنا لنرجو أن يساعد هذا على تحقيق الغرض من الناحية الموضوعية .

لقد قيل إنه لا يمكن الاضطلاع بأى عمل علمى بدون فرض أساس واحد على الأقل ، أما فرضنا فهو : أن فقدان البصر لا يخلق نوعاً من الاستجابة جديداً على علم النفس، وأن مشاكل الشخصية بين المكفوفين لا تختلف فى نوعها عن المشاكل التى يقابلها البشر عامة فى حياتهم وتجاربهم

أما أسلوبنا فهو أننا بعد جمع المعلومات عن المشاكل الأساسية ، اجتماعية كانت أو جسمية أو نفسية ، قمنا باستشارة الإخصائيين فى ميدان العمل لأجل المكفوفين ، كما قمنا باستشارة المحللين النفسيين وعلماء النفس . ولقد أبدى أحدنا (المؤلف الأول) بعض آراء أساسية عن حالة المكفوفين الاجتماعية فى مؤلف سابق ، وقد وصلتنا تعقيبات من كل أنحاء العالم على المؤلف المذكور أفدنا منها كثيراً فى المقارنة بين الآراء والاستجابات . أما مسودة هذا المؤلف فقد قام بمراجعتها جزئياً إخصائيون ، بينما قرأ الكتاب بأجمعه قبل طبعه عالم نفسى مرب ، قضى فى العمل بين المكفوفين سنوات كثيرة .

هكتور تشيفنى

سيدل برافرمان

مدينة نيويورك ١٩٥٠

الفصـــل الأول

التـكيف وإعـــادة التنظيم

الشجـاعة الادبية :

فى طبيعة حياة المـكفوفين استثناء لمبدأ تيرينس« Terence »
القائل بأنه ما من شيء بشرى غريب على أى إنسان ، وما من خبرة
بشرية مهما كان نوعها يصعب على الفهم العادى إدراكها . ولـكن
وجه الغرابة بالنسبة للمـكفوفين أنهم كلما حاولوا أن يتصرفوا وفق
ما يقرب من المألوف ، كلما بدا أنهم يزيدون الغموض الذى يحيط
بطريقة تفـكيرهم وتصرفهم وشعورهم . وما كانت الخرافات الشائعة
عما لديهم من قوى عجيبة حارقة إلا اختراعات خيالية، القصد منها إيضاح
حال القادرين منهم بدنيا . أما الذين لا حول لهم ولا طول فحالهم
من السهل فهمه ، ذلك أن الشعراء والمؤلفين الذين يؤدون رسالة تقريب
الإنسان من أخيه الإنسان وإيجاد وسائل اتصال الفكر والشعور
بينهم ، هؤلاء ، فيما يختص بالمـكفوفين ، أعاروا جل اهتمامهم بعض القيم
والمعانى الادبية لتصرفهم، ومن هذه المعانى ما يرجح الاعتقاد بأن الكفيف
كى ينجح يجب أن يكون على درجة من الشجاعة لا تتوفر لمعظم الناس ،
الأمر الذى يعقد الموقف الخاص بالمـكفوفين ويجعله أكثر غرابة وغموضا .

ومن الخرافات الخاصه بالمكفوفين أنهم يصلون إلى حالة يستطيعون معها معرفة اللون بواسطة الأصابع ، وأن لهم القدرة على معرفة خلق الغير عن طريق الشم . إلا أن أغرب مظاهر عجز الإنسان عن أن يوجد العلاقة بين تفكيره فى المكفوفين وبين طرق تفكيره فى المشاكل البشرية لا يوجد ضمن قائمة المعتقدات الخرافية . حقا إن التفكير فى وجود هذا العجز يسبب دهشة عظيمة للإنسان ، ولكنه قل أن يتخذ منه دليلا على عجزه عن التفكير فى المكفوفين بصورة معقولة .

ولكي نصل إلى كنه هذه الحالة ، علينا أن نعيد التفكير . بطريقة بسيطة ، قد تبدو صبيانية ، فى بعض المعتقدات الأساسية التى تعيش فى محيطها عادة . فنحن نعلم أننا فى حياتنا الاجتماعية نستخدم بعض المهارات ، صغيرة وكبيرة ، وقد ألفناها منذ الصبا . فنحن نأكل ونمشى ونتكلم طبقا لمهارات أو عادات تدربنا عليها ، ومع أن الغريزة هى الدافع إلى هذه الأعمال ، إلا أن طريقة إتيانها مرتبطة بقيود شتى . نحن نقرر أن الاعتقاد بالحاجة إلى التدريب لا يتعارض مع الاعتقاد بالقدرة الطبيعية فى الإنسان ، وأنه كلما قلت قدرة الإنسان الطبيعية عظمت حاجته إلى التدريب ، ولا يستثنى من ذلك الحواس التى لا يكون نموها تلقائيا بحتا ، فطالب الموسيقى قد يولد وله قدرة على إدراك مقام الصوت ، إلا أنه فى نفس الوقت يحتاج إلى تمرين مضن لتنمية هذه

الهبة الطبيعية ، كما أن الطالب الذى تنقصه هذه الهبة يمكنه اكتسابها عن طريق التعليم والتمرين تحت إشراف فني .

على أن المهارات المطلوبة لتجنب الخطر هى بعض تلك التى تحتاج إلي تمرين أكثر من سواها . إن الولد الذى يريد أن يكون ملاكما ماهرا لن يستطيع أن يعتلي حلقة ملاكمة البطولة إلا بعد أن يكون قد تدرب تدريباً شاقا على طريقة حماية نفسه ، وفى سبيل ذلك يتهشم وجهه بما يصيبه من لكمات قد تغير قسماته . ومن يتبع سبيلا خطأ يتعرض لنتائج سيئة ولا يشجع غيره على المحاولة . أما التدريب الحسن الذى ينمى الملكات الطبيعية فيعد النابغين من الملاكمين والمصارعين والراقصين على الحبل وسائقي السيارات وغيرهم . ولا يقول أحد إن التدريب بأى شكل من الأشكال يلقى ظلا من الشك على الشجاعة الأدبية لأى إنسان .

ولكننا عندما نفكر في حال المكفوفين وما يمكن أن يجعلهم أقوياء بدنيا ، فإننا لا نطبق شيئا من هذا التفكير الأساسي . إن مشكلة المكفوفين الأصلية هى : كيف يصبحون مستقلين فى تحركاتهم . أما المشكلة الاقتصادية التى يضعها الكثيرون أولا فإنها فى الواقع تتوقف على هذه المشكلة الأصلية . إن الكفيف الذى يسير مستقلا بنفسه ومعتمداً فقط علي الكلب المرشد أو على عصاه يثير إعجابنا بما يبدى من شجاعة . وهو فى الواقع جدير بهذا الإعجاب ، لأنه

باستثناء المستعين بالكلب المرشد ، قل أن يدربه أحد على المشى وحده فى الشوارع المزدحمة فى المدن أو الأزقة الكثيرة فى القرى .

إن استقلال الكفيف فى الانتقال مهارة تحتاج إلى معرفة كثير من الحقائق ، مثل الحكم على العمق والمسافة والفضاء ، وهو فى هذا كله يعتمد على حاسة السمع التى تنمو فيه لدرجة لا يحتاج، حتى الموسيقار، إلى الوصول إليها ، لأن الكفيف يعتمد علي هذه الحاسة فى أى حركة سريعة ولو كان ذلك فى منزله المألوف لديه . وكما هو الحال فى أية مهارة أخرى ، هناك أساليب فعالة مقبولة، وأخرى على العكس من ذلك . وعندما يتعلم الكفيف أية مهارة قد ينمى بعض العادات السيئة، إذا لم يتعهده غيره بالتدريب الملائم .

إن الكفيف، كالمبصر تماما ، يقضى يومه فى أمور تتطلب استخدام مهارات الواحدة تلو الأخرى . إلا أن حديث العهد بفقد البصر سرعان ما يجد أن هذه الحركات لا تؤدى كما يؤديها المبصر. فأ كل قطعة من الفطير تصبح بالنسبة له مشكلة صغيرة هندسية . إلا أنه من المقرر أن اتقان الكفيف لهذه المهارات يتوقف عليه هو دون سواه . فما يكتسبه من قدرة علي المعيشة فى ظروفه الجديدة وما يقوم به ليسيطر على بيئته الطبيعية ، ينظر إليه علي أنه نمو تلقائي ناتج عن قدرته الطبيعية التى تدفعها شجاعته الأدبية إلى الظهور والعمل .

ومما يثير الدهشة فى الموقف كله أن نظام الخدمة الاجتماعية على تشعبه لم يضع خطة لإعادة تدريب المكفوفين ، ليس فقط لحل مشكلاتهم الأساسية بقدر مافى الطاقة والإمكان، بل أيضا ليمدهم بالمهارة اللازمة لمطالب الحياة اليومية . إننا لا ننتظر من عامة الناس أن تفكر فى موضوع التدريب ، كما أننا لا ننتظر من أقرباء الكفيف الحديث الإصابة بكف البصر أن يعرفوا كيفية مساعدته لأنهم لا يستطيعون ذلك لعدم درايتهم .

ولقد خطت النهضة التربوية خطوات واسعة منذ أنشئت أول مدرسة للأطفال المكفوفين قبل مائة سنة . فأنشئت المعاهد التربوية فى كل أنحاء العالم وسارت على أسس معينة ، وطبقا لهذه الأسس لا تغفل الناحية البدنية فى الطفل الكفيف. وفى الواقع ، كان بعض رواد النهضة يؤكد أن الطفل الكفيف يحتاج إلى قوة بدنية فوق المعدل، ومع ذلك، فمايدعو إلى الاستغراب أن فكرة تربية المكفوفين تربية بدنية خاصة لم توضع فى الماضى موضع التنفيذ قط ، ويؤيد هذا القول رتشارد فرنش فى كتابه « تاريخ المكفوفين » .

إلا أن مايثير الدهشة بنوع خاص أن أمريكا ، التى يشمل التدريب فيها كل عمل تحت الشمس ، لم يبدأ فيها تدريب المكفوفين إلا فى هذا العقد ، ولم يبدأ فى ميدان خدمة المكفوفين كعنصر أساسى ، بل اقتصر على هيئات الخدمة الاجتماعية للبالغين من المكفوفين، حيث توجد

مراكز اجتماعية وترفيهية يرسل إليها المكفوفون حديثا لتلقى النصح والإرشاد وتعلم القراءة البارزة وإيجاد عمل ، وفى كثير من الأحيان لتعلم حرف جديدة . ولكن بلغ من فشل هذه الهيئات فى الاهتمام بالعوامل التى تعين على المعيشة اليومية العامة بسهولة درجة أنه ، حتى السنين الأخيرة ، لم تكلف الهيئات الكبرى بنيويورك نفسها حتى باختبار قوة حاسة السمع لدى المكفوفين عند قبولهم ، إذ أن ضعف السمع هو العامل الذى يحول أكثر من غيره دون التكيف فى حالة فقد البصر .

ولم يكن فى كل أمريكا الشمالية والجنوبية مركز واحد معد لإعادة تدريب المكفوفين المدنيين قبل سنة ١٩٤٥ ، ويقول مراقبو العمل فى أوربا إنه كان هناك معهد واحد لتدريب المدنيين فى النمسا ولكنهم لا يعلمون شيئاً عن حالته الراهنة ولا عن مقدار انتشار أثره .

ومما يزيد الموقف غرابة أنه منذ قرنين من الزمان عرف الناس أن المكفوفين يمكن تدريبهم على العمل . ومنذ ذلك التاريخ وضعت خطط لتعليمهم مهارات صعبة عن طريق استعمال اليدين. كما أن هناك مناهج فى دور التطور يترتب عليها زيادة المعلومات فى المستقبل . ومهما يكن من أمر فإن أساس العجز عن معرفه الفائدة التى تعود على الكفيف من التدريب فى كل مراحل حياته سببه القصور عن إدراك كنه هذة العملية ، وأنها تتطلب مهارة تظهر أعقد صورة لها فى قدرة الكفيف على استقلاله فى الحركة والانتقال .

وكل ما نجده اليوم من علاج هو من النوع الاجتهادى ، فقد حدث فى بريطانيا منذ سبعين سنة أنه ، عندما لوحظ أن المكفوف أميل إلى قبول التشجيع من الكفيف مثله ، بدأ الانتفاع بالمعلمين المكفوفين فى المنازل . وكان المدرس (أو المدرسة على الأغلب) ، يذهب إلى المنازل لتعليم القراءة فى الكتب البارزة ثم لتشجيع التلميذ الكفيف على الحركة والعمل . ولايزال معلم المنزل أول من يبصر الكفيف بما يصادفه فى حياته وهو على حالته هذه . وعلي المعلم الكفيف فى أمريكا اليوم أن يحصل علي مؤهلات معينة ، فلا بد أن يحصل عادة على تعليم جامعي ، إلا أن مواد الدراسة التى يتلقاها لا تشمل التربية البدنية . والمعلومات التى يوصلها للتلاميذ عن كيفية مجابهتهم البيئة المحيطة بهم اكتسبت مبدئياً عن طريق التجربة ويمكن إدراكها واقعيا . وقد استعانت بعض الهيئات مؤخراً بخدمات المشرف الاجتماعى والمحلل النفسى ليساعدا على حل مشاكل المكفوفين الشخصية والنفسية ، التي تعيقهم عن إظهار التكيف البدنى . ويبدو أن الناس لا يدركون أن هذه الخدمات إن لم يصحبها برنامج تدريبي تصبح تأييداً للرأى القائل بأن الفطرة أساس كل تقدم .

إن المراجع كلها تجمع على أن السلوك بدون أية مساعدة أخرى عليه كل المعول ، ويندر أن ينقضى عام دون أن يظهر أربعة كتب على الأقل كلها عن مكفوفين ناجحين يتحدثون عن أنفسهم . وتؤكد التعليقات على أغلفة هذه الكتب أن نجاح أصحاب هذه السير

إنما يرجع إلى قوة عزيمتهم ، أو إلى جدهم وشدة مراسهم ، أو إلى غير ذلك من الأوصاف الدالة على الشجاعة الأدبية ، ثم تعرب عن أملها فى أن يقتفى الآخرون أثرهم . ولكننا مازلنا فى انتظار صدور كتاب لكفيف يقول إنه يعزو نجاحه فى حياته إلى شخص علمه كيف يستعمل العصا البيضاء .

والملاحظ أن أية تطورات فى الفلسفة الخاصة بالمكفوفين وذوى العاهات إنما تحدث عقب الحروب الهامة ، ولا شك أن زيادة عدد المكفوفين بسبب الحرب يساعد على عدم إغفال وضع برنامج إيجابى لهم . لقد كانت الحال هكذا عند إنشاء معهد القديس دانستان المشهور لمكفوفى الحرب البريطانيين فى سنة ١٩١٥ . وحدث كذلك فى الولايات المتحدة خلال الحرب الأولى ، فقد نظم برنامج للتدريب ولكن سرعان ما أهمل شأنه ، ويبدو أنه لم يكن له إلا أثر قليل من النتائج بين المدنيين المكفوفين . والآن يبدو أن هناك نهضة ظهرت طلائعها فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، وتدل الدلائل على أنها لابد محدثة تغييرا ، وقد بدأت هذه النهضة سنة ١٩٤٢ فى مستشفى المحاربين عندما بدأت افواج فاقدى البصر تصل إلى أمريكا من وراء البحار : حينئذ جىء ببرنامج عتيق ، كان قد نظم منذ أجيال مضت لتدريب المكفوفين على استخدام العصا يتلمسون بها طريقهم ونقله الواحد منهم عن الآخر ، وقد نفض الغبار عن هذا البرنامج وأعيد تنظيمه وبدىء بتعليمه .

وقد وجدت فكرة تدريب المكفوفين نصيرا عظيما لها فى شخص الرئيس روزفلت وقتئذ ، ولربما كانت علته (شلل الأطفال) هى التى جعلته يعطف على المكفوفين ويقول : إن من يصاب بفقد البصر فى هذه الحروب لن يترك للظروف كما كانت الحال دائما . ولذلك أقامت القوات المسلحة فى أفون بولاية كونيتكتيكت مركزا للنقاهة خاصاً بالذين يفقدون البصر بسبب الحرب ، وكان لهذا المركز غرضه وأساليبه الخاصة . ولم يكن المقصود منه أن يصبح دار إقامة دائمة لأحد . فى الواقع إن الغرض من وجود المركز قد أغنى عن الحاجة إلى معهد للإقامة الدائمة ، ذلك أن الأطباء وعلماء النفس وأساتذة التربية البدنية قد اجتمعوا سويا لوضع خطة بقصد متابعة التدريب الذى يبدأ فى المستشفيات وإجراء التجارب وفق نظم جديدة ، فأضافوا على مواد الدراسة المألوفة مادة التعلم عن طريق السمع. وكانت النتائج فى كثير من الحالات عجيبة حقاً ، لأن بعضهم اكتسب فى ظرف أسابيع مهارات كان من سبقوهم يقضون فى اكتسابها عادة سنتين أو ثلاثا .

ولم يكن انتهاء الحرب معناه نهاية الإصابة بفقد البصر ، لأن هذه لها أسباب أخرى غير الحرب . وبرغم ذلك فإن مركز أفون قد أقفل أبوابه ، وكان أول وحدة للتدريب تابعة للقوات المسلحة تقفل أبوابها على أثر انتهاء الحرب . ولربما كان السبب فى ذلك

أنه لم يكن هناك بعد وفاة روزفلت شخص ذو سلطة يقدر مثله الحاجة إلى ضمان استمرار مركز كهذا فى العمل مدة أطول .

إن العمل الذى تم فى أفون أثار حماس كثير من العاملين بين المكفوفين ، ولهذا افتتح مركزان مدنيان سنة ١٩٤٥ ، أحدهما في كارولينا الشمالية والآخر فى فلوريدا . ولكن ، لسوء الحظ ، غمط كثيرون آخرون قيمة تجربة أفون ، ولم يتخذوا منها دليلا على ما يمكن المتحمس والمتشوق إلى مساعدة المكفوفين من أن يسدى أى خدمة ، حتى وإن كان قليل الخبرة . وكان من ضمن الأسباب التى بررت إغلاق مركز أفون القول بأن الهيئات الاجتماعية فى مقدورها أن تعنى عناية فعالة بما يجد من حالات فقد البصر فى المستقبل .

على أنه من المتعذر القول بأن هذه المراكز المدنية وغيرها التى أنشئت حتى كتابة هذا الكتاب، كان الدافع إليها نتيجة التجربة التى أجريت فى أفون فقط ، ذلك لأن الحكومة المركزية احتضنتها وأعانتها ماليا ، ولا تزال تفعل حتى الآن . ويعتقد بعض المراقبين أنها ما كانت لتستمر طويلا لولا جهود مكتب التدريب المهنى التابع لإدارة الأمن المركزية التى تعني بهذه المراكز .

ويمكن القول إجمالا إن الكفيف اليوم هو تقريباً فى مركز المصاب بشلل الأطفال قبل نهاية القرن الماضى ، من ناحية تفهم

حالته البدنية . فى ذلك الوقت كان المنطق الطبي يقول إن شلل الأطفال يؤثر على الأعصاب التى تتوقف عليها حركة النسيج العضلى ، وأن العضل الذى توقفت حركته بسبب الشلل لا يمكن إعادة الحركة إليه . واعتقد الناس أنهم لا يستطيعون أن يعملوا شيئا ، حتى أوجد الطب طريقة لإعادة النشاط العضلي إلى حالته الأولى . وفى نفس الوقت تحدث الناس كثيرا وكتب الكتاب كثيرا عن التكيف النفسى الذى كان يجب على المصاب أن يقوم به ، وعما كان يسمى بشخصية المصاب بالشلل .

والحقيقة الواضحة أن بعض الرجال والسيدات ، بفضل ما بذلوا من جهد شاق ، نجحوا فعلا فى إعادة الحركة إلى العضلات المشلولة التى لم يكن لها أثر فى إعادة التفكير فى منطق الطب . وأما الحالات المشار إليها فقد اعتبرت حالات شاذة أو من قبيل التشخيص الخطأ ، أو على أحسن افتراض حالات أشخاص لهم من قوة الخلق والإرادة ما مكنهم من أن يعملوا المستحيل . وفي سنة ١٩٠٠ تقريباً كان أساتذة التربية البدنية يتساءلون عما إذا كانت الجهود التى يبذلها أمثال هؤلاء الأشخاص يمكن تحويلها إلى خطة تدريب عامة ، وبعد البحث اكتشفوا أن ذلك ممكن فى حالة ما إذا كانت العضلات لم تفقد كل قدرة على الحركة ، وأنه إذا شلت حركة إحدى العضلات فهناك عضلات أخرى يمكن تدريبها لتقوم بعمل تلك العضلة . وفى غير هاتين

الحالتين يمكن استخدام نوع خاص من الأحزمة تمكن المشلول من مغادرة سريره أو كرسيه بعضا من الوقت. ومع أن المعاهد التى تطبق هذه الخطط فى علاج الشلل معروفة للجميع فإنه لايزال هناك أناس يهمهم المنطق أكثر من الدليل المادى. فهم ينظرون إلى هذه المعاهد شزرا ويشعرون أن ما يحدث فيها إن هو إلا شعوذة لا تلبث أن ينكشف أمرها.

يعلم كل الذين يلمون بالعمل فى هذه المعاهد أن كل المرضى لا يفيدون بدرجة واحدة من التدريب، حتى ولو تساووا فى القدرة على القيام به. فالأخلاق لها أثرها، وكذلك اختلاف الشخصيات. فهناك أشخاص، لأسباب داخلية، وجدوا فى حالة يأسهم شيئاً يدخل السرور إلى نفوسهم فى الحياة أكثر من الاستقلال، أو وجدوا سلاحاً خفيا يستخدمونه ضد الغير، ولا يريدون التخلى عنه. ومع أنهم يقولون إنهم يريدون التخلص من المرض فإن مجهودات المدربين معهم تذهب هباء. ومثل هذه الحالات يجب إحالتها إلى المحلل النفسى.

وما يحدث مع المرضى بشلل الأطفال يحدث مثله تماماً مع المكفوفين، إلا أن هؤلاء يختلفون عن أولئك فى أمر واحد خاص بالمكفوفين وحدهم، وهو أنهم إذا ما طال بهم العهد بفقد البصر، فإنهم كثيراً ما لا يعرفون معنى الاستقلال.

اصطلاحات :

لو عكسنا بعض الاصطلاحات المستعملة فى الموضوع الذي ببحثه لقلنا مثلا « تكيف المبصر » أو « التكيف وفق حالة البصر » ، ويمكننا فى هذه الحالة أن نذهب إلى حد التخصيص فنتكلم عن التكيف الاقتصادى أو العاطفى أو الأخلاقى . وأكثر من ذلك يمكننا أن نشير إلى أنه قادر على التحرك فى بيئته ، فنقول إنه بلغ درجة طيبة من التكيف البدنى وفق حالة البصر .

ونحن ، إذ نقول هذا ، لا نقصد المزاح أو إثارة الدهشة ، بل أن نلفت النظر إلى نقص شنيع فى اللغة التى نستعملها الآن والتى لا تحمل إلا قليلا من المعنى الواقعى . فهناك بعض الاصطلاحات المضللة التى لا تؤدى عادة إلى إزالة الغموض والبلبلة بخصوص كف البصر والمكفوفين بل إلى زيادتهما .

إن انتشار الآراء الخاصة بسيكلوجية « العمل » فى بضع السنين الماضية قد رشح استعمال لفظ « تكيف » مع بعض ألفاظ أخرى مثل «عقدة» أو « مصاب بمرض عصبي » . ومع أن كلمة « تكيف » لا تصلح كثيراً للاستعمال فى سيكلوجية « العمق » لأنها مستعارة من علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ، فإن تعميم استعمالها يعمل على تشويه معناها . ويبدو أن التفكير فى ميدان النقص البدنى كان فى حاجة إلى كلمة كهذه للتعبير عن تخيلات هى دون مستوى اللاشعور ،

لأن هذا الميدان بنوع خاص استولى على هذه الكلمة وجعل منها عنصراً هاما فى قائمة مفرداته للإعراب عن كل حالات رد الفعل للنقص البدنى ، سواء أكان رد الفعل هذا نفسياً أم جسمياً أم اقتصادياً .

ونحن لا يمكننا الآن أن نستغنى عن جملة « التكيف للعمى » لأن استعمالها لم يعم بين الأخصائيين فحسب ، بل أيضاً بين العاديين المثقفين، وحتى بين المكفوفين أنفسهم الذين يعربون بها عما يعتقدون أنه أختيارهم الشخصى . ويظهر أن المقصود منها خلاصة رد الفعل عند الشخص الذى يفقد بصره . إلا أن هناك ناحية سيئة الاستعمال لهذه الكلمة ، وهى أنها تلفت النظر إلى ما يمكن أن يكون أصغر عامل . بمجموع رد الفعل الذى يجد الإنسان أن عليه أن يكيف نفسه على مقتضاه ، ألا وهو عدم البصر نفسه . وليس هذا غريباً ، فإن فقد البصر حالة جسيمة تجند مجموعة كبيرة من العوامل الأخرى التى تحجب عن الفكر ، لأن التعبير يركز التفاتنا على عنصر واحد . مع أن الامر يكون غاية فى الوضوح إذا قلنا ، فى حالة فقد البصر ، إن الكفيف يحتاج أن يكيف نفسه ، فيعتمد على حاسة السمع مثلا ليواجه الموقف الاجتماعى الجديد الذى يجد نفسه فيه ، بدلا من أن نقول إنه يكيف نفسه وفق حالة فقد البصر .

على أن هذا التعبير لو عدل لا يحمل إلا قليلا من المعنى الواقعى ، فكل شخص يتكلم عن « التكيف الحسن » أو « التكيف الردىء » ، فما معنى هذا ؟ خذ مثلا كفيفاً فى غاية التواكل من الناحية البدنية

يعيش معتمداً على الإحسان ، ولـكنه فى نفس الوقت راض بحظه كل الرضا ، مبتهـج النفس غاية الابتهاج ، وقد سئلت مجموعتان من العمال عما إذا كانوا يعتقدون أن هذا الشخص « حسن التكيف » ، فـكان رد إحدى المجموعتين بالإيجاب ، أما المجموعة الثانية فأجاب أحدهم بالسلب ، والباقون قالوا إن تكيفه ردىء . نرى من هذا بكل وضوح أن الآراء تختلف ، وكل عامل من العمال المذكورين أجاب إجابة تأثرت بشعوره هو لا بالواقع ، ولما أعيد سؤالهم اتضح أن كل عامل فكر فى التكيف مبدئياً من الناحية البدنية أو من ناحية الاستقرار النفسى أو ناحية النجاح المادى . والمعروف جيداً أن المشرفين الاجتماعيين والمـكفوفين أنفسهم يميلون إلى التمسك بآراء مختلفة جداً عن عناصر التكيف الحسن لحالة فقد البصر .

ولما رأى المشرفون الاجتماعيون أن التعبير عام أكثر مما ينبغى لجأوا إلى التخصيص ،فيقولون« تـكيف اجتماعى » و « تـكيف اقتصادى » وهكذا . وعندما يقصدون الإشارة إلى القدرة البدنية يقولون « تـكيف بدنى حسن » أو العكس . وعن الشخص الذى لا يظهر أى ميل إلى الوصول إلى الاستقلال بدنيا يقولون : لقد فشل فى التكيف بدنياً . ويتضح اضطراب التفكير الناشىء عن هذه الحالة إذا نحن عكسنا العبارة وحاولنا أن نقول عن شخص لا يستعمل بصره بدرجة كافية إنه فشل فى التـكيف فى حدود ماللديه من بصر ، إلا أن هناك اعتراضاً

أعمق على استعمال هذه العبارة ، وهذا الاعتراض يتضح من تعقيب مستمع إلى محاضر كان يتكلم عن تكيف الكفيف ، تساءل المعقب : كيف تتكلم عن الفشل فى التكيف بدنيا علما بأن من فشل فى التكيف بدنيا يموت ؟

يجب أن تحمل التعبيرات معاني دقيقة محددة ، وإلا أصبح تنظيم المعلومات فى هذا الميدان بطريقة تجعلها واضحة للجميع أمراً ميئوسا منه . ولنبدأ بالتأمل ببساطة فى طبيعة التكيف ، وقد يقودنا تفكيرنا هذا إلى رأى عملى فى التعبير اللغوى عن التكيف وفق أى نقص أو علة .

التكيف وماهيته :

إن التكيف فى كل عضو حى ، عملية مستمرة تقريبا ، ومع كل تغير فى البيئة الطبيعية تدعو الحاجة إلى التكيف . فالتغير من الحر إلى البرد ومن الارتفاع إلى الانخفاض ومن الليل إلى النهار ومن غذاء إلى آخر ، كل هذه وأمثالها تجعل العملية مستمرة . والحاجة إلى التكيف تنبعث من عوامل داخل جسم الإنسان نفسه ، ومن عوامل خارجية أيضاً ، فالتغيرات الهرمونية فى دور المراهقة مثلا تدعو إلى إعادة تنظيم القوى . وفى الإنسان بنوع خاص تعظم الحاجة إلى اليقظة الدائمة ضد أى تغير ، وهو ممكن أن يحدث فى أي وقت . وعملية التكيف هذه تشغل كل الجهاز اللاإرادى فى الإنسان وجزءاً

كبيراً من عقله الواعى . أما الغرض من هذه العمليـة فهو بعبارة بسيطة ، الاحتفاظ بالمعيشة فى أحسن حالاتها . وأما الباعث إلى ذلك فهو ، بعبارة بسيطة أيضاً ، غريزة حب البقاء . وفى البيئة الطبيعية المحضة ليس هناك فشل فى التـكيف بالمعنى الصحيح لأن الفشل معناه الموت في نهاية الأمر .

وهناك سبب آخر يدعو الإنسان إلى تـكيف من نوع معين ، وهذا السبب هو عيشته وسط مجموعة من الناس هى البيئة الاجتماعية . وفى هذه البيئة كما في البيئة الطبيعية تحدد المطالب الواقعية نوع التـكيف . ولـكن البيئتين تختلفان فى أن الاجتماعية منهما تعطى الإنسان مجالا يستطيع معه إنكار الواقع بطرق عقلية ونفسية فى نطاق محدود ، فهو مثلا لا يستطيع إنـكار الواقع ، إذا كانت حياته مهددة بالخطر ، ما لم يـكن مريضاً مرضاً خطيراً .

إن الإنسان قد ابتدع نظما للمعيشة تختلف باختلاف البيئات ، بقصد التخفيف من كثرة الحاجة إلى تـكيف مستمر فى المحيط الاجتماعى ، ولذلك وضع لنفسه قواعد عامة يراعيها فى تصرفه . إلا أن هذه القواعد العامة ، التى قصد منها التخفيف ، قد تسبب متاعب للبعض فى مواقف معينة .

على أن قـــدرة الناس على التـكيف تختلف فى كلا الميدانين

الطبيعي والاجتماعي ، وعوامل الخلاف متعددة، منها السن والتدريب والتربية . فالإسكيمو مثلا يتدرب على تحمل برد الجهات القطبية على عكس ساكن جزائر البحار الجنوبيـة ، والمعتاد على السفر يكيف نفسه تبعاً للأوساط الجديدة التي يوجد فيها بسهولة أكثر ممن لم يغادر مسقط رأسه أبداً .

على أن الحساسية فى المحيط الاجتماعى ضد الحاجة الى التكيف إن هى إلا توازن بين الانتباه الإرادى واللاإرادى . والتدريب والخبرة يعملان معا على تقليل الحاجة إلى الانتباه الإرادى وزيادة اللاإرادى . فالشخص الذى اعتاد أن يختلط بالناس قل أن يفكر فى كيفية تصرفه أثناء اجتماعاته بهم ، أما قليل الخبرة فانه يشغل نفسه بالتفكير فى طرق تصرفه فى هذه المناسبات .

وفى كلا الميدانين الإرادى واللاإرادى يصادف الناس أزمات ، وإذا أردنا أن نعرف الأزمة فى كليهما يمكننا أن نقول إنها الحاجة إلى مواجهة ضغط شديد على القدرة على التكيف حيث يوجد رد فعل فسيولوجي واحد مشترك : وهو أن جانباً كبيراً مما كان تحت إشراف الجهاز اللاإرادى يصبح فجأة تحت سلطان الجهاز الإرادى أثناء الأزمة . وفى هذه الحالة تتولى مراكز المخ العليا القيادة إلى أن تنتهى الأزمة . ويصبح الشخص فى الظروف التى يجب أن يعيش فيها ووفقاً لها . والموقف الذى قد يخلق أزمة لشخص ما قد يكون

موقفاً عاديا بالنسبة لشخص آخر . وأى نوع من الاختبار أوالتجربة التى يجريها المرء قد يدفع إلى رد فعل فى مستوى أعلى من اليقظة . فالإنسان المعتاد على سماع طلقات البنادق عندما يسمع طلقة لا يعيرها أهمية أقل من الشخص الذى لا يكون إطلاق النار مألوفاً لديه ، إلا أن اختلال التوازن بين الأجهزة الإرادية واللاإرادية يكون أقل كثيراً فى الشخص الأول منه فى الثاني . وعندما يحتفظ الإنسان بتوازنه العادى يظل كما نقول هادئا .

التكيف والعاهات :

لنأخذ مثلا رجلا فقد ساقه اليمنى ، عندما يحاول هذا الرجل أن يمشى على ساقه الصناعية لأول مرة فإنه يواجه أزمة بدنية . إن الواقع يضغط عليه طالباً استجابة أعظم ، ويجب أن يحدث فى هذه الحالة انتقال وإبدال فى القوى فيما تبقى من جهازه العضلي . فبعض العضلات تقوم بعمل العضلات التى فصلت مع الساق ويتعرض الكل لمجهودات جديدة . وفى مثل هذه الحالات يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يتكيف تكيفا اجتماعيا ولو جزئياً وهو يواجه هذه الحالة الجديدة . إلا أننا سنقصر بحثنا الآن على الناحية الطبيعية .

إن الشخص الذى بترت ساقه عندما يحاول المشى يحتاج إلى استخدام الجهاز الإرادى بدرجة أكثر من اللاإرادى . وقد يكون

هناك تصادم بين الجهازين عندما يحاول الجهاز اللاإرادي أن يؤدى عمله كالمعتاد ثم يكتشف أنه لا قدرة له على ذلك . ولكن بفضل الجهاز اللاإرادى تحل المشكلة ويحصل التوفيق بينها . والمقصود بذلك أن إعادة تنظيم القوى تبعا للحالة الجديدة يصبح ثابتا مستديما ويستأنف الجهاز اللاإرادى مرة أخرى عمله ويداوم اليقظة والانتباه ضد أى أزمة جديدة .

إن اهتمام هذا الشخص بالبيئة الطبيعية الجديدة وقوة انتباهه لها يصبحان أعظم بكثير من ذى قبل ، لأن عليه أن يلاحظ بعناية تامة أى تغيير فى الطرقات المحيطة به وأن يكون أكثر حذراً عند عبور الشوارع وغير ذلك . ولا يجب أن يفهم من هذا أن الرجل يستخدم جزءاً أكبر من الجهاز اللاإرادى فى كل الأوقات ، بل كل ما يحدث هو أن الجهازين قد انتقلا إلى مستوى جديد من العمل المرتبط بالتجربة ، ومن هذا المستوى الجديد يرى الشخص مايبدو للناس أزمة من زاوية مختلفة . وتصرف هذا الإنسان يمكن أن يقال عنه « تكيف » . وإذا كان يتصرف حسناً فى حدود إمكانياته يمكن أن يقال عنه إنه حسن التكيف .

إعادة تنظيم الأجهزة :

إن إعادة تنظيم الأجهزة لا يحدث تلقائيا عندما يحاول الفرد

أن يتصرف تحت مجموعة جديدة من ظروف طبيعية . فإذا لم يحاول صاحبنا الذى فقد ساقه استخدام الساق الصناعية لايمكن أن يحدث تحول فى القوى فى جهازه العضلى ، كما لايحدث تغير فى عاداته المسيطرة على المشى ، وقد يوقف المحاولة قبل أن تتم إعادة تنظيم الأجهزة ويبقى التنظيم فى هذه الحالة ناقصا أو قد يعود إلى ما كان عليه بعودة القوى إلى حالتها الأولى .

وتتناسب درجة تنظيم الأجهزة مع شدة الحاجة ، فمثلا من الواضح أن الحاجة تكون أشد فى محاولة المشى على ساقين صناعيتين منها فى حالة المشى على ساق صناعية واحدة ، هذا وتختلف الصعوبات التى يواجهها الشخص لتحقيق إعادة تنظيم أجهزته باختلاف حاجته ورغبته فى الوصول إلى ذلك الغرض .

وأما الغرض من إعادة تنظيم الأجهزة باعتبار أنه جزء من عملية التكيف العام فهو الوصول إلى أحسن حال من الملاءمة مع الحياة . وتتضح حاجتنا الى استخدام اصطلاح «إعادة تنظيم الأجهزة» مستقلا عن كلمة «تكيف» إذ اما سألنا أنفسنا هذا السؤال «بأى وصف نصف ما يحدث للأشخاص الذين لا يستجيبون لحافز نقص جسمى » ، فإنه من الممكن جداً لكثير منهم أن يجدوا أن أحسن ظروف يعيشون تحتها هى عدم الاستجابة إطلاقاً ، وقد يجد البعض أنهم بجلوسهم ساكنين تحل

مشكلتهم الاجتماعية بسهولة وخاصة إذا كانوا ذوى ثراء يغنيهم عن بذل أى مجهود للاستجابة ، إن هؤلاء الناس يتكيفون بدنيا بالمعنى الصحيح كما تكيفوا حقا من الناحية الاجتماعية والاقتصادية . ولكن ماذا نقول عن أولئك الناس الذين لا يستطيعون محاولة التكيف بسبب السن أو العجز الجسمى ؟ إن هؤلاء يمكن أن يتكيفوا أيضاً بدنيا حسب حالتهم .

إننا نقول عن الشخص الذى لا يستجيب ، فى حالة الإصابة بعاهة جسمية ، للموقف الجديد ، إنه « يفشل فى التكيف جسمياً » وهذا تعبير يقودنا إلى بلبلة فلسفية . فالفكرة تصبح أكثر وضوحا إذا أدركنا أن التكيف ممكن عن طريق إعادة تنظيم الأجهزة كما أنه ممكن بدون ذلك . إذن إعادة التنظيم نوع من الاستجابة لطلب التكيف وهذا بدوره استجابة لحالة واقعية .

أما القوة الدافعة إلى إعادة التنظيم فهى الضرورة ، وأول قوانينها أن شدتها يجب أن تتناسب مع صعوبة تحقيقها . وقد تنشأ الضرورة عن البيئة ، كما فى حالة الشخص الذى يجب أن يستجيب إذا أراد الحياة . أو قد تنشأ فى داخل الإنسان نفسه كما هو الحال مع رجل يرفض أن يركن إلى السكون بسبب تربيته الأخلاقية أو تكوين شخصيته .

إعادة التنظيم والتكيف الاجتماعى :

يقول توماس كاتسفورت (Thomas Cutsfort) فى دراسته العميقة التى ضمنها كتابه المسمى « المكفوفون فى المدرسة والمجتمع » إن أحد الآراء التى يصعب إدراكها على الكثيرين هى كيف يمكن أن يكون الإنسان حسن التكيف بدنيا ومع ذلك يستمر سيء التكيف اجتماعياً ؟

إن الحاجة المستمرة إلى التكيف الاجتماعى والبدني تؤثر على الاستجابات فى كل ميدان ، وتمهد لها إلى حد كبير . وقد يكون هناك تعارض بين المطالب والرغبات ، لنأخذ مثلا حالة الرجل الذى أصيب فى حادث مؤلم جعله لا يستطيع المشى دون مساعدة إلا على أربع (كما يقولون) ، مثل هذا الرجل لا يستطيع المشى علنا بهذه الطريقة دون أن يكون بينه وبين المجتمع فجوة خطيرة ، إنه يستطيع أن يمشى هكذا سراً وأما فى العلانية فعليه أن يستعين بالأحزمة أو بالكرسى ذى العجل أو بشخص يعتمد عليه . لقد اعتدنا أن نظن أن المساعدة التى نقدمها للغير مصدرها رغبتنا فى نفعهم . إننا نساعد عندما نعرب عن عطفنا وتشجيعنا ونيتنا الحسنة أو نقدم معونة مادية قد تكون الحاجة ماسة إليها ولكننا فى نفس الوقت نتقاضى الثمن وهو وجوب مطابقة أساليب التصرف الجديدة لمقاييس معينة .

ولنأخذ مثلا آخر : برع كفيف فى كيفية مزج أنواع الشراب بعضها ولكنه كان مضطراً أن يقيس كمية السائل الذى يصبه فى الكوب بإصبعه . ولكن المألوف ألا يضع الإنسان إصبعه فى مشروبات الغير ، وحتى من الناحية الاجتماعية لا يصح أن يضع إنسان إصبعه فى كوبه الخاص . فمثل هذا الرجل عليه أن يختار بين أن يظهر شاذا اجتماعياً أو أن يخاطر فيخلط المشروبات بنسب غير صحيحة .

وهناك أسباب سندرسها بإفاضة فيما بعد تدعو الناس إلى عدم الاعتقاد بقدرة المكفوفين على التصرف كأفراد فى المجتمع ، وإلى الدهشة والاستغراب مما يستطيع المتكيفون منهم أن يؤدوه . والكفيف النشيط يوجد الحاجة إلى تكيف اجتماعى فى كل عمل يأتيه تقريباً . يأتى صاحبنا هذا إلى باب يدور وقد يكون ملما بهذا النوع من الأبواب واستعمله مراراً . فهو يستطيع أن يسمع حركة الباب وهو يدور وأن يقترب منه ويده ممدودة ليلمس حافاته المصنوعة من المطاط ثم يمسك بالقضيب المعدنى ويديره ربع دائرة ويدخل حيث يريد . ولكن لا يجب أن ننسى أن هناك أناساً يشاهدونه . وهؤلاء يوجدون دائما حينما يقترب كفيف من باب يدور ، وأقل خطأ يقع فيه يسبب لديهم الأسى والألم . ولهذا لا يبدى الرجل أية علامة على أنه يستطيع إدارة الباب ولكنه ينتظر إلى أن يأتى أحد الواقفين

ويوقف له الباب ويساعده على الدخول . ومن هذا نرى أن حياة الـكفيف النشيط إن هي إلا سلسلة لا تنقطع من مطالب تحتاج إلى تكيف اجتماعى . وكثير من هذه المطالب أشد خطورة وأعظم إجهاداً . وكثيرون هم الذين يجدون أن الحاجة إلى التكيف الاجتماعى تفوق طاقتهم وبخاصة إذا كانوا قد اضطروا إلي التكيف بدوافع داخلية . وفى هذه الحالة تواجهنا حقيقتان متعاونتان : إحداهما اجتماعية والأخرى طبيعية . أما الأولى فهى أن البعض يجد أنه لا حل للمشكلة الاجتماعية دون العدول عن إعادة التنظيم كلية ، وأما الثانية فهى أن الإنسان قد لا ينتظر منه أن يتكيف إطلاقا . وهذه الحقيقة الأخيرة قد تقبل على أنها الحل الأفضل . ومهما تكن النتيجة النهائية فإنه لا يمكن أن يقال إن التكيف غير موجود ، وقولنا هذا إنما يوقعنا فى شراك لفظية لا خلاص منها إلا بتكوين معتقدات مخالفة للطبيعة تعمل على زيادة الغموض فى الموضوع .

إعادة تنظيم الأجهزة فى حالة فقد البصر

لقد وجد المبصر دائما أنه من الصعب تصور الطريقة التى بها تم إعادة تنظيم الأجهزة عند فقد البصر . إنما الحقيقة الواضحة هي أن المـكفوفين رجالا ونساء تعلموا أن يعيشوا فى المجتمع ، وهذه الحقيقة أدت إلى الاستنتاج أن الأجهزة يعاد تنظيمها نوعا ما . وحتي يوضح

الناس ما يحدث لجأوا إلى التفكير فى أمور خارقة للعادة . ففى سنة ١٩٣٠ قال أسقف أمريكي : لاشك أن نعمة خاصة تمنح للمكفوفين. أما أصحاب النظريات السابقة ممن يصرون على التمسك بالأسباب الطبيعية فوجدوا أنفسهم مضطرين بسبب نقص معلوماتهم إلى تخيل إمكان نمو بعض الملكات فى المكفوف لم تكن معروفة من قبل ، أو معروفة آثارها فقط . وبهذا زاد الإنسان صعوبة اكتساب المعلومات عن المشكلة بالخلط بين بصر الكفيف وقدرته على تكوين صور ذهنية عن الأشياء ، واستنتج أن فقد البصر يفرض على الكفيف نوعاً من الفراغ فى محصوله الذهنى . وأما الآراء الأقدم عهداً فكانت تقول إن الحواس لكل منها قسم خاص بها ، وعدم وجود حاسة كبرى كحاسة البصر جعل من الضرورى ملء الفراغ بمعلومات بصرية فى طبيعتها عن طريق باقى الحواس . وأدى هذا التفكير إلى ما سمى أخيراً بنظرية « الإنابة فى الحواس » التى تقول إن تمثيل الحروف الأبجدية بطريقة مناسبة يمكن الكفيف من « رؤية » الحروف عن طريق لمسها .

وارتكازاً على مقارنة خاطئة بما يحدث عند فقد أحد أطراف الجسم ساد الاعتقاد بحدوث عملية تعويض فى الحواس الباقية عند الكفيف . واتخذ من قدرته النادرة على معرفة الأجسام البعيدة عنه برهان لا يدحض على احتمال ازدياد باقى الحواس حدة غير طبيعية .

وادعى الكثيرون من المكفوفين القدرة على تمييز الألوان وعلى سماع الأصوات خلال الحوائط السميكة التى لا يصل منها الصوت إطلاقاً لآذان المبصرين . ورسخت نظرية التعويض هذه فى الأذهان لدرجة أنها طبقت مباشرة على ميكانيكا التكيف فى الميدان الاجتماعى والنفسى كذلك . وأصبحت كلمة « تعويض » وثيقة الصلة بكل الاختبارات التى يجوزها الكفيف .

وقد خلط الناس بين حدة الحس ونمو حدة الإدراك الحسى . وسنعالج فيما بعد الخطوات التى أدت إلى زوال هذه الصورة من التفكير ويقصر بحثنا الآن على ما تبقى من الناحية الإيجابية . إن حواس الكفيف لا تزداد فى الحدة وهناك ترابط أوثق مما كان يظن بين وظائف الحواس المختلفة . ويكتشف الفرد الكفيف مدهوشاً مقدار وأهمية المعلومات التى وصلته عن طريق السمع واللمس ولم يعرها أى التفات بسبب ما كان يعلق على البصر من أهمية عظمى . ويستمر الكفيف فى تصوره للأجسام مستمداً معلوماته من الحواس الأخرى الباقية . وكما هو الحال فى إعادة تنظيم الجهاز العضلى ، وهكذا عملية تعلم الاعتماد على المعلومات التى كانت تعتبر ثانوية فى أهميتها توجدها محاولة العيشة فى المجتمع وتخلقها الضرورة . على أن التدريب يساعد على السرعة فى عملية التعلم ويقوم بدور المرشد فيها . وليس بنا من حاجة إلى القول إن النقص فى السمع أو اللمس يضعف القدرة على التكيف .

يقول كاتسفورت (Cutsfort) وغيره إن الاقتصاد الذهنى فى الـكفيف منذ الولادة له نظام يختلف عنه فى المبصر . ولم يتحقق أحد بعد عما إذا كان الاختبار الذى يحصل عليه الـكفيف قبل فقـد البصر يعين كثيراً على تفهم هذا النظام . فأولئك الذين يفقدون البصر بعد أن تركت الصور والأجسام والألوان والنور آثارها على ذاكرتهم ـ هؤلاء يمكن أن يكون لهم سيكلوجية تختلف فقط عن سيكلوجية المبصرين . وإذا كان هناك سيكلوجية مستقـلة حقيقية للمـكفوفين فهذه يمكن أن تكون فقط للمولودين مكفوفين . إن فهمنا للنظام الذى يعيش تحته المولودون مكفوفين يعتوره نقص كبير . وليس من المعروف إذا كانت المعلومات تصل مبدئياً عن طريق حاسة اللمس أو السمع أو أن هناك تجمعاً للانطباعات المختلفة الواصلة عن طريق الحواس على نحو يمكن أن يشبه قـوة التصور أو التخيل عند المبصر . إن كل ما نعرفه هو أن الـكفيف منذ الولادة يمكنه أن يملأ مركزه كفرد ويكون فـكرة عن الفراغ أو المسافة ممـا يخرج عن نطاق اللمس .

إن فقـد البصر يفرض نوعاً من التغيير على الجهاز العضلى ، قد يكون بسيطاً إذا قورن بمـا يحدث فى حالة فقـد أحد الأطراف ، ولـكنه مع ذلك هام . وهذا التغيير يحدث فى طرق المشى والوقوف وغيرهما التى كان الفرد معتاداً عليها قبلا ، وذلك لتجنب الاصطدام

بعقبات لم تكن متوقعة من ناحية ، ولإعطاء الحواس الباقية فرصة أكبر للحصول علي المعلومات اللازمة عن البيئة من ناحية أخرى . إلا أنه يجب ملاحظة أن فقد البصر جزئياً قد يحدث تغييراً محسوساً فى هيئة الفرد العامة أكثر من فقد البصر كله ، وغالباً ما يكون عن طريق جعل الجسم في وضع مريح لترفع الرأس حسب زوايا معينة ليمكن الانتفاع بالبقية الباقية من البصر . وقد ظن البعض أن هذه التغييرات دليل على مرض تسبب عن فقد البصر . ولكن هذه ليست الحقيقة لأن التغيرات تنشأ بالضرورة عن نفس محاولة التخلص من أى مرض يوجد فى حالة كف البصر ، مع أنها بكل تأكيد قد تسبب تغييرات ضعف من الدرجه الثالثة وهذه بدورها تختلط على الرجل العادى فيظن أنها التأثيرات الثانوية لفقد البصر نفسه . إن الطبيعة لا تهتم بالمظاهر الخارجية لمعظم تأثيراتها .

دليل إعادة تنظيم الأجهزة :

تعد مراكز تدريب الكلاب المرشدة من أحسن الوسائل لمشاهدة الاختلافات الفردية بين الناس . والذين يقصدونها جميعهم من أقوياء الأجسام وتتراوح أعمارهم من سن الشباب أحياناً إلى ما بعد الستين . وطلبهم الالتحاق بمثل هذه المراكز يدل عادة على روحهم الاستقلالية وعلى أنهم فى الغالب يعتمدون على أنفسهم . على أن الظاهرة التى تلفت النظر فى هذه الجماعات هي اختلافهم فيما يحرزون

من تقدم بدنى ، ومايبدو عليهم من عادات اكتسبوها من محاولات بعيدة عن التدريب المنظم . فبعضهم يبدون نشاطاً غريباً بحيث يتعلمون فى ساعات معدودة كل ما يهمهم تعلمه عما يحيط بهم بينما البعض الآخر يلم بالبيئة فى بطء شديد . والبعض يقفزون على السلم صعوداً وهبوطاً بينما البعض الآخر يصعد السلم في كثير من التردد . وكثير منهم لا يفهمون البتة معنى المشى السريع ، وعدد منهم لم يحاول المشى وحده منذ فقد البصر . والتدريب الجزئى يظهر أثره فى التفاوت حتى فيما يعلمه الفرد الواحد . فبينما نرى شخصاً يظهر مهارة فائقة فى استخدام يديه باللعب على البيانو ، نرى نفس الشخص لا يظهر تقدماً يذكر فى النواحى الأخرى . إلا أننا نستطيع القول إجمالا أن من يتحسنون بدنيا يظهرون عادة درجة عالية من اللياقة .

وإذا انتقلنا إلى الحشود الكبيرة من المكفوفين الذين نراهم فى أماكن الهيئات الاجتماعية العامة وجدنا القدرة على الحركة الذاتية بينهم تتراوح بين جمود النبتة المتأصلة الجذور ، وبين حركة المخلوقات المتسلقة . وبين الفريقين نجد من يمشى بتردد وخوف حتي لو قاده إنسان مثله ، مع أنه قد لا يكون طاعنا فى السن . وهناك اختلاف عجيب فى طريقة إخراج الصوت . فقد لاحظ الكتاب هذه الظاهرة بين كثيرين منهم وأطلقوا عليها « صوت المذيع » ، إذ يظهر أن أمثال هؤلاء لايدركون معنى ما يسميه الممثلون تنوع الصوت ،

فهم يتكلمون دائماً كما لو كانوا فى قاعة كبيرة . ومن الناحية الأخرى نجد مكفوفين يقدرون علي الفور مدى الصوت المطلوب وينوعون أداءهم تبعاً لذلك .

ولما كان لموضوع إعادة التدريب مكانه الخاص فى هذا الكتاب فنكتفى الآن بالقول إن تقديم فرصة التكيف كاملة للكفيف ، وفرض الضرورة الملحة عليه للتكيف ، وإزالة عوامل الخوف منه تحت إرشاد الإخصائيين ، كل هذا ينتج عنه استجابة عظيمة فى غالب الأحيان .

ومجمل القول أن الفشل فى التكيف بدنيا يصحبه عادة فشل فى تكوين نظام جديد للحياة من الوجهة الاجتماعية إذا ترك الفرد لجهوده الشخصى ، وأن الميل إلى التواكل فى ناحية ما يظهر أثره فى النواحى الأخرى أيضاً .

الشخصية والأعراض المرضية :

يقال عادة إن التفاوت فى النجاح سببه تأثير فقد البصر علي الشخصية . والمكفوفون جماعة من الناس غير متجانسة لدرجة عظيمة . ففقد البصر لايحابى إنساناً بسبب الجنس أو اللون أو الدين أو المذهب السياسى ، وإن كان يؤثر على الذكور أكثر من الإناث نوعا ما ، كما

أنه يصيب المسنين أكثر من غيرهم . وأما العمال فهم معرضون لحوادث العمل . وكذلك يصيب بصورة أكثر سكان المناطق الحارة ، وكل هذه الأنواع المختلفة من الناس تظهر ألوانا كثيرة مختلفة من الاستجابة . وبالرغم من كل هذا يمكن تمييز أنواع معينة مشتركة منها. فيقال إن كف البصر ينتج نوعا من الشخصية وإنه كثيراً ما تلاحظ له أعراض مرضية .

وقد أجرى الدكتور هارى بست (Harry Best) تحليلا للصورة العامة المأخوذة عن المكفوفين بجملة فيما يلي :

« كثيراً مايظن أن المكفوفين يعيشون غالباً فى عالم بعيد عن عالم البشر العاديين ، وأنهم مخلوقون من عنصر أقل كثافة ومادية من عنصر الآدميين الآخرين ، وأن لهم مزاجا روحياً خاصاً ، وأنهم قادرون على الاستجابة لدوافع داخلية قد لا يحس بها غيرهم ، ويحلقون فى سماوات الفن والجمال ، وكثيراً ما يظن أنهم بالطبع لطفاء ولينوا العريكة إلى حد كبير ، ذوو عقول نقية لا تضمر الشر ، مع أنه يبرز بينهم من حين إلى آخر بعض الخبثاء » .

ويمكن أن نضيف إلى أقوال بست ملاحظة أخرى وهى أنه يقال إن إحدى صفات المكفوفين الهامة رزانة التفكير ووقار المظهر وأن النزق والطيش يتعارضان غالباً مع حالة كف البصر . ولا يمكن

تصورهم مكثرين للضحك على المسرح أو الشاشة أو الراديو . وليس هذا بالجديد عليهم ففي الأزمنة الماضية قلما وجد بينهم مهرج أو ماجن والتاريخ المليء بالأمثلة على من كانوا موضع هزؤ وسخرية كالأحادب مثلا لا يذكر إلا أمثلة قليلة عن مكفوفين عوملوا بقسوة أو بزراية. وفى مناسبات الترفيه كانوا يظهرون كشعراء أو مغنين أو منشدى أشعار أو قارئى نبؤات .

ومن هذه الاعتبارات جميعاً يلاحظ الإنسان التأثير الفسيولوجى لفقد البصر وماله من نتائج مباشرة هامة على الجهاز العصبي ،ويظهر هذا الأثر بصورة أوضح إذا نظرنا إلى الظواهر التي تصحب فقد البصر . وقد كتب أحد مشاهير المعقبين عن تأثير فقد البصر على الجهاز العصبي وعقلية الكفيف عامة قال :

«يوجد فى الكفيف ميل قوى إلى تكوين عادة الجلوس . ويعزى هذا جزئياً إلى حالتهم البدنية ، كما يوجد فى الكفيف احتقان ذهنى شبيه بالاحتقان البدنى الناجم عن عدم الحركة . وقد تسبب هذه الحالة فى البالغ يأساً فاضطرابا في القوى العقلية ثم انتحاراً علاوة على العادات السيئة الكثيرة التى يعتادها الكفيف . . . أما الرأى المتطرف القائل بأن المكفوفين بوجه عام ميالون إلى الفساد الخلقي فلا أساس له من الواقع . وبينما يمكن القول عن يقين إن الكفيف المثقف العادى لا يقل عن زميله المبصر سموا فى الخلق فإنه صحيح

أن عادة الجلوس وما يترتب عليها ، عند المبصرين والمكفوفين على السواء تساعد على ارتكاب الرذائل وبخاصة الجنسية منها » .

وقد لاحظ المراقبون ضعف البنية بين المكفوفين وبخاصة الأطفال ويؤيد هذه الملاحظة ما كتبه السير فرانسس كامبل سنة ١٨٧٨ عن الأطفال البريطانيين والأمريكيين إذ قال :

إن المراقب الدقيق الملاحظة يرى فرقاً كبيراً بين مائة ولد كفيف في أى معهد ومائة تلميذ فى مدرسة عادية . إنه سيجد بين الفئة الأولى نسبة عالية من المصابين بتضخم الغدد ، ضعفاء الأجسام ، صفر الوجوه ، بارزى العظام ، بطيئى الحركة ، يصيبهم الإعياء بسهولة ، ونسبة ضئيلة من أصحاء الأبدان ، أقوياء البنية دائبى الحركة لا يكلون ولا يملون .

وفى تلك السنة عينها دلت التقارير على أن نسبة الوفيات بين المكفوفين كانت أعلى منها بين باقى السكان بعشرين فى المائة ، ولا يزال المراقبون يلاحظون حالة الأطفال المكفوفين السيئة ، والنسبة المرتفعة من النوع المستسلم بينهم . والسبب فى ذلك كما يقولون هو فقد البصر الذى يترتب عليه عدم الباعث على الدأب والحركة . ويعرب هاينز عن هذا الرأى بالقول إنه بسبب نقص حواس الكفيف ، يجد فى بيئته القليل الذى يغريه على الحركة . . . . إن

الطفل الكفيف يجلس ويقرأ أو يتكلم ، بينما الطفل المبصر يستخدم كل قواه من بدنية وعقلية لحل المشاكل التى ألقت بنفسها عليه .

ولقد كان البعض يتساءلون عما إذا كان عدم الشعور بالضوء يمكن أن يكون بطريق مباشر السبب فى بعض هذه الظواهر ، وعما إذا كان فقد حاسة هامة كالبصر يمكن عن طريق الجهاز العصبي أن يقلل الكمية الكلية لطاقة الحواس جميعاً .وقد أيدت نتائج التجارب النفسية الفكرة الثانية السابقة إذ أنه تبين أن حواس الكفيف لا تقل حدتها فقط بل إن حاسة اللمس نفسها ظهر عليها الضعف فى عدد كبير من الحالات وأصبحت أقل حدة من المعتاد .

هناك مجموعة الأعراض المشاهدة فى حالة كف البصر سماها أحد المربين « خواص فقد البصر » وبخاصة عند الأطفال . وهذه تشمل تحريك بعض عضلات الوجه ، وهز النصف الأعلى من الجسم إلى الأمام والخلف ، وفرك العينين بشدة كأن الكفيف يريد أن يفقأهما ، وطأطأة الرأس وما إلى ذلك .

علي أن هذه الصفات قد تكون دليلا على أن الطفل يقوم بمحاولات لإيجاد التناسق بين العضلات والأعصاب . إلا أن الناس لا ينظرون إليها على هذا الأساس بل يعتبرونها آثاراً أولية أو ثانوية قبيحة يمكن الطفل أن يقلع عنها بالنصح والإرشاد . إلا أن السبب فيها جميعاً سواء أكانت أولية أم ثانوية هو كف البصر ، وهو كما علمنا السبب فى التفاوت في النجاح كذلك .

والسؤال الهام هو : كم مما نشاهده فى الكفيف من فشل فى التكيف أو أعراض مرض يمكن أن ينسب إلى فقد البصر نفسه ؟ إن الاجابة على هذا السؤال تتوقف عليها إمكانية الوصول بموضوع التكيف إلى نقطة مركزية للتفاهم المشترك ـ فإذا كان تأثير الصدمة على الشخصية يوضح كل أو معظم الظواهر التى نراها فلا مفر إذن من وضع سيكلوجية اكلينيكية مستقلة للمكفوفين . وأما إذا كانت الاختبارات التى يجتازها الإنسان فى أثناء التكيف لها علاقة باختبارات اشترك فيها كل شخص فليس هناك ما يدعو إلى الدهشة والحيرة فى الموقف .

والآن يواجهنا السؤال : ما مقدار صحة الرأى القائل بتأثر الشخصية من فقد البصر ؟ إن علم النفس السيكلوجى لم يقدم سبباً للاعتقاد بأن فقد البصر له أثر أولى مباشر على الشخصية ، فالأثر الذى يتركه فقد البصر لا يزيد على الأثر الذى ينتج عن فقد الفرد يده أو ولادته دونها . وبالرغم من الصلة الوثيقة الكائنة بين مراكز البصر والمخ فإن الأثر ليس شبيها بما يحدث مثلا عند إزالة الجزء الأمامى من المخ ، إذ أن هذه العملية لها تأثير مباشر أولي على الشخصية . ولكن حتى إذا طرحنا هذا جانباً عمكننا أن نكشف عن خطأين فى الرأى المتقدم إذا تمعنا قليلا فى الأمر .

يعتقد البعض أن أثر كف البصر على الشخصية يتضح من التفاوت فى التحصيل ومن الصفات المشتركة للشخصية ومن الأعراض

الناتجة . ومن الواضح أن هناك تناقضاً فى هذا القول لأن العامل الواحد لا يجب أن يتخذ سبباً للتفاوت والتشابه معاً . وأما الخطأ الثانى فيمدنا بحجة أقوى .

إذا كان الرأى المتقدم صحيحاً كانت النتيجة المنطقية لذلك أن من يفقدون بصرهم تماماً يكونون أعظم الناس مثلا فى التكيف وأكثرهم إظهاراً للأعراض الظاهرة والصفات البارزة فى شخصية الكفيف . إن كف البصر درجات ، فبعض المكفوفين يستطيعون الانتقال مستقلين ومستعينين بما تبقى لهم من بصر . ويجب أن يكون هؤلاء أقل المكفوفين تأثراً . وليس هذا هو الواقع إذ لم يمكن إثبات الإطراد النسبى فى هذه الحالة . أما الواقع فهو أن من يفقدون البصر تماماً هم أسرع المكفوفين فى التكيف وأقلهم إظهاراً للأعراض الإيجابية . والأطفال منهم يحصلون على أحسن النتائج فى المدارس الداخلية .

إلا أننا نريد أن يكون واضحاً أننا نحاول أن ننسب كل الآثار إلى العامل الاجتماعى لأن فقد البصر له بلا شك آثار ثانوية هامة . وملاحظة الدكتور هاينز التى تقول : « إن الطفل الكفيف لا يمكن إثارته إثارة كاملة كالمبصر فلذلك لا يستجيب استجابة كاملة » هذه الملاحظة هى من الوضوح بحيث يجب ألا تناقش . ومع ذلك فهناك أطفال فقدوا البصر جزئياً ولهم قابلية عظيمة لأن يثاروا ولكنهم

فى كثيرمن الأحيان يكونون نوعاً من الخلق شبيهاً بخلق المكفوفين . فإذا فرضنا أنه توفر لدينا البيئة الاجتماعية الصالحة للطفل الكفيف العادى فإن أى طفل كفيفاً كان أو مبصراً سيستجيب لها مع إظهار بعض علامات خارجية يعرب عنها بموقفه السلبي . وحتى ضعف حاسة اللمس نفسها الذى لاحظه علماء النفس التجريبيون يمكن إيضاحه على أساس أن الحواس تضعف كلما حد من استعمالها بسبب الخوف أو العقاب . إن الطفل الكفيف أكثر من غيره لا يمكنه كشف ما حواليه عن طريق اللمس . إن إيضاحاً كهذا يجعل فهم هذه النقطة ميسوراً لكل إنسان . أما الإصرار على أن فقد البصر يقلل من حدة حاسة اللمس بطريقة ما فإنما يعمق فينا الشعور بالحيرة والرهبة من كف البصر .

التكيف العاطفى

خيبة الأمل وفكرة الظلام :

ألم نغفل فى بحثنا نقطة حيوية ؟ بلى ، كل الذين يتحدثون عن تكيف المكفوف يذكرون الشيء الكثير عن التكيف العاطفي . والمقصود من التكيف العاطفى حاجة الإنسان إلي التغلب على صراع هائل فى داخله ، وتعلمه أن يعيش بعاطفة يجعلها فقد البصر تفور وتستمر فى الفوران . ويقال إن العنصر الحاسم فى التكيف هو كيف يتعلم الإنسان

أن يعيش مع وجود هذه العاطفة . إن التفاوت الكبير فى النجاح توضحه فكرة تأثر الشخصية عن طريق قهر العاطفة التى يثيرها فقد البصر . و بالإجمال يقال إن من يفشلون فى التكيف هم الذين عجزوا عن السيطرة على مشاعرهم الجارفة .

إنه من الصعب أن نحدد بدقة طبيعية هذه العاطفة ، ولم نصادف كلية وصفاً لها مع أن وصف آثارها متوفر جداً . من هذا نستنتج أنها شعور بالكآبة ومن طبيعته أنه يسبب الضيق . ويمكن أن نقرنه بالحزن أو الشعور بالخسارة ، إلا أنه يخالف الحزن فى أنه يستمر ويدوم ، يستأصل السعادة من جذورها ويجعلها بعيدة الاحتمال فى حياة الكفيف . والناس واثقون أنها معين لا ينضب للظلام والكآبة فى عقول المكفوفين الذين تعلوهم الدهشة إذا أنكر أحد وجودها .

ويقال كذلك إنه لابد أن يوجد فى المكفوفين شعور دائم بخيبة الأمل لأنهم لا يستطيعون أن يروا ما يفعلون . وهذا الشعور يكون أقوى وأشد فى حالة أولئك الذين ولدوا مبصرين ثم فقدوا البصر بعدحين . ووجود اضطرابات عصبية كثيرة فى محيط المكفوفين إنما يرجع كلية إلى فكرة خيبة الأمل الدائمة .

ومما يؤكد كل هذه الاعتبارات ويزيد موقف الكفيف كآبة فكرة أنه يعيش فى حالة شعور دائم بالظلام . إن ما يكتب فى

الكتب والمجلات يؤكد هذه الفكرة ، والمكفوفون أنفسهم يؤيدونها .

والمعتقد أن على الكفيف أن يكيف نفسه وفق هذه العوامل كلها . ولأن عليه أن يجابهها جميعاً ، يجب أن تقوى روحه المعنوية بعبارات التشجيع والإيحاء .

إن جزءاً كبيراً من هذا الكتاب مخصص لبحث هذه المعتقدات التى قد تمثل أبرز مشاعر الإنسان نحو كف البصر ، وتحليل هذه المشاعر يجب أن يسبقه قدر كبير من الأعمال التمهيدية التى لم يحن وقتها بعد ، لذلك نكتفي بالقول دون أى تزويق إن البناء يجب أن يسبقه الهدم : هدم الخرافات والمغالطات التى علقت بموضوع كف البصر . إن إجراء التجارب لا يتناول إلا ما يقع فى نطاق ميدانه أى الخرافات المتعلقة بالحواس . أما مشكلة العاطفة ، والشعور الدائم بخيبة الأمل والإحساس بالظلام فكلها خارجة عن هذا النطاق. إنها تدخل فى دائرة الطبيب النفسى الذى يؤكد بما لا يدع مجالا للشك حسب اختباره فى معالجة الكآبة ومرض السوداء فى المبصرين أنه دون وجود مرض آخر من نوع خاص لا يمكن لحالة العاطفة هذه أن تستمر بالطريقة التى يظنها الناس فى حالة فقد البصر. صحيح أنه بعد فقد البصر مباشرة قد يصاب الكفيف بالغم العميق الخطر، وأما غير الصحيح فهو احتمال استمرار هذه الحالة . وهذا ينطبق أيضاً على

حالات خيبة الأمل . إن الشعور يكون قوياً فى بادىء الأمر ولكن حدته تخف وينتهى أمره بعملية التكيف المستمرة فى الجسم .

أما عن فكرة الظلام فهى مرتبطة بفقد البصر ، وتتسبب جزئياً عن شعور الإنسان بأنه إذا لم يحس بالضوء فإنه يشعر بعدم وجوده كأنه شىء إيجابى . وقد سلم الكفيف بفكرة الظلام فقط لأنها أصبحت جزءاً من اللغة المستعملة فى الحديث عن هذا الموضوع .

إن لهذه الاعتبارات أهمية عظمى لأنها تشكل جزءاً من البيئة التى يجب على الكفيف أن يتكيف وفقاً لها مضافاً إليها ما يمكن أن يواجه الكفيف فى الموقف الاجتماعى منذ فقده البصر .

بيئة الكفيف :

إن البيئة كلمة من الكلمات التى اكتسبت معانى كثيرة فلا تؤدى مدلولا واقعياً دون وصف أو إضافة . وإننا إذ نستعملها هنا نقصد كل شىء يجب أن يتكيف وفقه نوع خاص من الناس إذا أرادو أن يعيشوا أو على الأقل إذا أرادوا أن يعيشوا فى سلام .

كان يظن حتى الآن أنه من المستحيل التكلم عن بيئة المكفوفين إلا عن طريق التخصيص بالإشارة إلى ظروف هذا الكفيف أو ذاك ، لأن جميع المكفوفين لا يواجهون نفس الظروف بنفس

الدرجة . فلاشك أن ظروف كفيف ثرى قاطن فى أحد أحياء نيويورك الهامة تختلف عن ظروف آخر يعيش فى مزرعة فى داكوتا الشمالية مثلا ، وما يمكن أن يتساوى فى الحالين يحتمل أن يختلف فى النوع والدرجة عن ظروف كفيف مقيم فى مكان ثالث . ولكن هل نحن واثقون كل الوثوق من هذا ؟ إذا اتخذنا المقارنة أساساً لكلامنا لحظة فقد يؤدى هذا إلى وضوح غرضنا وأسلوبنا .

من الناحية الاجتماعية ليست هناك بيئة تلزم النساء أن يتكيفن لها بالمعنى الدقيق . فبيئة المرأة بها اختلافات ثقافية معينة ولكن يمكن إرجاعها إلى أبسط الأشياء التى انتظرتها كل المدنيات خلال العصور المتعاقبة من النساء وفرضتها عليهن . إن المنتظر من النساء أن يكن أضعف من الرجال وأكثر عطفاً منهم وأكثر اهتماما بالزينة . ووجود أمثلة على ثقافة منعزلة هنا أو هناك لها مجموعة مختلفة من القيم لاتؤثر على الرأى العام الذي أبديناه بل بالعكس تؤيده . فالاختلافات الثقافية تغير أساليب التعبير عن هذه الأوصاف ولا تغير الأوصاف نفسها . ونجاح المرأة أو فشلها يتوقف على درجة تمسكها أو إغفالها لمجموعة الآراء السائدة . ومهمة التكيف تبعاً لهذه الآراء ومحاولة مراعاتها تبدأ منذ دور الطفولة وتستمر طول الحياة وتستلزم جهداً قل أو كثر تبعاً لدرجة صلاحية الفرد فسيولوجيا للتفاعل مع المجتمع .

ويجيء الوقت الذى فيه يصبح مستحيلاً على معظم السيدات أن يفصلن بين جوانب الشخصية التى منحتها إياهن الطبيعة (أعضاء التناسل) ، وبين تلك التى اكتسبنها بحكم العادة . والثورة على مجموعة الآراء والأفكار الموجودة فى البيئة والتى تتطلب من النساء الرضوخ لها لا تعنى الهروب من البيئة . وفى الواقع قد يكون فى الثورة نفسها ما يقوى الآراء الخاصة بالأنوثة .

إننا ننظر إلى مجموعة الآراء هذه مؤقتاً كأنها فرضت على النساء من الرجال . والواقع أن النساء قد ساعدن على تكوين هذه الآراء التى يرضخن لمعظمها . وهناك أيضاً مجموعة من الآراء خاصة بالرجال ويجب عليهم أن يراعوها فهى التى تقرر أعمالهم ومواقفهم .

وإذا فحصنا طبيعة بعض العلاقات الاجتماعية المعروفة بين الأقلية والأكثرية يمكننا أن نرى لأول وهلة أن ما يخلق الفرق هو جملة آراء لا يوجد فيها رضوخ من جانب الجماعة المقصودة بها . إن تاريخ اليهود والأمريكان السود خلال القرن الماضى يبين لنا طبيعة ماينسب إلى كل من الفئتين . فيقال إن هناك اختلافات عقلية ونفسية وأخلاقية بينهما وبين المجتمع العام . وكل يهودى أو أسود عليه أن يدخل هذه الاختلافات فى حسابه إذا هو خرج من محيطه الاجتماعى . فمع أنه يعلم أنه لا يسمع عبارات علنية من هذا القبيل إلا قليلا وأن كثيرين من الأغلبية لا يؤمنون بهذه الفوارق إطلاقا فإن تصرفه الاجتماعى

مقيد بهـا إلى درجة كبيرة . إنه إذا لم يكن على حذر فإنه يخشى أن يثير نقد الأكثرية له علنا . والمعتاد أن يصبح الفرد من الأقلية مقيداً فى تصرفه بما يتلقنه من أفراد أسرته .

على أنه يواجه هذا الموقف بأسلحة دفاع تجمعت لديه منذ الطفولة فأحياناً يكون سلاحه الإذعان ، وأحياناً أخرى الثورة العلنية . ومهما تكن طبيعة الدفاع الذى يستخدمه الفرد الممثل للأقلية فإن الرغبة فى استخدام نظام ما للدفاع خاص يصبح قسرا صفة خاصة للأقلية كلها وتعتبرها الأكثرية ناشئة عن الفوارق الكائنة بينهما .

إن مضمون الآراء المعروفة عن المكفوفين يختلف طبعاً فى النوع عن الآراء الخاصة باليهود أو بالسود ، ولكنها تتشابه فى طريقة التطبيق . إن المشتغلين بين المكفوفين كثيراً ما يطلبون بإلحاح إلى الجمهور ألا يعتبروا المكفوفين مجموعة تتفق فى كل شيء لأنهم من الناحية الاجتماعية ليسوا كذلك ولا يمكن أن يكونوا كذلك . وكما رأينا ، لا يوجد رباط بينهم إلا نقص البصر وفى هذا أيضاً يختلفون لأن منهم من ولد دونه . ولكن ما نريد أن يفعله الناس ، وما يصر الناس عليه ، شيئان جد مختلفين ، لأن الناس يصرون على أنهم مجموعة واحدة وينعتونهم بصفات مشتركة من نوع سنضعه تحت الفحص الآن . ويدل التاريخ على أن المكفوفين على مر الأجيال استجابوا لهذا

الحافز بتجمعهم فعلا وتكوين جمعيات مختلفة الأنواع . وأعظم ظاهرة تميز العمل الاجتماعي بين المكفوفين إلى هذا اليوم هي فصل هذا العمل عن الأعمال الشبيهة به ومراعاة العزلة التامة في أنواع النشاط الخاصة به سياسية كانت أو اجتماعية .

لقد لاحظنا فيما تقدم أن الأعراض الظاهرة على المكفوفين لا علاقة لها بدرجة عدم القدرة على البصر مع مراعاة أنه إذا كان عدم البصر له تأثير ملحوظ على الشخصية فإن مقدار التأثير يجب أن يختلف باختلاف مقدار البصر المتبقي . فأي اضطراب يبدو حدوثه من عدم البصر يحتمل وجوده في طفل ضعيف البصر تماما . إن الطفلين يعتبران بالطبع كفيفين ؛ أي نسبت اليهما البيئة الصفات التي تخص بها المكفوفين . هذا هو العنصر الثابت الموجود في بيئة المكفوفين ، ولا مهرب منه إلا إلى حين . ذلك ممكن فقط في البيوت التي يتوفر فيها العقل الراجح والفهم النادر وفي صحبة المختبرين الموثوق بهم . وحتى في هذه الأوساط قد يصير المكفوف أكثر شعوراً بوجود هذا العنصر الثابت بما يقدم له من عون .

العنصر الثابت :

إن الإنسان ليشك في قدرة الكفيف بدنيا وعقليا ، ونفسيا ، وخلقياً . أما في الميدان البدني فتنعدم الثقة فيه تقريباً ، فالاعتقاد

السائد أن الكفيف لا يستطيع أن يعمل إلا القليل أو هو لا يستطيع أن يعمل شيئاً على الإطلاق . وهناك شك أيضاً فى إمكانية تكيفه . وأما من الناحية العقلية فالمظنون أن بعقله فراغا جاء نتيجة مباشرة لفقد البصر . إن الإنسان دائما يخلط بين البصر والقدرة على التصور والتخيل ، ويدهش لقدرة الكفيف على تعلم الحقائق وإدراك المسافات وفهم الفضاء . وأما من الناحية النفسية فيقال إن به مشاعر لا يعرف الإنسان نوعها ولا يدرك شدتها . ولا يجد المصاب بفقد البصر من المبصرين إلا العطف والاشفاق . وأما من الناحية الخلقية فيعتوره النقص أيضاً ، وهذه حقيقة يثبتها فقد البصر نفسه الذى يعتبر فى نظر الناس قصاصا من الله بسبب خطيئة الكفيف . والعنصر الأخير هذا هو الوحيد بين الأربعة الذى يختلف باختلاف الثقافة . وفى نظرنا نحن يعتبر عديم الأهمية نسبياً في الموقف العام .

وليس ثمة كفيف فى مجتمعنا يوافق على الاعتراض القائل إن هذه الآراء ، باستثناء الرابع ، تنحصر فى الجهلة وغير المتعلمين . إننا نصادفها جميعاً فى جميع الطبقات ، وبخاصة الرأى الأول الذى يتناول الناحية البدنية ينتظر صدوره من كل شخص لم يختلط فى حياته بأكفاء أصحاء الأبدان . والناس يتمسكون بهذه الآراء بإصرار وعناد متفاوتين ، متأثرين فى ذلك بالمظهر الخارجى للمكفوفين حتى ولو دل تصرفهم الحقيقى على عكس ذلك . وهناك من يعملون بين المكفوفين

سنين طويلة ومع ذلك يبدون تمسكهم بالرأى الثالث الخاص بالناحية النفسية .

الواقع أن السعي فى إظهار خطأ هذه الآراء لا يؤدى عادة إلى الاقلاع عنها بل إلى زيادة توكيدها وذلك بسبب نسبة ما يؤديه أقوياء الأبدان من أعمال إلى قوى غريبة خارقة للعادة . ومن يزعم أن المكفوف تنمو فيه حاستا اللمس والسمع بطريقة خيالية يبرهن على أنه غير قادر أو راغب فى البحث عن الأسباب المنطقية المعقولة .

لقد ظلت هذه الآراء قرونا طويلة تشكل حاجزاً قويا يحول بين الكفيف وبين استئنافه الحياة فى المجتمع المنظم ، ويفرض عليه نظاماً خاصاً من المعيشة بغض النظر عما إذا كان يتفق مع مواهبه أولا يتفق . ومن يتصفح تاريخ المكفوفين يرى بكل وضوح أن هذه الآراء والمشاعر التى كونها الإنسان عنهم لم تختلف إلا قليلا على توالى العصور . والباحث فى هذه الحالة معرض أن يسمى هذا تحاملا من الناس على المكفوفين لو لم يكن هناك دليل على أنها حالة نفسية متأصلة أكثر منها تحاملا .

إذا كان الأمر كذلك وجب على الكفيف الذى يريد التكيف أن يوجه جل اهتمامه إلى حقيقة هامة وهي أنه سيقضى كل حياته مع هذه الآراء مع أن مجابهتها ليست بالمسئولية الهينة ، وتأثير الحالة

الاجتماعية الناتجة على الناحية البدنية يبلغ من العمق درجة تجعل من المتعذر جداً محاولة التكيف فقط فى الناحية البدنية البحتة . فالفرد المولود كفيفاً عاش بالطبع طول حياته فى بيئة خلقتها هذه الآراء. وأساليب دفاعه ومقاومته لها تتوقف على شخصيته . وهو لا يستطيع أن يعرف أن البيئة ليست نوعا خاصاً به إلا إذا أخبره غيره . أما من أصيب بكف البصر وهو كبير فإدراكه للواقع يسبب له صدمة تتوقف درجة حدتها على مقدار اعتقاده بهذه الآراء ومساعدته على تثبيتها فى الأذهان قبل الإصابة . وأساليب الدفاع التى اعتاد استعمالها تندفع لتأخذ مكانها فى المقدمة ، وموارد كيانه العصبي تتكلف جهداً شاقاً .

وإذا نحن ألقينا نظرة إلى علامات فشل المكفوفين فى التكيف وإلى الأعراض التى تنشأ عن فقد البصر ، وكذلك إذا نظرنا إلى العوامل الأساسية فى البيئة التى هى موضوع بحثنا لتساءلنا أيهما أشد أثراً فى الموقف : البيئة أو كف البصر . والعامل الأساسى فى البيئة هو الشعور بالنقص فى كل نواحي النشاط الإنسانى ، ويشمل هذا الشعور أيضاً الأقليات الدينية والجنسية .

لقد تحدثنا عن الصراع القائم بين التكيف والبيئة الاجتماعية . والتكيف إن هو إلا رفض لفكرة النقص التى تعتنقها البيئة . لذلك يكون الصراع بين الكفيف الناجح فى التكيف وبين البيئة أعنف

مما لو حل الكفيف مشكلته بالرضوخ للأمر الواقع . وهو يبين لنا كيف أن البيئة تكبت الحافز للتكيف بطرق تختلف عن التدخل المباشر .

ان في يومنا هذا مجالا فسيحاً أمام المكفوف للاندماج فى المجتمع المنظم . ففي استطاعته أن يختار فى نطاق معين المهنة أو العمل الذى يتفق مع ذوقه ، ولكن فىهذه الحالة توجد المشكلة الاجتماعية التى يمكن الكفيف أن يتجنبها فقط بمراعاة الآراء السائدة فى البيئة مراعاة تامة ، إلا أنه إذا اختار سلوك هذا السبيل كان ذلك على حساب مكانه في المجتمع . هذا هو لب مشكلة المكفوفين فى وقتنا هذا .

ولما كانت مجموعة المشاعر والآراء نحو الأقليات هى التى تشكل بينهم ، فإنه يكون من أفحش الأخطاء أن نبحث عن أصل هذه المشاعر فى الأقليات نفسها ، فإن البدء بهذه الصورة هو نفسه يؤيد اعتقاد الرأى العام بأن الأقليات هى الأصل . إن نقطة البدء فى بحثنا إذن يجب ألا تكون العوامل التى تتصل بكف البصر نفسه ، بل تلك التى تنشأ عن التمتع بالبصر .

البصر والجمـــال

عند مدخل مبنى كبير ، وفى مواجهة ميدان صغير ، يدخل رجل يمسك بمقود كلب ذكر من كلاب الصيد ، ذى أنف معقد ، وقد يصعب على كلب مثله إدراك هذا التعقيد ، إلا أن الإنسان لا شك مدركه . ويبدو أن الرجل وكلبه في نزهة خارجية ، فاليوم بهيج مشمس بالرغم من برودة الجو ، والسماء صافية زرقاء ، وتبدو المبانى المواجهة للميدان أقل قذارة من المعتاد . وبالرغم من اللون الأسود المتخلف من الدخان والقذارة المترسبة على هذه المبانى نجد أنها بدت جميلة إلى حـد ما ، وعلى أى حال فإن كلا من الرجل والـكلب لم يسترع تفكيره الفرق بين الجمال والقبح .

اجتاز الاثنان الحديقة الصغيرة فى وسط الميدان ، حيث توجد رقعة صغيرة من العشب الأخضر فيها بعض الزهور التى تفتحت عن أكمامها ، والأشجار التى أخرجت براعمها . وأخذ الـكلب ينتقل بسيده من شىء الى آخر ، متشمما هذه الأشياء بعناية ، كما يقوم بمعاينة أعمدة النور والأشجار وصنبور الحريق ، ويظهر واضحاً شغفه بمـا يفعل ، وقد يتعب بعد برهة ويتمدد على الارض ، إلا أنه فى مسلكه

هذا يبدو وكأنه اشتاق لعدة ساعات أخرى من مثل هذا الشم ، ثم لا يستطيع بعد ذلك شم الأشياء التى تعترضه بالسرعة الكافية ، وتحيط كل الروائح الحريفة بالكلب ، ويعجبه كثيراً مجموعة من زهور البنفسج تنمو بين الأزهار ، فيستنشق شذاها بنهم بفتحتى أنفه العريض محدثاً جلبة وصوتاً مرتفعاً ، إلا أنه من الواضح أن اهتمام الكلب الأكبر موجه نحو محاولة الكشف عن وجود كلاب أخرى ، وكان لوجود فضلات لها ما ضاعف اهتمامه ، وكلمة اهتمام هي الوصف الذى يمكن أن يوصف به شعوره نحو هذه الفضلات ، التى لا شك أنها توحى إليه بما توحى به صورة إنسان لأنسان آخر ، واستمر الكلب يتفقد كل شىء قائم ثم يتبول عليه كأنما يهيىء للكلاب الأخرى فرصة الشم بدورها .

وكان صاحب الكلب مشغولا كذلك باستخدام جهازه الحسى فكان ينظر ، ويقف ، ويحملق حوله متتبعاً كلبه ، تحيط به الألوان فينظر للطلاء الجديد الأخضر علي المقاعد ، وإلى العشب ، وإلى الأشجار المبرعمة ، وكما يقول وايلد (Wilde) إلى المظلة الصغيرة الزرقاء التى يسميها السجناء : السماء ، وقد أمضى الرجل صباحه كله فى القراءة ، وهو يشعر بالسعادة الآن إذ يمط عضلات عينيه علاوة على سعادته بالانفعالات التى يثيرها إدراكه للضوء ، وكان يشعر بلذة يحسها المرء دائماً فى العمل الصريح وهو متفائل وبصره يقوده أثناء سيره

دون وعى كبير منه وأخذ يلاحظ حركة المرور والقواعد والحواجز حوله ، ولم يكن يبالى كثيراً بما تنقله له حواسه من سمع وشم ولمس من معلومات بجانب ما يراه ، فلم تكن هذه المعلومات ذات أهمية ثانوية بالنسبة له فقط ، بل إن أهميتها لم تتعد مجرد المعاونة فى التعرف على المكان الموجود فيه .

وكان أهم ما يشغل باله جمال المنظر الموجود حوله ، وساهمت الألوان ودرجات الاختلاف فى الظل فى خلق هذا الجمال له . ومن العبث التساؤل عما إذا كان للجمال والقبح حقيقة موضوعية ، إلا أن الاثنين على كل حال لهما صبغة ذاتية ، والإنسان من المخلوقات التى تقدس الشمس ، فهو يحب الضوء ويقترن النور بالمظهر الحسن كما يقترن الظلام بالمظهر القبيح ، وهو يخشى الظلام أو على الأقل يخاف من أن يضطر للتحرك فيه ويشعر أن بصره لن يفيده فى الظلام إلا أن ذلك ليس السبب الوحيد لعدم ثقته به . فهو يتخيل السماء مملوءة بضوء خالد واضح غير محدود ، وقد فسر دانتى وميلتون (Dante & Milton) مثل هذا الاعتقاد بالفكرة السائدة عن جهنم وأنها سوداء ومخيفة تضيئها نار قاسية تزيد من ظلامها . وتحوى الأساطير كثيراً من الشواهد على أن العين ترمز إلى الشمس ، فإن إله الشمس هورس (Horus) يحمل عين الإنسان كرمز له ، ويطلق على الشمس فى الأساطير الهندية «عين العالم» «وساتالوسيا» أى «الضوء المقدس»

هى القديسة التى يستعان بها علي أمراض العيون ، وقد استشهدت فى أقصر يوم فى السنة ، ويقترن عادة ميلاد آلهة الشمس فى الأساطير بالانقلاب الشمسى فى فصل الشتاء .

ويحتاج الإنسان لقدر معين من الضوء ليضمن سلامة تكوينه ، ويحتمل أن حاجته الشديدة للضوء قد أثرت فى تاريخ نشأة الإنسان وفى تطوره الثقافى . وقد كان لدى الإنسان دائماً الرغبة فى رفع نفسه إلى أعلى تجاه السموات وقد تكون تلك رغبة منه الوصول إلى الرب أو إلى الشمس ـ واختر لنفسك ما يتناسب وتفكيرك ـ وهذا التشبيه يوضح لنا جزءاً من اعتقادنا أن الحق والنور شىء واحد .

ويعتقد الإنسان أنه مادام بصره هو المستقبل المباشر للضوء فهو المستقبل الوحيد لذلك عنده . وعلى أى حال فإن الجسم كله يحس الحرمان من الضوء إذا ما حدث هذا لأى مدة من الزمن ، وإحساس الجسم بالضوء أكثر من مجرد إحساس بالدفء ، فالجلد حساس بالنسبة للضوء ، وتعرضه له أو حرمانه منه يحدث تغيرات فيه وأشعة الضوء التى يستجيب لها لا يمكن أن تدركها العين فى الواقع .

ويدرك باطن الإنسان ما إذا كانت الدنيا نهاراً أم ليلا ، والقول بأن مكفوفاً يدرك اختلاف الليل والنهار بالتعود خرافة باطلة . وتنبض الطبيعة كلها بالحياة وترتفع الحيوية وتنخفض كحركات المد

والجزر كما أن الإنسان يبدو ضعيفاً جداً فى الساعات الأولى من الصباح ويبلغ قوته الذروة في الليل .

واعتقاد الإنسان أن عينيه هى المستقبل الوحيد للضوء هو أول مبالغة منه فى تقدير دور البصر فى الحياة .

والكلب مخلوق لا يعنيه الضوء كثيراً ، وهو أكثر نشاطاً فى الليل منه فى النهار ، وحاسة البصر لديه أقل مما هي لدى الإنسان ، وهو لا يستطيع تمييز الألوان جيداً ، وتمييزه للفروق بين بعض الألوان ومنها الأحمر والأخضر أمر مشكوك فيه ، وليس حقيقياً أن الكلب المرشد يرى التغييرات فى أنوار المرور . إلا أن حاستى السمع والشم قوية جداً لديه ، ولقد قدرت حاسة السمع عنده بأكثر مما هى عند الإنسان بست عشرة مرة ، كما أن حاسة الشم عنده قوية لدرجة تجعل من المستحيل معرفة الفرق بالنسبة لها بينه وبين الإنسان .

ويمتاز الإنسان على الكلب فى حاستى البصر والحركة ، وقد يصعب الجزم بأن الثانية أكثر حدة عند الإنسان منها عند الكلب ، إلا أنه من المؤكد أن قابلية الإنسان للتدريب على الحركة أكبر . وتعود الإنسان المشى منتصب القامة يضطره لأن يكون على حذر من أن يقع له أى حادث ، بعكس الكلب الذى لديه الوقت الكافى

لتفادى ما قد يحدث له لمشيه على أربع ، والإنسان مضطر لأن يحدد بدقة المسافات والعمق ، يساعده فى ذلك نظره بعينيه الإثنتين ، فتنطبق الصورة المنعكسة عليهما وتمتزج ، وذلك بوساطة النظام الخاص بتوزيع البصر فى المخ وتبدو فى صورة واحدة بالرغم من الرؤية بالعينين الاثنتين . وهكذا يضيف الإنسان عاملا كبيراً هو البصر في تذوقه للفن والجمال ، وهنا يظهر الفرق الفنى بين الصـورة الفوتوغرافية ولوحة الفنان .

ويقوم الجهاز اللاإرادى بضبط كل هذه الأمور ، ويعتقد الإنسان أنه يتحكم فيها بعينيه ، ويظن أن بصره يحميه من الوقوع أو التعثر ويبدو أن الإنسان تساعده عيناه بالانتباه اللاإرادى أكثر مما يساعده سمعه وحركاته . أما رجلنا هذا الذى تحدثنا عنه فيساعده سمعه فى سيره ولـكنه لا يعير مايسمعه أى اهتمام واع ولذا فإنه يصعب عليه فهم السبب الذى يجعل المكفوف لا يتعثر أكثر منه .

ويعتقد بعض الناس أن مقدرة الـكلب على الشم هى الحاسة التى تنبئه عن الحوادث ، والأشياء التى تهمه والتى تقع على بعد منه حتى أنه يبدو أن إدراكه للمعلومات بالشم يسبق سمعه ، وعلى هذا فإن كلا من الرجل والـكلب يعتمد على إحدى حواسه التى تمكنه من إدراك الأشياء من بعيد ، كما يعتمد عليها أيضاً فى الاستثارة أكثر من

أية حاسة أخرى ويستمتع باستثارتها فى حد ذاتها .

وتعتمد عملية استقبال العين لأى مثير على انتقال الموجات الضوئية إليها ، وتدل البحوث الحديثة على أن عملية الشم تعتمد أيضاً على استقبال إشعاع موجات لها ذبذبات مختلفة اختلافاً كبيراً تحملها الغازات ، غير أن كل هذه الآراء لا تهمنا كثيراً ، هذا ومن المستحيل معرفة فن الذوق والجمال عند الكلب حتى لو عرفنا طبيعة العملية الحسية الذى يستمتع بها أكثر من غيرها ، كما لا يوجد من يعرف الفرق الذى يحسه الكلب بالنسبة لنوع أو درجة الأشياء التى يشمها ، ونحن لا نعرف فى الغالب ما يجده كريها وما لا يجده كذلك ، أما فى حالة الإنسان فإن أطنان الكتب الذى كتبها الفلاسفة عن الأسس المعقدة المتصلة بموضوع الجمال تسهل تبسيط هذه المسألة . إن الألوان تسبب بهجة لأنها جزء من الضوء ولأنها مكونات الطيف ولذا فهى متصلة بتلك القوة المثيرة التى نسميها النور ، أما القبيح فهو بلا شك ذلك الشىء المظلم المعتم غير الواضح . والتفرقة بين الطيب والخبيث مستقاة من تفرقتنا بين النور والظلام ، ويمكن أن نتبين الصورة المنظمة التى تحوى الاثنين وتدرجات اللون فى كل منهما لكل التوازن التى يتحكم بين الطيب والخبيث الذى يبحث عنه الإنسان منذ الأزل وطول حياته . وإن الشعور بأن الخير مرتبط بالنور والافكار المتعلقة بذلك أمر لا يتصل بالبشر . ولفظ خفيف صفة ضدها لفظ ثقيل

ويدل على الشيء الذى يمكن رفعه إلى أعلى أى إلى السماء فإذا ما اجتمعت كلتى ثقيل ومظلم دل على النحس والشر .

والخطأ الذى يرتكبه الإنسان هو اعتباره أن النور صفة إيجابية وأن غيابه صفة سلبية يسميها الظلام ، ويفترض إمكان رؤيته ، ومن أصعب الآراء التى لا يمكنه الاقتناع بها وجدانياً أنه لا يرى الظلام أبدا ، وإنما هو يتأثر بغياب النور ، أو بمعنى آخر هو لا يرى شيئاً فى الظلام . ومن الحقائق المعروفة بالنسبة لهذا الموقف أن الإنسان يعتقد أن فقد البصر يسبب من الألم مالا يسببه فقد السمع .

ويحدث الآن بعض التغيير بالنسبة لرجلنا وكلبه ، ويظهر شيئان يثيران اهتمام كليهما ، إذ تأتى سيدة ومعها كلبة من النوع الإسكتلندى ولها مقود ، وقد لاحظ الكلب الذكر ظهورهما قبل سيده واستدار فجأة ليدفع أذنيه إلى الأمام ويشم بنهم،ويتتبع الرجل الموضوع ، ويبدى السادة والكلاب عند لقائهم علامات السرور ، فيهز الكلبان ذيلهما ، ويومىء السيد والسيدة برأسيهما ويبتسمان ويتصافحان ويتعارف الجميع ، وينظر الرجل والسيدة كل لصاحبه بتقدير كبير ، ويشم كل من الكلبين صاحبه . ونلاحظ الآن أمراً طريفاً : فالكلب الذكي يقوم بمعظم الشم ، بينما يقوم الرجل بمعظم النظر ، وقد يراعى الرجل عدم الحملقة ، إلا أن ذلك لا يغير من حقيقة كونه ينظر إلى السيدة بل ويؤكد ذلك .

ويبدو أن الكلبة الإسكتلندية قد اكتفت ببعض الشم بينما استمر كلب الصيد يشم مدة طويلة ووقفت الكلبة لتتيح له ذلك ، وهى تشعر بمودة نحوه . وحذت السيدة حذو كلبتها من الناحية النظرية على الأقل ، فهى وإن كانت لم تنظر كثيراً كما كان يفعل الرجل ، إلا أنها تعرف أن نظره إليها يثيره انفعالياً إثارة كبيرة ، كما أنها تعرف مدى استثارته عن طريق النظر ، ولذا فقد عمدت إلى اللبس الحسن كي ترضى نظره . ولم يكن هذا العرض من جانبها لإثارة النظر فقط لأننا نجدها أيضاً تضع من الرائحة الذكية ما لا يضعه الرجل ، وقد تبذل كذلك مجهوداً فى ترخيم صوتها .

وهناك أسباب فسيولوجية للاختلاف فى الشعور الحسى فى الجنس يعرف فى الطب النفسى بالمصطلحين « حب النظر » و « حب الاستعراض » . ويبدو أن حواس الإدراك الخارجى أقل أهمية فى الاستثارة الجنسية عند الأنثى منها عند الذكر من الثدييات ، فجلد الرأس عند الذكر له دخل كبير فى الاستثارة ، وقد وضح ذلك ببعض التجارب التي نزع فيها هذا الجلد من ذكور وأناث ثديية ثم استثيروا جنسياً فاتضح أن نزع الجلد لا يؤثر فى القدرة العامة على الاستثارة الجنسية لدى الأنثى قدر تأثيره لدى الذكر الذى أدى ذلك عنده إلى انعدام هذه الاستثارة كلية تقريباً ، وعلى هذا فإن البصر وغيره من

وسائل الاستثارة يلعب دوراً هاما لدى الذكر ، بينما تتوزع القدرة على الاستثارة لدى الاثنين بشكل أوسع .

ويبدو أن ملاحظة السلوك تبرهن على هذه الاستنتاجات الفسيولوجية ، فالرجل يقوم بمعظم النظر باعتباره جزءاً ضرورياً من عملية الاستثارة الجنسية ، ويختار المرأة غالباً بناء على مظهرها ، ويضحي الرجل بكل آرائه الفكرية ويصر على أن مظهر المرأة يدل على كل الصفات التي ينعتها بها طالما أن جمالها من النوع الذي يستهوي العين. وقد ارتفعت نساء إلى قمة الشهرة والقوة لمجرد جمالهن ، وكان هذا الجمال طريقهن الرئيسي لكل نجاح اجتماعي ، ولم يذكر التاريخ سوى قلة لا تتعدى أصابع اليد من رجال بلغوا نجاحهم الاجتماعي بفضل جمال مظهرهم ، باستثناء الممثلين والفنانين ، ويعزو فرويد مثل هذا التقدير للأمور إلى المبالغة في تقدير الناحية الجنسية ، ولكنه لم يضف إلى ذلك أن هذه المبالغة ترجع إلى البصر فقط .

انتهي الكلبان من الشم وابتدآ اللعب معاً بمودة ، وفعل الرجل والسيدة ما يشابه ذلك ، فقد انتهيا من الإعجاب ببعضهما وتحادثا ، وهنا يظهر اختلاف كبير بين السادة والكلاب ، فالإنسان يستطيع التمتع بحاسة الشم بدرجة أقل حدة عما هي عند الكلب ، إلا أنه يتمتع

بها بطريقة لا يعرفها ولا يستطيعها الكلب ، فهو يستطيع تبادل الصوت بطريقة ما فتظهر معان لها أهميتها بالنسبة للمتكلم والمستمع ويعبر الكلام عن شعور حقيقي بالسرور . ولهذا السبب نجد أن سماع الأصوات أمر ضرورى للناس ، وخصوصاً سماع الحديث ، والحرمان من ذلك فى حالة الصم يحدث توتراً فى الشخصية ، وقد اخترع الناس الكثير من الأصوات الفنية ، ومنها الأنغام التى تنبع من احتكاك أوتار ذيل الحصان أو نفخ الهواء فى ماسورة ، أو دق الطبول حيث تعتبر أصواتاً جميلة مرغوبة إذا ما أديت بطريق معينة .

تصافح الرجل والسيدة ليضيفا قليلا من اللمس إلى تجربتهما التى دامت مدة ساعة ، ثم استدار ورجع كل منهم من حيث أتى وتبعهما الكلبان فى طاعة ظاهرة . ويسرع الرجل فجأة ، فقد مكث طويلا خارج المنزل ، وينظر إلى ساعته وهذه الأداة التى تساعده على إدراك تدفق الضوء والظلام عندما يتغير الليل والنهار ، مقدمة له سبباً آخر للظن بأنه يستدل على الوقت بواساطة بصره فقط . ولم يعد الرجل مهتما بالحصول علي متعة بل هو يرغب فى معلومات لها قيمتها فى حياته واستعان ببصره فقط فى سيره وصعد الدرج بسرعة إلى داخل شقته ثم جلس .

والتقط الرجل كتاباً تقول الجملة الأولى فيه « أليس تعلق وردة »

وقد انتشرت رائحة الورد فى الحجرة ، ويقلب الصفحة دون وعى ، ولو سئل عن رقم الصفحة التى كان ينظر إليها لاضطر لإعادة النظر ، إلا أن كلمة الوردة المكتوبة أمامه قد أوضحت له فكرة بسرعة كما لو كان سمعها فى حديث . ولا شك أن هناك فرقاً بين عملية الاستقبال والرؤية ، فهو قد استقبل رقم الصفحة إلا أنه لم يره كما أنه رأى الوردة ممثلة فى الكلمة ، وقد تكون فكرته عن الوردة مختلفة تماماً عن الحقيقة . والأساس فى اختبار رورشاخ هو رؤية أشياء تختلف عما يستقبله الإنسان . ويتضمن الاختبار وضع نقط من الحبر على ورقة ، ثم تطوى الورقة فيضغط الحبر أى شكل متوازن ذى ناحيتين . وقد قننت عشرة أشكال لعمل الاختبار تستعمل الآن . ويرى الناس عادة عشرين جزءاً وما يزيد رسمت بدقة فى هذه البقع ، من حيوانات وأناس وأشياء أخرى ، وتبدو هذه الرؤية لأكثر من الموجود فعلا وبشكل منظم بحيث يستطيع القائم بالاختبار دراسة استجابات الشخص المختبر ، وتكوين وتفاعل شخصيته ، كما يمكن إدراكه للانحرافات الشخصية من أمراض عقلية خافية وظاهرة ، أو قلق نفسى تختلف درجاته ، وغير ذلك من علل نفسية .

والنظر له أهميته الكبرى بالنسبة للإنسان ، فقد استرشد به فى بناء الحضارة ، إلا إنه لا يقنع بأهميته الحقيقية ، بل يغالى فى تقدير صوره فى الحياة ، ويعزو إليه من القيم مالا دخل له بها ، وهو يتجاهل

ما تنقله إليه الحواس الأخرى من المعلومات ، بل ينسب هذه المعلومات إلى بصره فقط ، ويظن الإنسان دائماً ، كما سنورد فى فصل آخر أنه قد رأى ماسمعه أوشعر به ، كما أنه يعتبر ما سمعه أو شعر به صورة بصرية .

وبالرغم من أن البصر يتأخر ظهوره في نمو الطفل ، إلا أنه يحتل بسرعة مكان القيادة بالنسبة للجهاز الحسى ، وكما سنرى أيضاً نجد أن الإنسان يميل إلى الخلط بين قدرته على الإدراك وقدرته البصرية .

تطابق البصر والفهم :

الإدراك هو القدرة الفعلية التى يستطيع بها الإنسان أن يعرف الحقيقة عن طريق المعلومات التى تصل إليه عن طريق حواسه ، وقد استطاع الإنسان ، بتفكيره وإدراكه ، أن يستنتج أن العالم ليس سطحاً ، بالرغم مما يراه ، وأن الشمس كذلك تدور خلال أوقات النهار .

ويسمى هذا الإطار الذى يعمل الإدراك داخله بالمنطق ، وقد استطاع الإنسان بمنطقه هذا أن يضع القوانين الصحيحة فى رأيه وإدراكه . وقوانين نيوتن فى الطبيعة ، وإقليدس فى الهندسة أمثلة لذلك . ومثل هذه القوانين مبنية على حقائق ، كما أن لها فروضا تبدو فى غير

حاجة إلى برهان ، مثل الفروض المعروفة والتى تقرر أن الخطين المتوازيين لا يمكن تلاقيهما ، وقد علمتنا الهندسة ، وفهم ذلك العقل الإنسانى أن الخطين المتوازيين حقاً لا يمكن تلاقيهما أبداً ، ولم يحدث فى تجارب الإنسان اليومية ما ينقض ذلك ، بل على العكس عززت التجارب هذا الرأى كمنطق لا يدحض ، ولو أن عجز الإنسان عن أن يرى بعد مسافة محدودة كان هو السبب فى عدم نقضه . وقد سبق إدراك علماء الرياضة التجارب البصرية بآلاف السنين .

هذا وقليل من يستطيع تتبع الرأى القائل بأن فرض أقليدس غير حقيقى ، بل إن قليلين أيضاً من يعرفون ماهية نظرية النسبية ، وقد استطاع أغلبية الناس عن طريق القنبلة الذرية فقط إدراك أن العلوم الرياضية لم تعد حلماً فلسفياً ، ولا شك أن الناس حينما قيل لهم لأول مرة إن الأرض كروية الشكل ، وإن الشمس تدور حولها ، لم يستطيعوا فهم ذلك ، إلى أن مثلت لهم الأرض كروية موضحاً عليها أجزاؤها ، فأمكن لتخيلهم البصرى لمس هذه الحقيقة ، ويستطيع الناس إذا ما رأوا المثال وكونوا صورة ذهنية عنه أن يعدلوا من منطقهم .

وما زال الإنسان بعد آلاف السنين انكشفت له خلالها الحقائق التى هزت المنطق ، يقول إن الشمس تغرب والقمر يطلع ، ولا تزال

كلمة الأفق تدل على قصور المعرفة ولا تزال الأرض تقاس وكأنها مسطحة مستوية .

وتتساوى القدرة على الإدراك العقلى مع ما تدل عليه كلمة البصر لدرجة أننا نعبر عنها لغوياً بكلمة التصور العقلى ، وتدل الكلمة على فكرة الصورة فقط ، وإذا أراد الشخص أن يتكلم عن الإدراك عن طريق اللمس أو السمع ، فعليه أن يوجد اصطلاحات أخرى كالتسجيل السمعى أو التسجيل اللمسى . وحينما تقدم فن تعليم الطفل المكفوف اتضح أنه لا توجد كلمات تدل على معانيها مما اضطر إلى استعمال بعض الكلمات المتعارضة . وحينما اخترع الحاكى لم توجد فى اللغة الكلمة التى تعبر عن معنى الصوت المسجل ، مثل ما تعبر كلمة صورة عن معنى الرؤية ، واختيرت بذلك كلمة غير مناسبة هى كلمة « أسطوانة » .

ويستعمل الإنسان غالباً كلمات لها صلة بالنظر والتخيل البصرى للتعبير عن فهمه ، فيقول مثلا إنه يرى المقصود ، ويرى الموقف ويلقى نظرة ويرى الشواهد ، بينما نجد أن الكلمات التى لها صلة بالحواس الأخرى والتى تستخدم للتعبير عن الفهم ، قليلة جداً كما فى قولنا (وضع يده على المشكلة) .

وحينما تتعارض الحواس فيما تنقله من معلومات بالنسبة لحقيقة ما

فإن الإنسان غالباً ما يصدق بصره ، متغاضياً بذلك عن أهم الشواهد الأخرى ، وقد بين ويتكن (Witkin) ومساعدوه فى كلية بروكلين عن طريق بعض التجارب الدقيقة التى أجروها ، أن بعض الأفراد إذا ما جلسوا على كرسى مائل حوالى ٣ درجة يتجاهلون بعناد شعورهم ، ويعتقدون أنهم يجلسون معتدلين ، وذلك لأن الحجرة التى تجرى فيها التجربة مصممة بشكل يوحى بهذا التأثير البصرى ، وقد بين ويتكن كذلك أنه إذا تعارض البصر والسمع فى معرفة مصدر الصوت فمن العجيب أن عدداً كبيراً من الناس أميل لتصديق بصرهم ، كما أثبتت التجارب ، دون إيضاح للسبب ، أن النساء أميل لتصديق بصرهن من الرجال .

وكما سنرى فيما بعد بتفصيل أكبر ، نجد أنه من الصعب إقناع الناس بإمكانية تعليم الطفل المكفوف وذلك لاعتقادهم أن عقله غير قادر على التصور ، وهم لا يتصورون كيف يقدر الطفل المكفوف على الفهم دون أن يكون قادراً على التصور ، ويرون أن عقل المكفوف لابد مشتمل على فراغ كبير . ولما ظهرت النظريات القائلة بأن الحواس الأخرى غير البصر قادرة على نقل الصور البصرية عزز ذلك الآراء المنادية بإمكانية تعليم المكفوف .

وتبين الأحلام مدى اعتبار البصر والتسجيل مركزاً للفهم .

ويمكن أن تحول الصور التى تفسر بما لا يمت للبصر ، وحتى المعنويات تظهر فى الأحلام على هيئة صور مضحكة الشكل أحياناً ، ولكن من الممكن إعادة تفسيرها وإرجاعها إلى معانيها المجردة فى حالة اليقظة ، وقد حلم صبي بمعنى الأبوة فى صورة لأبيه وأمه . وتوضح حالة البنت التى حلمت بصاروخ من النار ورأت كلمة ضوضاء مكتوبة على لوحة ، بدلا من أن تسمع انفجاره . كيف يفسر الصوت بالتخيل فى الأحلام .

ويستخدم الطفل حواسه الأخرى قبل البصر ، ولكن سرعان ما يبدأ فى استخدامه فى التعرف على الحقائق التى خبرها عن طريق اللمس والسمع وحواسه الأخرى ، ولا يلبث البصر أن يتبوأ مكان القيادة فى الجهاز الحسى . ويبدو أن نمو القدرات العقلية يتبع نفس النظام ، فيصبح التصور هو النقطة التى يرتكز عندها كل ما يراه البالغ فى الواقع ، وتصبح معرفة الحقيقة أو الفهم مطابقاً للتصور ، ويتوقف التصور على القدرة البصرية ، وبذا يتعادل الثلاثة : الفهم مع التصور مع البصر ، وإذا حذفنا العامل الوسط تعادل الفهم مع البصر .

وقد كان هذا التعادل سبباً فى أن يتقيد الإنسان بالشىء المادى المحدود ، فشكل أربابه حسب صورته هو ، وصورة المخلوقات الأخرى التى يعرفها ، وما لم يستخدم الإنسان أرقى مراتب تفكيره فإنه لن

يخلص من فكرة التعادل هذه ، ولن يدرك أن ما يعتبره مجهولا هو مالا يمكن رؤيته وليس مالم يره أبدا ، وأخيراً وبعد فترة طويلة قاسى فيها أشد الآلام عرف الإنسان أنه لايستطيع أن يرى ما يشبه الإله .

حب النظر وحب الاستعراض :

إن المغالاة فى تقدير البصر كوسيلة عملية فى الحياة أمر عادى لايؤثر فى نماذج السلوك والاتجاهات الشخصية بشكل مرضى، إلا أن المغالاة فى تقديره من الناحية الجنسية له تأثير أبعـــد فى السلوك والاتجاهات ويؤدى إلى انحراف فى الشخصية .

ومن الصعب تحديد دور البصر فى الناحية الجنسية بدقة . ويدل على مكانة البصر والنظر فى العملية الجنسية نفسها اتخاذ الرجل والمرأة دوراً إيجابياً وسابياً فى النظر فى أثناء عملية الاستثارة الجنسية . ولـكن القول بأنه جزء من النشاط الجنسى لا يعنى عدم إمكان الاستغناء عنه فى الاستثارة الجنسية ، وهناك أفراد ليس للبصر أهمية فى استثارتهم الجنسية قدر ما للسمع مثلا .

ولا شك أن الرجال عموماً يميلون جنسياً للمظهر الخارجى ، أما بالنسبة للنساء فإن من الصعب التعميم ، ومن الأسلم القول إن النساء يملن إلى الرجال الذين نجحوا فى لفت أنظارهن ، أما السمع

فإنه يلعب دوراً أقل أهمية فى اختيار الهدف الجنسى بالنسبة للنساء والرجال على حد سواء .

وهناك انحرافات جنسية بصرية ، فكل من حب النظر لاشتقاق اللذة الجنسية ، وحب الاستعراض لنفس الغرض ، يمكن أن يصل لدى بعض الأفراد للدرجة التى يصبح فيها غرضا فى ذاته ، وتقول الكتب التى تتناول مثل هذه الموضوعات بصراحة إن المناظر غير العادية المتبذلة تسبب للمنحرفين إبصارياً لذة كبيرة ، ولا يوجد مثل ذلك بالنسبة للحواس الأخرى ، اللهم إلا فى حاستى اللمس والشم ، وبدرجة محدودة ، وليس هناك دليل على إمكان اشتقاق اللذة عن طريق السمع لدرجة الانحراف الجنسى ، ويعتبر السمع بالرغم من أنه يلعب دوراً فى عملية الاستثارة الجنسية وسيلة لذلك فقط ، ويجىء كنزى (Kinsey) ليعارض ذلك ، ويدلل بالشواهد وبالإحصائيات على أن أغلبية الناس تفضل ستر عوراتها حتى لا ينظروا أو ينظر إليهم .

والتعبير الجنسى المتفق مع الأخلاق وسائله البصرية التى تختلف عن الوسائل السمعية ، فقد لوحظ تناقض كبير فى الكثير من المناظر المسرحية وصور السينما ، فبينما يظهر الممثلون بشكل قد يتنافى مع الأخلاق ، نجد أن الحوار المتبادل على عكس ذلك يبدو غاية من

الرزانة والأدب . والبصر عمل غريزى له دوره فى نواحى حفظ النفس وبقاء النوع ، وقد وضح فرويد دور البصر من الناحية الجنسية بأنه يدخل ضمن ما يسميه بالغرائز الجزئية . وبهذا الشكل تؤدى استثارته إلى إثارة مجموعة القوى الجنسية ، أو إلى أن يكون بنفسه مركزاً للذة .

وقد ترجع المغالاة فى تقدير أهمية البصر كمنطقة حساسة ، كما يقول فرويد ، إلى حدوث نوع من « التثبيت » الذى يحدث من أثر السنوات الأولى فى الطفولة ، فالطفل الصغير محب للاستطلاع بفطرته ، وهو شغوف لمعرفة كل الحقائق المحيطة به . ولكن الحقائق الجنسية محظور اطلاعه عليها ، وهذا الحظر يعطى الطفل أول فكرة عن أن موضوع الجنس جزء منفصل عن الحقيقة . وقد تؤدى المعاملة الطائشة أو القمع أو العقاب أو غيرها من الطرق التى قد تستعمل فى مثل هذه المواقف إلى تثبيت غريزة التجسس على ما هو محظور ، بحيث تظل على نفس المستوى الذى كانت عليه فى الطفولة طول حياة الفرد ، ويظل حتى آخر أيامه يشعر أن شيئاً مهماً من المعلومات قد حجب عنه . وقد يكون هذا التثبيت للغريزة بسيطاً أو شديداً ، وقد يمكن التغلب عليه بحكمة فى سنوات الطفولة التالية . أما فى حالة عدم التغلب عليه فيؤدى ذلك إلى أحد أمرين : إما أن يظل الانفعال الخاص بالبصر

دون إشباع ، مهما نظر البالغ إلى ما منع عنه وهو طفل . وقد يبحث عن مناظر أشد تأثيراً بأمل تقوية غريزته ، أو قد يعلى هذا الدافع إلى التطلع ، محولا إياه إلى النواحى الاجتماعية المفيدة ، ومقدماً للمجتمع لونا آخر من التجسس المفيد ، كالتعرف على المجهول ، ومثل هؤلاء بعض أطبائنا النفسيين الممتازين .

وقد أطلق كرافت إيبنج (Krafft - Ebing) ، المصنف المشهور والخبير بأنواع الانحرافات ، قبل فرويد بعدة سنوات على الظاهرة السابق وصفها ، حب النظر ، ويعتبر حب الاستعراض هو الوجه الآخر لهذه الظاهرة . والطفل يحب أن يرى الناس ويروه ، والتصرف الخاطىء حيال هذا الدافع الموجود يثبته ويعوقه عن النمو عن المستوى الطفولى . وإن العلاقة بطرفيها الإيجابى والسلبي ، التى بين الرجال والنساء ، والتى تتضمنها عملية النظر والعرض ، أمر طبيعى بالنسبة للجنس البشرى ، وهو لا يختلف من هذه الوجهة عن الحاجة إلى الريش وأنواع الزينة المختلفة بالنسبة للكائنات الحية الأخرى ، وقد تؤثر ثقافة المجتمع على هذه العلاقة الإنسانية ، فتجنح النساء للنظر ويميل الرجال إلى الاستعراض بشكل يجعلنا نصفهم بالخنوثة ، وعلى أية حال نجد أن الارتداد للطفولة يظل فى نطاق العلاقة التى بين الرجل والمرأة ، أى بين الإيجابى والسلبي ، هـــذا وتدل

الاستعراضات العارية والأفلام الخليعة وبطاقات القصور المخلة بالآداب على أن الرجال عادة يلعبون الدور الإيجابي عند النظر ، أى دور الشاهد ، بينما تتخذ النساء الدور السلبي أى دور المنظور إليهن .

ولا بد أن فكرة فقد البصر لدى مرضى حب النظر وحب الاستعراض تتساوى انفعالياً مع عقدة الخوف من الإخصاء (Castrartion) ، فالبصر لديهم عامل مهم فى النشاط الجنسى ؛ وعلى هذا فإن فقد البصر يبدو لهم كنهاية لمقدرتهم على الاستثارة الجنسية .

التطور النفسى المرضى بالنسبة للبصر :

إن العين وقدرتها على البصر يمكن أن تقوم فى بعض الحالات كدليل على وجود صراع فى الشخصية مثلها فى ذلك مثل أى عضو آخر له وظيفته فى الجسم ، فهناك نوع من كف البصر النفسى يعتبر كظاهرة من الأمراض النفسية التى تحدث فى أثناء الحروب ، وسبب هذه الظاهرة هو التوقف المباشر للقوة العصبية يؤدى إلى كف البصر دون حدوث أى تغيير محسوس فى العين ذاتها . وتحدث هذه الظاهرة كتحقيق للرغبة فى الهروب من موقف صعب لا يمكن احتماله أبداً ، ولو لفترة محدودة . وحدوثها يعطى للفرد سبباً وجيهاً للتقهقر دون

إثارة أى شعور بالذنب الذى يصاحب التهرب . ويحدث كف البصر النفسى أيضاً كعقاب مباشر إذا ما رؤى الفرد ، أو إذا ما كان هو الرائى ، للمحظور رؤيته ، وهذه الحالة تشبه حالة عقدة الإخصاء .

فالحقيقة والصراع الذى ينشأ نتيجة إدراكها أو عدمه هى المجال الذى تنشأ عنه المتاعب النفسية للعين ، وتنمحى عادة الحقائق التى لا يمكن مواجهتها أو التى يجب عدم مواجهتها ويشمل علم الأعراض المرضية على أعراض أخرى غير تلك التى يشير إليها كف البصر النفسى . وتمتلىء حالات الطب النفسى بالشواهد على أن قصر النظر والخوف الجنونى من النور ، وحتى الجلوكوما وأعراض الرمد المعروفة غالباً مايصاحبها أسباب انفعالية تشير إلى وجود صراع له علاقة بالبصر .

ويرى بعض الكتاب مثل فرنشزى (Frenczi) وهارت (Hart) وهبش (Huebsch) وغيرهم أن الصراع الذى ينشأ بالنسبة للأمور الجنسية ، خصوصاً فى العادة السرية أو نزوات الفسق بالمحارم ، هو فى الغالب من الأسباب المؤدية لحدوث الاضطرابات البصرية . وليس هذا استنتاجاً عجيباً إذا اعتبرنا أن الموضوعات الجنسية مما عودنا منذ طفولتنا الأولى تجنب التجسس عليها . وقد كتب الدكتور هنرى هاربر هارت (Dr. Henry Harber Hart) أستاذ

الطب النفسى بجامعة كولومبيا ، فى مقال جرىء له تحت عنوان « العين رمز وعارض » بأنه إذا ما صاحب النظر فزع أو شعور بالذنب نتيجة للذة المشتقة من النظر ، فإن ذلك يفقد العضو ، الذى هو العين ، قدرته على الإبصار ، عن طريق « الجهاز اللاشعورى للعقاب » .

وكتب الطب النفسى مليئة بالشواهد على ذلك . ويقدم و . س . إنمان (W. S. Inman) تقريراً عن حالة بنت كاثوليكية تقية ظهرت بعينيها أعراض مرضية بعد حبها لقسيس . ويقدم انجلش و بيرسون (English and Pearson) حالة صبي أصيب بحركة رمش سريع وخوف مرضى من أن تقلع عينيه بعد أن عاقبته أمه لتبوله . ويقول فرويد فى حالة مريضة تدعى إيما ، إن هذه المريضة قالت إن حبيبها قد نقل عينيها من مكانهما . ويقدم إنمان حالة سيدة أخرى أصيبت بآلام حادة فى عينيها حينما أصبح زوجها العاجز الضعيف غير مخلص لها ، واختفت هذه الأعراض حينما رجعت إلى علاقتها مع حبيب صادق . ويروى هبش حالة مريضة مصابة بقصر نظر كاذب استعادت بصرها كاملا حينما أصبحت قادرة على الاستمتاع جنسياً بصورة طبيعية . وهناك أمثلة كثيرة فى كتب الطب النفسى تدل على أن كثيراً من أمراض العين تصاحب حدوث الطمث . ومن هذه الحالات حالة يرويها هارت عن ابنة قسيس أصيبت بخوف جنونى من

النور وصداع من شعورها أن عينيها أكبر من التجويف الخاص بهما ورفضت استعمال نظارة .

وقد وجد لندنر (Lindner) مؤلف كتاب « العصيان بدون سبب » أن استرخاء الجفن العلوى للعين لدى مجرم قام بفحصه يرجع إلى حادثة نسيها ، رأى فيها والديه فى موقف مزر ، وفسر الموقف بأنه قسوة موجهة ضد أمه . ويقول هارت إن الغمز بالعين مرض يصاحبه فى العادة كبت للرغبة فى استطلاع الموضوعات الجنسية ، وقد ناقش بارتمير (Bartemier) فى بحثه عن أعراض مرض الميكروبسيا حالة سيدة أصيبت باضطراب انفعالى لأسباب تتصل بالرضاعة .

ومن السهل أن ندرك كيف أن الرغبة فى تجنب النظر تزيد فى تعقيد الاضطراب العضوى للبصر ، أما الميل إلى معادلة الأعضاء الجنسية انفعالياً بالبصر فأمر أقل قابلية للفهم ، إلا أن هارت يفسره على أنه عملية استبدال فيقول : من الواضح أن العين قد تستبدل وتصبح رمزاً للأعضاء التناسلية عند الذكر أو الأنثى ولا شك أن سبب عملية الاستبدال هذه هو الشعور بالذنب والخوف من العقاب الاجتماعى ، وبذلك يمكن أن ترمز العين للعضو التناسلى بحيث تولد لذة جنسية وبحيث تعبر عن شعور بالذنب من ناحية الوالد أو الوالدة .

ولا شك أن الربط بين العين والأعضاء الجنسية أمر مغروس فى اللاشعور ، كما تروى كتب الأساطير والأدب الرمزى . وقد أشار كل من بروست (Proust) وفرويد إلى هذه الصلة فى أسطورة أوديب ويقال فى الأساطير إن جسم الرب « أندرا » كان مغطى كله بأعضاء التناسل التى تحولت فيما بعد إلى عيون ، كما أن نفس اللفظ « إنسان العين » هو الذى يعبر عن العذرية فى لغات عدة . ويقال إن قوة المرأة القبيحة المخيفة تسكن فى عيونها القادرة على الحسد ، ومثل هذه القدرة تعزى أيضاً إلى الزواحف والعنكبوت كرمز للناحية الجنسية .

وتقول الأساطير إن الرب المصرى بتاح قد أنجب أرباباً أخرى عن طريق عينيه ومستعملا إياهما كعضو للتناسل . وقد رأى رودلف ريتلر (Reitler) فى عين العملاق سيكلبس (Cyclops) التى فقأها البطل فى الأسطورة رمزاً لقوة الأب الجنسية ، ويعتقد هارت أن ذلك هو الأصل أيضا فى أسطورة بوليفموس .

إن الأساطير العديدة الخاصة بتريسياس اليونانى المكفوف تصور بوضوح مدى اعتبار العين كرمز للناحية الجنسية ، وتقول إحدى هذه الأساطير إن أثينا هى التى سلبته بصره لأنه رآها عارية ، وفى رواية أخرى أنه لم يفقد بصره وإنما فقد رجولته ، وتحول إلى امرأة ، وأنه ارتد رجلا ثانياً حينما رأى نفس المنظر مرة أخرى بعد سبع

سنوات . وفى رواية ثالثة أنه طلب منه الحكم فى مناقشة بين ذيوس وهيرا عن أى الجنسين يتمتع أكثر جنسياً ، فحكم بأن النساء هن الأكثر تمتعاً فأثار حكمه هذا هيرا وسلبته بصره ، أما زويس فقد منحه طول الحياة والنفوذ الكهنوتى المنزه عن الخطأ .

ويقول مالف (Malv) إن الطبيب النفسى كثيراً ما استبدل لاشعوريا العين بالجنس والأعضاء التناسلية . ويقول هارت إنه مادامت العين عضوا مؤثرا ومستقبلا فى نفس الوقت فإنها تمثل أعضاء التناسل عند كلا الجنسين الذكر والأنثى ، وإن إصابة العين قد ترمز إلى بتر العضو التناسلى . وقد كتب فرانشزى ، وله آراء مهمة فى هذا الموضوع عن فتاة قد ربطت بين الخوف من المجامعة والخوف من أشياء تدخل عينيها . وكتب ود وارد (Wood Ward) عن حالة مشابهة لفتاة خافت من المجامعة وأصيبت بخوف لا أصل له من إبر تخترق عينيها . ويروى فرنشزى أيضاً قصة صبي أصيب بأوهام وتخيلات عن بتر العضو التناسلى لوالده فى أثناء قيامه بفقء عينيه فى صورة له . ويروى هبش حالة شاب ارتبطت عنده عملية الطهارة بكف البصر كعقاب لرؤيته جسما عاريا . ويقول فيليس جرناكر (Phyllis Greenacre) إن رجلا فى التاسعة والعشرين من عمره ، استخرجت عيناه فى السادسة عشرة ، اعتقد اعتقاداً جازماً أنه قد حدث عبث بأعضائه التناسلية فى أثناء صنع عيون زجاجية له بالمستشفى .

ويقول هارت إن المرضى بانفصام الشخصية قد يمزقون خصيتهم أو يفقئون أعينهم كعقاب لأنفسهم عن اللذات المحرمة . ويحكى هارتمان (Hartman) عن سيدة فقأت كلتا عينيها بعد تهيجها الجنسى لنظرها لوالدها . وكتب ريتلر عن شاب باريسى فقأ عينيه ثم قال « الآن أصبحت سعيداً ومازالت لدى عين ثالثة » .

ويقول هارت متناولا هذه الأمور بوجه عام إنه مما لا شك فيه أن هناك عاملا تكوينياً موجودا فى أغلب المشاكل العضوية يحدد إصابة عضو بالذات حينما يحدث نوع خاص من الصراع الانفعالى . والعين بوصفها عضواً له وظيفته الخاصة يهمنا أن نعرف الدوافع النفسية التى تقوى فى حالة ضعفها عن تأدية وظيفتها فإن ظهور قوى نفسية على شكل اضطرابات عضوية لا يمكن إرجاعه للمصادفة فقط .

وليست العين بالعضو الوحيد الذى يتعادل أو يرتبط أحياناً بعضو التناسل ، فإن هؤلاء الذين يعانون خوفاً شديداً من عقدة الإخصاء ينشأ هذا الخوف لديهم إذا ماحدثت أية إصابة لهم . والساق من الأعضاء التى كثيراً ما تستبدل بأعضاء التناسل ، إلا أن أهمية الاستبدال فى العين يرجع إلى تكرار حدوثه ، كما تدل الأساطير على ثبوت ذلك فى اللاشعور على مدى السنين . ويقول مالف إن أغلب الأطباء النفسيين ومدارس الطب النفسى الحديثة لا تتردد فى تفسير ذلك الشعور

المتوارث من أجيال نحو المكفوفين على أنه تحول لعقدة الخوف من الإخصاء وصل إليه الإنسان انفعالياً نتيجة استبدال الأعضاء التناسلية بالعين .

كف البصر كعقاب :

استخدام كف البصر فى العصور القديمة كنوع من العقاب يعد أسوأ من الموت نفسه ، إذ المعتقد أن فقد البصر يحرم الإنسان من التمتع بالحياة رغم وجوده حياً . وقد كان فقء العينين بالحديد المحمى من أشد أنواع العقاب فى بابل ونينوى . ومن الطريف أن الجرائم ، التى عقابها إفقاد البصر عنوة ، كانت فى كل مكان جرائم من النوع الجنسى ، وقد اقترح بركتون (Brockton) القاضى الإنجليزى سلب البصر كعقوبة للاغتصاب وقد فقأ أوديب عينيه بنفسه عقاباً له على اجتماعه جنسياً بأمه ، بالرغم من جهله أنها والدته ، وقد سبق ذكر بعض الأمثلة الأخرى من الأساطير .

وقد تحدث هارت عن تكرار حدوث كف البصر كعقاب نفسى للفسق بالمحارم ، كما أن الأديان كلها ذكرت كف البصر كعقاب سماوى ، فمثلا أصيب أشرار بلدة صودوم بكف البصر نتيجة لخطاياهم كما أن هناك بعض أنحاء بالهند لا يوجد بها أية مساعدة منظمة للمكفوفين على اعتبار أن فقدان البصر عقاب خاص نتيجة

للخطايا الشريرة التى ارتكبت فى أثناء الحياة الأولى ، وإن التاريخ ملىء بالحوادث المختلفة التى تبين عقاب الإنسان لنفسه وعقاب المجتمع له بإفقاد بصره .

وقد بين فيتاستين سومرز (Vita Stein Sommers) فى دراسة له ، أن كف البصر لا يزال يعتبر نوعاً من العقاب فى بعض الحالات ، وليس فى كلها ، وقد ثبت هذا الرأى حتى لدى أولئك الذين لا يقبلون الفكرة شعورياً . ومن الاتجاهات التى عبر عنها مراراً آباء التلاميذ فى مدرسة للمكفوفين أن كف بصر الطفل يعتبر رمزاً للعقاب الموجه للوالدين ، ولذلك يبدون عادة شعوراً بالذنب يكون ملحوظاً بالنسبة للأمراض الزهرية ، أو لخرق المعايير الأخلاقية ، أو للإصابة بالخزى ، بأى شكل كان ، وغالباً ما يكون السبب كامناً فى لون من ألوان الصراع الجنسى .

العين الحاسدة :

إن العين ليست قادرة على استقبال الشر فحسب بل هى قادرة على نقله أيضاً ، فالبصر يستوعب ويسقط معاً . ويقول هارت عن هذه الخرافة إنها أقدم وأوسع الخرافات جميعاً ، ولم يتمكن العلم أو الدين من التغلب عليها ، وما زالت موجودة حتى وقتنا هذا فى إيطاليا خاصة ، وقد لاحظ كروفورد (Crawford) وجودها لدى

الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى ويمكن الحصول على شواهد عن العين الحاسدة فى الكتب المصرية وفى ثقافة الكلدانيين . ويعتقد الفارسيون أن أغلب الأمراض سببها العين الحاسدة ، كما أن الأثينيين والأتروسكانيين يعتقدون نفس الاعتقاد . وقد شنقت ساحرات انجلترا فى القرن السادس عشر للعيون الحاسدة التى تسببت فى ذلك الوقت فى مرض الماشية ، وقد كانت الترك والعرب تحمى حيواناتها المنزلية بتعليق التمائم لها ، تلك التمائم التى كانت تباع كأية سلعة أخرى فى الأسواق وفى أماكن كثيرة من العالم .

ويقول بلوتارخ إن أهل طيبة كانوا قادرين على إتلاف الأشياء بمجرد النظر إليها ، ويحدثنا بليني عن أناس فى إمكانهم سحر الأشياء بنظرة منهم ، وقد كانت الأوبئة مثل الموت الأسود فى العصور الوسطى تعزى إلى الإصابة بالحسد .

وما زالت العادة فى كثير من البلدان فى أيامنا هذه تقضى بأن يدلى صاحب المنزل بملاحظات غير مرضية عن أولاده وماشيته إذا حضر غريب ، خوفاً من أن يكون ذا عين حاسدة ، ومن الطريف الذى يجدر ذكره أن الصليب المعكوف يعد من الرموز السحرية التى تحرس الإنسان ضد هذه العين . وأكل الثوم يعتبر حماية من الإصابة بالحسد فى بعض البلاد ، وقد كانت هناك فى مدينة فيلادلفيا من بضع سنوات

حكايات كثيرة عن اكتشاف ما يطلق عليه بالإيطالية « الرامية » أى المرأة ذات العين الحاسدة .

وقد أمكن للدارسين المختصين أن يربطوا دون صعوبة بين مثل هذا النوع من الاعتقاد وبين الناحية الجنسية ، وكتب جرينا كر فى دراسة له عن دور البصر فى الأوهام والوساوس أن البوشمان فى جنوب أفريقيا يعتقدون أن النظرة الواحدة من الفتاة فى وقت الحيض يمكن أن تجعل الرجل يتحول إلى شجرة فى مكان وقوفه ، وترى قبائل كثيرة من الهنود الحمر ضرورة ترك النساء للخيام وقت حيضهن خوفاً من الضرر الذى ينتج من نظرتهن ، وقد كان المعتقد ولا يزال الآن أن تأثير العين الحاسدة يظهر بجلاء فيما يختص بمنع الخصوبة والقضاء عليها ، ولذا كانت تعد كعضو جنسى شرير ، وكانت السبب فى عدم إنتاج البقر والخيل ، كما أنها تستطيع أن تقضى على مقدرة الدجاج على وضع البيض ، وتؤكد الأساطير الخاصة بهذا الموضوع أن المرأة تكون أكثر عرضة للإصابة بالنظرة فى الأشهر الأخيرة من حملها ، وقد تسبب عنها أن يولد الأطفال مشوهين ذوى أشكال بشعة . والتعويذة المعروفة لتجنب الإصابة بالعين الحاسدة هى رسم يشبه الصليب بأصابع اليد اليمنى ، ولا يعنى الصليب بهذا الرسم ولكن يقال إنه رسم لقرن ، فقد كانت الحيوانات ذات القرون رمزاً لقوة الذكر منذ الأزمنة القديمة ، ويبدو أن الالتجاء إليها

معناه تنظيم رمز لقوة فوق المعتاد ضد القوى الشريرة .

العين عضو معبر :

إن المغالاة فى تقدير العين ووظيفتها فى الإبصار يزيد بشكل ملحوظ إلى حد الاعتقاد بأن العين تعبر عن العواطف ، وأنها قد تدل على أخلاق صاحبها كما تظهر ميوله واتجاهاته . ويقول مثل قديم يردد كثيراً « إن العين هى نافذة الروح » ويقال إن بعض الناس لهم عيون راقصة كما توصف العينان بأنهما قاتمتان أو مظلمتان أو يمكن فهمهما أو كما يقال أحياناً عيون مرحة وعيون حزينة . ومن الواضح أننا ننظر إلى العين حينما نريد معرفة سريعة لصفات الآخرين ، والنتيجة التى نصل إليها بهذه الطريقة تعتبر من قبيل الفراسة(١) .

وتختلف العيون فى تكوينها فهناك عيون زرقاء وأخرى سوداء وهكذا . والعيون تدل إلى حد ما عن الحالة الصحية للفرد ، ونوع المرض الذى قد يكون مصاباً به ، فتبدو العين صفراء فى حالة مرض اليرقان ولكن بجانب هذا توجد عيون لا تدل على شىء . والحركة

(١) يذكر بعض الكتاب العرب ومن بينهم الدكتور حسين فوزى أن العين تدل إلى حد كبير على أخلاق صاحبها ولكن الأذن أصدق من العين من هذه الوجهة فاذا أغلق شخص عينه واستمع لصوت شخص آخر استطاع من الصوت وحده أن يتعرف على جوانب شتى من شخصيته .

« المترجم »

الوحيدة فى العين هى حركة إنسان العين وهذه الحركة تعتبر عملية تكيف من النوع اللاإرادى للتغيرات فى الضوء . وعادة ما تجرى تجارب لتوضيح استحالة الحكم على الشخصية أو التصرفات عن طريق العين فيعطى مثلا طلبة علم النفس بعض الصور ليرتبوها طبقاً لأوصاف معينة مثل مجرم وذكى وحزين ومبتسم وهكذا ، وقد اختيرت صور بعض طلبة الكليات ودس بينها صور لبعض المجرمين وقد أسفرت هذه التجارب عن نتائج منها أن أمارات الحزن والفرح والمكر والدهاء لا يمكن أن ينم عنها الجزء الأعلى من الوجه ولكن العيون وحدها أو شكل الوجه بمفرده لايمكن الاعتماد عليه لتحديد مستوى الذكاء أو نوع الشخصية . وبالرغم من أن صورة العين تتضمن ما حولها إلا أنه لا يتسنى عن طريق صورة العين وحدها أن نجرى تصنيفاً من النوع المشار إليه آنفاً ، إذ كثيراً ما يقال عن عيون بأنها تدل على الابتسام بينما هى على نقيض ذلك كما يقال أيضاً إن هذه عيون متعجبة بينما هى فى الواقع من النوع المذعور أو أو المتيم وهكذا .

وقد ينسب إلى العين أحياناً القدرة على التعبير العاطفى على أن مثل هذا التعبير يرجع فى الواقع إلى عضلات الوجه ، إذ أن استجابة العين للاستثارة يكاد ينحصر فى الدموع التى تسكبها أو فى شد وارتخاء عضلاتها ، ولكن تعبيرات كتلك التى تدل على الألم

أو السرور تكمن تحت ذلك فى العضلات المحيطة بالفك والفم . ويقرر جريناكر (Greenacre) أن العين هى أقل أجزاء الوجه تعبيراً ولا شك أن هذا الرأى يثير دهشة جميع الشعراء .

وتعد تعبيرات الوجه من الأمور المعقدة بسبب اتساع نطاق الرموز والمصطلحات التى يمكن أن تدل عليها ، ولا يتعلم الطفل كيف يضحك أو كيف يبكى ولكنه يفعل ذلك بفطرته كما أن ما نطلق عليه أحياناً التعبيرات الأساسية التى تدل على السرور أو الألم أو الحزن لها مصطلحاتها المعروفة لدى البشر جميعاً . وبجانب هذه التعبيرات الفطرية نجد أن كثيراً من تعبيرات الوجه يكتسبها الإنسان عن طريق التقليد وملاحظة تعبيرات الآخرين .

ويمكننا أن نميز بين التعبيرات الفطرية والمكتسبة إذا ما لاحظنا تعبيرات وجوه المولودين أكفاء ، فهم يضحكون ويبكون كما يفعل المبصرون ، ولكنهم لا يستطيعون تقليد المبصرين فى التعبيرات الأخرى المكتسبة المصطلح عليها فى الجماعة ، والتى تنم عن انسجام الشخص معها وانتسابه لها ، بينما نجد مثلا أن الشخص الذى ينخرط فى سلك البوليس يتعمد أن يبذل مجهوداً فى مبدأ الأمر ليبدو خشناً ثم تصبح تعبيرات وجهه التقليدية بعد ذلك خشنة دون تكليف ودون حاجة إلى مجهود يبذله فى تمثيلها . ومن قبيل ذلك أيضاً ما يفعله

الشخص الذى يشتغل بالربا فى محله . إنه يحاول إرضاء زبائنه بالظهور أمامهم بمظهر الصانع لأنه يعلم أنهم لا يطيقون أن يترددوا عليه إذا أخذ شكل المرابى فقط . وإذا ما قارنا ذلك بالكفيف منذ الولادة نجد أنه لا يعرف كيف يقلد الآخرين فى التعبيرات الدالة على الخشونة كما لا يستطيع أن يتقمص شخصية الصانع ، ونظراً لأنه ليس فى مقدوره أن يقتبس حركات الوجه من الآخرين فإن هذا الوجه يبدو عادة خالياً من أى تعبير مما يدفع البعض للقول بأنه خال من الشعور .

ولا تدل تعبيرات الوجه لدى المبصر دلالة أكيدة على شخصيته وخاصة إذا ما استطاع أن يتحكم فيها ، بقدر ما يدل صوته ولكن مبالغتنا فى تقدير دور البصر فى الإدراك يجعلنا نغفل هذه الحقيقة ، إلا أن الشخص الكفيف يظل قادراً على التعرف على مدى الإخلاص والنوايا الحقيقية والميول الخاصة بدرجة أسرع وبدقة أكثر من المبصر . ويقول هارت إن بعض الحيوانات كالكلاب يمكنها الحكم على تعبيرات الناس غير أن المتعاملين مع هذه الحيوانات يلاحظون أنها أكثر استجابة مع ما يحدث من تغير فى نبراته .

المغالاة فى تقــدير البصر :

لكل عضو وظيفة ولكل جزء أو حاسة فى الجسم معنى مرتبط به لدى الإنسان يمكنه من معرفة أى اضطراب أو نقص يصيبه .

ولكل معنى من هذه المعانى أساس عملى يقاس بمدى أهمية هذا الجزء أو تلك الحاسة بالنسبة لإشباع حاجات الغريزة نحو الحياة واستمرار النوع فالألم شعور يتفاوت فى الحدة وتأثيره على الشخصية لا يختلف بالنسبة لهذا الاختلاف فى الحدة فقط بل بالنسبة للاختلاف فى مكان حدوثه أيضاً ، فالألم فى منطقة القلب مثلا يسبب من القلق أكثر مما يسببه الألم المتساوى معه فى الحدة إذا ما حدث فى القدم أو الأسنان . وقد تبين أن مجرد معرفة الإنسان بإصابته بمرض الفالج يسبب له من الاضطراب مثل مايسببه المرض ذاته ومن الصعب تمييزه عن أعراض المرض نفسه ويرجع ذلك إلى أن المخ فى هذه الحالة هو موطن الداء .

إن تعقيد هذه الاعتبارات البسيطة ليس من الأمور المنطقية ، ذلك أننا نعطى بعض أعضاء الجسم ووظائفه أحياناً أهمية أقل من شأنها ووظيفتها التى تسديها إلى بقائنا واستمرارنا ، وقد يرجع ذلك أحياناً إلى أسباب ثقافية فنجد أن ما يعد قبحاً وتشويهاً فى بيئة ثقافية قد يعد جمالا وكمالا فى بيئة ثقافية أخرى كالقدم الصغيرة الذى يعد من أمارات الجمال عند نساء الصين .

وأحياناً يعزى مثل هذه المعانى التى لا تتفق والمنطق إلى أساس دفين فى نفسية الإنسان يعلو بثقافته وحضارته لتبقى ثابتة على مر الزمن ، ويمكننا أن نرجع المغالاة فى أهميـة أى عضو أو طرف أو

حاسة فى كل حالة إلى هذه الأسس البعيدة عن المنطق والسببية .

إن هدفنا فى هذا الكتاب ينحو نحو وزن وتقدير بيئة المكفوف ، تلك البيئة التى يجب أن يتكيف معها جميع أولئك الذين حرموا من بصرهم . وهناك غرض آخر نضعه أمامنا وهو تحديد مدى مطابقة كل ذلك للمنطق أو بعده عنه . وقد يعطينا تاريخ المكفوفين ، إذا ما أوليناه قسطاً من الاهتمام ، الأداة التى بوساطتها يمكننا معرفة مقدار ما فى هذه البيئة من عدم انسجام مع المنطق والتفكير المسبب ، كما يمكننا إظهار المدى الذى تصل إليه المغالاة التى يسقطها الإنسان والتى تأخذ صوراً شتى من الرأفة والشفقة على أولئك الذين فقدوا بصرهم ، وأخيراً نستطيع أيضاً أن نعرف هل مثل هذا الإسقاط راجع للثقافة المعينة ، أم أنه عام بين البشر جميعاً .

الفصل الثالث

بيت الصدقة

لمحة تاريخية :

لم يرد فى سجل التاريخ طيلة ثلاثة آلاف سنة ذكر لكفيف نال قسطاً من التعليم قبل القديس ديديموس (Didymus) ، الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى . وانقضى بعد ذلك ألف وثلاثمائة سنة أخرى حتى ذكر اسم اليزابث والدكيرج (Elizabeth Waldkerch) التى فقدت بصرها وعمرها شهران ، وتعلمت الكتابة على يد الرياضى برنويللى (Bernaulli) وذلك بتمرير أصابعها على حروف ظاهرة على مكعبات خشبية ، وحتى القرن التاسع عشر كان اشتغال الكفيف فى أية حرفة صناعية يعتبر أمراً غير لائق أو غير ممكن .

ويمثل تاريخ المكفوفين أبأس سجل يظهر فيه عجز الإنسان عن أن يعرف نفسه . وهو تاريخ قاتم إلى أقصى حد وقام بجمعه على وجه الخصوص كرتشمار (Kretschrmar) الألمانى وواج (Wagg) الإنجليزى .

ويقسم برثولد لوينفلد (Berthold Lowenfeld) تاريخ المكفوفين إلى ثلاثة أقسام : فترة التسول وفترة الملجأ وفترة الاندماج ، أى السماح للكفيف بأن يحتل مكاناً فى المجتمع .

وحتى يمكن أن نتخيل ظروف المكفوفين فى الأيام الغابرة علينا أن نبحث عنها فى بعض البلاد كمصر حيث نسبة المكفوفين أربعة أو خمسة فى الألف .

وقد أشار المؤرخ هيرودوت إلى كثرة عدد المكفوفين فيها وأما هيسيود (Hesiod) فسماها « بلاد المكفوفين » . والمتسولون ومعظمهم من المكفوفين يخرجون من بيوتهم والأماكن التى يلجئون إليها ويتجمعون فى الشوارع والأسواق والجوامع طلباً للصدقات . وأصبح التسول مهنة لهـــذه الطبقة تتعيش منها . وهناك حوادث تاريخية لاحصر لها تبين أن الآباء كانوا يتسببون فى كف بصر أولادهم ليستدروا عطف الناس عند التسول .

ومن المحتمل أن مرض الرمد منتشر فى مصر من أمد طويل ، فإن أقدم كتاب عن موضوع الرمد وجد فى مصر مكتوباً على ورق البردى فى مدينة طيبة سنة ١٨٧٢ ، وورد فيه أسماء عشرين مرضاً من أمراض العيون . ولما زار هيرودوت مصر بعد ألف سنة من

تاريخ هذا الكتاب وجد أخصائيين فى أمراض العيون . ولربما كانت مهمتهم شبيهة بما كان يقوم به من كانوا يزيلون المياه الزرقاء الذين لاحظهم بنتلى (Bentley) فى بلاد الهند ، وكان هؤلاء يتنقلون من قرية إلى قرية لهذا الغرض ، ويستخدمون أشواك الورود الطويلة ، أما طريقتهم فلا تزال سراً مكتوماً لديهم .

إلا أن هذا القدر من العلم كان نادر الوجود حتى القرون الوسطى . ففى كثير من البلاد كان فقد البصر يعتبر افتقاداً من الآلهة للإنسان وعلاجه كان ينظر إليه على أنه تدخل فى إرادتها ، وإذا استخدم للانسان كان لايتعدى الرقى والتعاويذ .

والمظنون عامة أنه قبل بدء الشعور الدينى فى المجتمع القديم كان المتبع أن يقتل من بهم نقص جسمى . وكان يطبق هذا بنوع خاص على المكفوفين ، ويتضح هذا مما ورد فى الكتابات الدينية القديمة خاصاً بمنع هذه العادة . وإذا نظرنا إلى قوانين ليكورجوس (Lycurgus) الإسبرطى ، وسولون الأثينى وجدنا أنها كانت تسمح بقتل المشوهين ، كما أعلن أفلاطون وأرسطاطا ليس موافقتهم على هذا العمل .

وفى روما ظل الناس أجيالا عديدة يغرقون الأطفال المشوهين

فى نهر التيبر . وجاء رومولوس (Romulus) لحد من هذا التصرف بعض الشىء ، إذ طلب تكوين لجان من الجيران لتحكم على عدم صلاحية الطفل لأن يكون مواطناً قبل التخلص منه . وأما اليهود فحرموا قتل الطفل المشوه الذى كان يعتبر عطية من الله يجب المحافظة عليه مهما كان التشويه .

ولما كان من الصعب اكتشاف فقد البصر عند الولادة فإنه من المحتمل أنه حتى فى المجتمعات التى كانت تجيز قتل الأطفال غير المرغوب فيهم ، استطاع المكفوفون أن يعيشوا إذ وجدوا من يعولهم .

ويظهر أن مهمة الدين لم تكن قاصرة فقط على ضمان عدم قتل المكفوفين ، بل على وجوب إعالتهم . ومع أنه كان هناك قانون فى روسيا الوثنية يسمح أن يقتل الأب ابنه الضرير أو الأحول والسيد خادمه إذا كان كذلك ، إلا أن هذه القوانين كانت من الندرة بحيث يبدو أن العكس كان صحيحاً . وحتى فى المجتمعات التى تقسو فيها ظروف المعيشة كما هو الحال مع الإسكيمو (Alasclmou) مثلا حيث ينتظر أن يكون التخلص من المكفوفين أمراً يتفق مع المنطق ، وجد رواد المستكشفين مكفوفين وسط هؤلاء الناس .

وفى القرن الثامن عشر وجد الروس مكفوفين فى جزيرة الوشيا

وفى الجزء الجنوبى الشرقى من ألاسكا . ولقد أخبرنا ألبرت شويتزر (Albert Showeitzer) أن الأكفاء فى أفريقيا الاستوائية الفرنسية لايقتلون ولا يعنى بهم ، فإذا لم يقوموا بأود أنفسهم يموتون . ويؤيد هذا القول أمورى روس (Emory Ross) الذى قضى فى الكنغو ثمانية عشر عاماً .

وكان بوذا يوصى بالرفق بالضعفاء والمشوهين ، ويطبق القول على العمل . وكان يعلن أن إرادته هى أن يخلص كل المخلوقات المتألمة من ألمها ، وأن يكون نوراً وشفاء للذين حرموا نعمة البصر . وأقام الملوك البوذيون فى الهند وبخاصة أسوكا (Asoka) أول معاهد رسمية للعناية بهم . وجاء فى التفسير اليهودى للآية التى تقول : « يفتح الرب أعين العميان » ، أنه لا يوجد ألم أقسى أو أمر من الألم الذى يسببه فقد البصر . ويعقد التفسير أيضاً مقارنة بين الكفيف والجمل أو الحمار الذى أثقل كاهله حمله والذى يتلقى الأوامر من راكبه . وفى الأدب اليهودى يجد القارئ هذه العبارة مراراً « إن الكفيف كالميت » ويأمر التلمود أن من يمر بكفيف « فعليه أن يترحم عليه كما يترحم على ميت قريب له » . وكان فلاسفة الرواقيين الذين أثرت فلسفتهم على التفكير الرومانى ، ينصحون برعاية الضعفاء ، وأما الاكفاء فظلوا فى حالة البؤس ، ومع أنه لا يوجد دليل على أن

المكفوفين كانوا يقتلون بعد الطفولة ، فإن هناك كثير من الأدلة على أنهم كانوا كما مهملا الى أن جاءت المسيحية فشفعت الإشفاق عليهم بتقديم العون المادى لهم . وكان لاهتمام السيد المسيح بأمر المكفوفين أثر فعال فى التفكير المسيحى .

وفى معظم الحضارات على ممر الأجيال والعصور تجمع الأدلة على أن المكفوفين كانوا منبوذين . ويبين كثير من إرشادات آباء الكنيسة الأولين أن تقديم المأوى للمكفوفين من أسمى مظاهر الإحسان .

ومن الذين يوصون بمعاملة المكفوفين بروح الأخوة القديس يوحنا خريسوستوم (Yohn Chryscstom) والقديس جيروم (Jerome) وجريجورى (Grigory) . ومن المحتمل أنه كان هناك سبب عملى ، وأن خطأه دعا إلى نبذ المكفوفين ، ومن ثم إلى تقديم هذا النصح . وكان المعتقد أن لمس الكفيف قد ينقل المصيبة إلى اللامس ، إلا أنه يجب فى هذه الحالة الحكم أولا فيما إذا كان بعض الخوف الداخلي من المكفوفين سبب هذه الخرافة أو أن الخرافة سببت بعض الخوف . وكان اليهود يعتبرون أن يد الكفيف على حد تعبير فرنش خطر على الصحة ، واستمرت هذه الخرافة طويلا . ويذكر لوينفلد أن بعض الأمهات فى النمسا لا يسمحن للكفيف أن يلمس أطفالهن .

على أن قليلين جداً من المكفوفين أمكنهم أن يوفقوا اجتماعياً وجاء التوفيق عن طريق استخدام ما كان يعتبر هبات خاصة مثل الذاكرة غير العادية . وبين اليهود استطاع بعض الأفراد أن يصلوا إلى مستوى خاص بوساطة حفظ الشريعة عن ظهر قلب . وحدث مثل ذلك أيضاً فيما بعد فى بعض البلاد الإسلامية . وفى اليابان كان المكفوفون من الطبقات الاجتماعية الراقية أو ذوى الذكاء المفرط يصبحون كهنة . وفى اليونان قديماً شغل بعض الأفراد المكفوفين مراكز عالية لما أظهروه من قدرة نادرة كأنبياء ، كما فى حالة تيريسياس ، إذ كان المعتقد أن الآلهة تعوض البعض عن النقص الذى فيهم بمنحهم معرفة وفهماً زائدين . إلا أنه ، كما يقول فراش بكل صراحة ، لو أن اليونانيين حقاً أكرموا المكفوفين لاعتبروا كف البصر كأنه ميزة . ولكن الأمر لم يكن كذلك لأن المعروف أن آلهة اليونان حرمت البعض من البصر بسبب أعمالهم الشريرة . ولذلك كان اليونان يعتبرون كف البصر أعظم نكبة ، وما لم تعوض الآلهة الكفيف بهبة أخرى كان فقد البصر هماً مقيماً . وللتمثيل على هذا نذكر ديمودوكوس (Demodocus) وهبة الغناء وهوميروس وهبة الشعر .

وتظهر طبيعة النبذ الاجتماعى للمكفوفين (إلا القلة النادرة منهم) جلية من رفض الناس البات أن يسمحوا لهم بالعمل . والأمثلة على

الاعتراف للمكفوفين كأفراد أو كجماعة بالقدرة على العمل قليلة لدرجة ملحوظة . فحصر تحت حكم الكهنة قيل عنها إنها عينتهم فى أعمال مكسبة ، ولكن لم يرد ذكر لنوع هذه الأعمال . وفى تاريخ إسرائيل هناك أمثلة عن مكفوفين استخدموا فى إدارة الطواحين . وفى بلاد الصين اختص المكفوفون « بمعرفة البخت » إلا أن العلاقة بين هذه المهنة وبين التسول واضحة للعيان . ولا تزال « معرفة البخت » عن طريق أوراق شجر الشاى حرفة يحتكرها المكفوفون هناك .

أما أمة اليابان ، فيظهر أنها الأمة الوحيدة التى جعلت للمكفوفين المحتاجين مكانة عملية ، إذ جعلت منهم مدلكين كونوا لأنفسهم نقابة خاصة . بينما يقول فرنش إن غالبية المكفوفين العظمى كانت تعتبر عديمة النفع بتاتاً وكانت تحيا حياة المتسولين البائسة .

وبقيت مشكلة المكفوفين بغير حل غير الإحسان حتى سنة ١٥٢٦ حين ظهر كتاب لكاتب أسبانى اسمه « جوان لويس فايفز » (Jwan Lwis Vives) عنوانه « إغاثة الفقراء » جمع بين دفتيه نتائج دراسة حال الفقراء فيها بناء على طلب مدينة بروجز (Bruges) . وفى هذا طالب فايفز (Vives) بتشغيل المكفوفين فى أعمال منتجة يستعينون بها على العيش . وفى ذلك الوقت كان الإحسان قد نظم بعض الشىء ولكنه لم يفد منه إلا عدد محدود . وكانت هذه الحالة سائدة فى كل أوربا وآسيا ولم تكن تختلف عما كانت عليه فى

روما تحت حكم القياصرة حيث كان على المكفوفين أن يتسولوا إذا أرادوا الحياة . وكان التسول قد أصبح حرفة منظمة لها قادة يضعون شروط يسير بموجبها المكفوفون . يقول سينيكا : يذرع الشحاذ الشوارع وهو يرتجف متوكئاً على عصاه . . . ويحصى سيده كسبه اليومى فإذا لم يكن كافياً عاد إلى البائس بالتعنيف قائلا : لقد جمعت قليلا اليوم ، إيت بالكرباج إلى هنا . والآن يمكنك أن تئن وتتوجع وتطلب الشفقة . ولو كنت استخدمت أسلوب الأنين هذا مع المارة لنلت نصيباً أوفر من الصدقة .

وكان المتسولون تغص بهم شوارع باريس وسيينا وبالرمو . وأما فى انجلترا فكانوا طبقة تعزف الموسيقى للطبقات الوضيعة . وظل المكفوفون يزاولون التسول بإذن لمدة أجيال بعد أن حرمت البلديات عليهم التسول فى الشوارع فى كثير من المدن الأوربية . وبقى المتسولون حتى عام ١٩٣٠ يقفون عند أبواب الكنائس بمدينة سيفيل (Seville) بأسبانيا يطلبون صدقة .

وكان من ضمن القوانين التى وضعها لاجوارديا محافظ مدينة نيويورك وأكثرها تعرضاً للنقد ذلك القانون الذى منع به الشحاذين المكفوفين من الظهور فى شوارع مانهاتن .

الجمعيات وفترة الملجأ

كان المكفوفون منذ أقدم العصور عرضة للنبذ الاجتماعى والفهم الخاطىء ، فلا غرابة إذا وجدناهم ينظمون أنفسهم حيثما وجدوا عددهم كافياً . وكانت بالطبع حرفة التسول هى الحجر الأساسى الذى تقوم عليه هذه التنظيمات . ولا شك أن تجمعهم هذا كان اعترافاً ضمنياً بحالة العزلة التى كانوا فيها ورغبة منهم فى مساعدة المكفوفين الآخرين . وفى بلاد الصين قامت أحياء خاصة بالمكفوفين فى المدن الكبرى يعيشون فى أكواخها ويبتاعون طعامهم مشتركا . وأما فى الريف فكانت لهم قراهم الخاصة . وفى أوربا كانوا يعيشون تحت ظروف مماثلة .

وأما فى روسيا فتكون من المكفوفين فرق غريبة كانت تسمى نفسها « بالفرق الجادة أو التى لا تضحك أبدا » . وكان الرئيس ينتخب فى مؤتمر عام تعقده الفرق ومن واجباته أن يفض المنازعات ويوقع العقوبات ويقسم الأحياء المختلفة بين المتسولين . وكانت لهم لغة خاصة يتفاهمون بها وتحتوى كلمات سلافية . ويقال أيضاً إنها احتوت على كلمات من اللغة اليونانية والسانسكريتية .

وأما فى اليابان فكان الموقف على النقيض من ذلك . فالمدلكون من الرجال والنساء كانوا يعتبرون من العاملين المهرة . وكان تدريبهم

على مهنتهم يتبع خطة واضحة يمكن الرجوع بها إلى القرن التاسع . وكان المدلك يذهب إلى البيوت للقيام بعمله ، إما فى الساعات الأولى من الصباح أو فى المساء ويعلن عن حضوره بصفارة . وكانت لهم جمعية قوية تألفت سنة ٨٠٥ ميلادية . ومن الواضح أن اليابانيين لم يكونوا يخشون لمس الكفيف .

وكما ذكرنا ، هناك ما يدل على أن مصر القديمة والهند كانتا تعنيان بالمكفوفين ولكننا لا ندرى كيف كانتا تفعلان ذلك . وأما الملجأ كما عرفته أوربا فقد بدأ قطعاً فى العصر المسيحى .

وفى القرن الخامس جمع القديس ليمنياس (Lymnaeus) الذى كان يسكن فى جبال سوريا كل المتسولين المكفوفين المجاورين له وأسكنهم فى مساكن صغيرة بناها لهم بالقرب من صومعته . وكان يعلمهم الأناشيد الدينية ويعني بهم عن طريق ما كان يقدم له من محبي الخير الذين أرادوا الاقتداء به فى أعماله الصالحة . وكل التطورات التالية تحت إشراف الكنيسة تحمل طابع هذه المحاولة الأولى نحو تقديم المعونة المنظمة للمكفوفين .

فكل دير تقريباً أضيف إليه بيت للصدقة ، حيث يقدم للمسافر المتعب وللمسكين والمتقدم فى الأيام والأعرج والمكفوف ، المأوى والطعام . وبعض هؤلاء النزلاء أصبحوا مقيمين دائمين تابعين للدير . وقبل القرن الثالث عشر لم يكن هناك عناية من ناحية

البلدية أو الدولة من النوع الذى يستحق أن يسمى عناية منظمة . فبيت الصدقة تحت إشراف الرهبان كان الملجأ الوحيد الدائم . ونحو القرن التاسع ظهرت اتجاهات جديدة صاحبت تكوين مذاهب دينية جديدة كان أعضاؤها أقل تمسكا بعزلة الرهبان فجالوا فى أماكن كثيرة ليقدموا العون لمن هم فى حاجة إليه . كان هؤلاء يعنون بالعرج والعمى فى شوارع المدن أو خارجها ، ويعينون المسافرين الذين يتعرضون لخطر الموت فى جبال الألب . وكان المكفوفون يحظون بنصيب كبير من الإحسانات المسيحية .

وجماعات كثيرة منهم عنى بأمرهم الراهبون والراهبات فى الأديرة . وبدأ ميل المكفوفين إلى المجتمع يظهر بطريقة واضحة بانتشار روح الرهبنة . فأنشئت جمعيات المكفوفين متصلة اتصالا وثيقاً بالكنائس وبالأديرة . وكانوا يعيشون معاً فى شبه عزلة ، ولكنهم لم يكونوا قط تحت قيود أو عهود ثقيلة .

يقول فرنش : إن الإخوان والأخوات المكفوفين كونوا فقط نوعاً من المنظمات العلمانية التى لها طابع العزلة المنظمة .

وكانت الحال كذلك فى الشرق حيث كان الاتجاه إلى عزل المكفوفين عن غيرهم ظاهراً . أما فى اليابان فقد ذكرنا أن المكفوفين من الطبقات الاجتماعية والثقافية الراقية كانوا ينضمون إلى طبقة الكهنة البوذيين .

ولما بدأت البلديات والدولة تظهر اهتمامها بمساعدة المرضى والمصابين استمر الطابع الديني من أقوى مظاهر هذه المساعدة . فلم تكن الحركة العلمانية بأية حال ثورة ضد الكنيسة بل تدعيما لأغراضها وتطبيقاً لوسائلها . فني سنة ١٢٥٦ شيد أهل مدينة هانوفر مستشفى وذكروا في سجلها أنهم إنما فعلوا ذلك بإرشاد الروح القدس .

وأفضل مثل يبين اتجاه الأمور في عالم المكفوفين خلال القرن الثالث عشر هو مستشفى كانز ـ فان (Quanzi Vants) .

مستشفى كانز ـ فان

كان مستشفى كانز ـ فان أشهر ملجأ أقيم للمكفوفين وأطولها عمراً ، ويقال إن الذى شيده هو الملك لويس التاسع أو القديس لويس ، وكان ذلك في سنة ١٢٥٤م ، ويقال أيضاً إن الذى حرك الملك إلى بنائه هو البلاء الذى حل بثلاثمائة من الصليبيين الذين أمر السلطان التركي أن تفقأ عيونهم .

ويبدو أن هذا قريب الاحتمال لأن قدامى المحاربين الذين فقدوا البصر في ميادين القتال في الحروب الهامة كانوا أكثر من غيرهم السبب في تقدم قضية المكفوفين عامة . إلا أن واج (Wagg) يقول إن الأبحاث التي قام بها الأب « برومسو »

(Prompsault) تكذب هذه الرواية ، ويضيف أن الأسانيد القديمة تثبت أن الملاجىء كانت موجودة قبل عهد لويس التاسع وإن كان الباحثون لم يتوصلوا بعد إلى تاريخ نشأتها ، وأن لويس التاسع ابتاع فقط قطعة الأرض وأعاد إقامة ملجأ المكفوفين ورفع عدد النزلاء إلى ثلاثمائة . وهؤلاء كانوا يعيشون معاً فى جمعية علمانية وينادى الواحد منهم الآخر بالقول « أخى أو أختى » . وكل واحد منهم كان يأتى معه بما يمتلك . وعند وفاته يصبح ملكا للمستشفى . وكان كل عضو جديد يتعهد بأن يراعى قوانين الملجأ ولا يفشى أسراره ويؤدى صلوات معينة كل يوم ويحضر القداس ويشترك فى أسرار الكنيسة ويقوم بالواجبات التى تفرض عليه . ويلاحظ أن تأثير الرهبنة واضح فى هذا النظام .

وكان هناك لباس خاص بهم عبارة عن جلباب طويل أزرق اللون وعلى الصدر زهرة السوسن . وكان مصرحاً للأعضاء أن يتزاوجوا وأن يبقوا معهم أطفالهم إلى سن معينة . وكان الملك ينتخب قس المستشفى ومديره ، وإن كانت أصوات الأعضاء لها تأثير فى بقاء المدير .

وقد منح ملوك مختلفون الأعضاء ميزات إضافية منها أن الملجأ لم تدفع عنه ضرائب حكومية وأنهم يتمتعون بنوع من الحصانة فلا يتعرضون للقبض عليهم إذا ارتكبوا ذنوباً معينة . والبابا كليمنت

الرابع زكي هذا الملجأ للعالم المسيحى ومنح الكنيسة الخاصة به بعض التسهيلات ، فذاع صيتها وكان الملك وحاشيته يحضرون خدمة الصلاة فيها كل عام . وتكلم فيها وعاظ مشهورون فكان لذلك أثره فى ازدياد قيمة التبرعات التى تقدم لها لخدمة الملجأ ، وكان المكفوفون يصلون لأجل من يقفون وقفيات للملجأ . وتسابق النبلاء والأغنياء فى اقتناء مقابر فى مدافن الكنيسة .

وجاء الوقت الذى فيه ازدادت ثروة الملجأ زيادة عظيمة واتسعت مساحة أملاكه الثابتة . إلا أنه فى أيام لويس السادس عشر عرض عليه روهان كبير موزعى الصدقات أن تنزع ملكية الأراضى التابعة للملجأ وتباع ويخصص الدخل للعناية بعدد أكبر من المكفوفين ولم يكن الدافع له إلى ذلك حبه للمكفوفين ولكن رغبته فى أن يمتلىء جيبه هو مالا حراماً . واضطر ساكنو الملجأ أن يتركوه إلى أماكن غير مناسبة . وفيما بعد أعادت الدولة الملجأ ولكن تحت ظروف مغايرة تماماً لما كانت عليه . ولايزال الملجأ قائماً فى باريس ولكن بالاسم فقط ، وقد انقضى عليه منذ تأسيسه نحو ٧٥٠ عاما ، ويعتبر أحد معاهد المكفوفين الهامة فى العالم بأسره .

ومما تميز به ملجأ « كانز ـ فان » أن أعضاءه ظلوا يتسولون وربما ظلوا أعضاء فى جمعية المتسولين المكفوفين التى ازدهرت فى

باريس خلال القرن الثالث عشر . وكانوا يقدمون الصدقات التى يجمعونها إلى الملجأ .

وفى سنة ١٢٩٢ قام أحد مواطنى مدينة شارتر (Chartres) اسمه باربو (Barbanlt) بتأسيس ملجأ سيكس — فان (Six - Vangts) على غرار معهد باريس . ويذكر أحد المؤرخين أنه لم ينجح فى تأدية الغرض منه كمعهد كانز — فان . لقد استمر فقط أربعمائة سنة ، إذا أقفلت أبوابه فى القرن السابع عشر حين وصل عدد المقيمين به عشرين شخصاً فقط .

وكان لمعهد كانز — فان (باريس) أثر أعمق من كونه مثلا يحتذى فقط . فقد فازت فكرة تجمع المكفوفين بموافقة الكنيسة وجهات القضاء والعرف . وتألفت « جمعيات الإخوان الأحرار » فى إيطاليا وأسبانيا . ويلاحظ فرنش نوعاً من التشابه بين جمعيات المكفوفين والنقابات الاقتصادية والاجتماعية التى كانت من المظاهر البارزة للقرن الثالث عشر . فكان لجمعيات المكفوفين مبادؤها ونظمها التى تسير بموجبها ، ولم تكن لتقوم بأعمال الخير بين أعضائها فقط بل تتعداهم إلى غيرهم من ذوى العاهات .

وفى سنة ١٧٧٧ كون المكفوفون جماعتهم فى بادوا (Baduo) تحت إشراف رئيس دينى ليقوموا ببعض المراسيم الدينية . وأخذ

الأعضاء على أنفسهم العهد ألا ينطقوا بتجديف . وفى سنة ١٦٦١ تكونت جماعة مشابهة فى بالرمو (Palermo) ولما لم يكن لهذه الجماعة مكان تقيم فيه اجتماعاتها أذن لهم رئيس طائفة الجزويت باستخدام الصالة الخاصة بهم . وظلت الجماعة تجتمع فى صالة الجزويت فى أثناء نفيهم . ولما عادوا من منفاهم خصص الملك لهم ثلث دخل الجماعة التى امتد استخدامها للصالة سنوات كثيرة . ولما غضب المكفوفون من ذلك رفض الجزويت السماح لهم بالاجتماع فيها . فرفع المكفوفون الأمر إلى القضاء . وحكم فى القضية لصالح المكفوفين فى سنة ١٨١٥ حين منحهم الدوق دى لورينزانا تصريحاً دائماً باستخدام الصالة .

ويقول أحدهم فى وصف هذه الجماعة ما يأتى :

إن الجماعة تتكون من ٣٠ عضواً كلهم موسيقيون ومغنون . وبعضهم يؤلف الألحان الجديدة وآخرون ينشدون الأناشيد الفكاهية ، وهؤلاء وأولئك ينشدون أناشيدهم ويذيعونها فى الخارج . ومن العهود التى أخذوها على أنفسهم ألا يغنوا فى أماكن ذات سمعة سيئة ولا ينشدوا شعراً مبتذلا فى الشوارع ، وأن يقوموا بالشعائر الدينية المفروضة كل يوم ، وفى الثانى من شهر نوفمبر من كل عام يشتركون فى قداس خاص بالمكفوفين الراحلين ، وكذلك يقومون بنصيبهم فى عيد القديسة مريم العذراء فى الثامن من شهر

ديسمبر . ولهم خادم دين يقرأ لهم القداس يومياً وهو من طائفة الجزويت . وأمامه يؤدون الاعترافات فى الأحد الأول من كل شهر ولرقابته يخضعون فيما يؤلفون من أناشيد وأشعار للغناء . وفى غير هذه الأمور الدينية يخضعون لسلطان هيئة إدارية منهم مكونة من رئيس ومساعدين وستة مستشارين . وكانوا يفخرون بجمعيتهم ويفخرون أكثر بأنهم رفقاء فى جمعية مريم المجدلية بروما .

كذلك كان على كل عضو منهم فيما مضى أن يقدم للجماعة فى الثامن من ديسمبر قطعة شعرية جديدة فى مدح القديسة مريم العذراء ، إلا أن هذه العادة قد بطلت . وإنه لمنظر يسمو بالإنسان إلى جو روحانى حين يجتمعون ويجلسون فى شكل دائرة وكأن كلا منهم هوميروس يحاول أن ينافس غيره فى كسب الاستحسان العام بما يلقيه من أشعار أو موسيقى ، كل هذا والأطفال جالسون على الأرض يتلهون بألعابهم .

ويمكن أن يطلق على « الإخوان الأحرار » وصف أعيان المكفوفين المحظوظين . ولم تشمل جمعيات الإخوان الأحرار جميع المكفوفين فى عضويتها ، بل كان هناك آلاف أخرى لم تذق طعم الحياة تحت هذه الرعاية . إلا أن أثر هذه الجمعيات على المكفوفين عامة من ناحية العناية الاجتماعية كان عظيما ولا يزال مستمراً حتى وقتنا الحاضر . ومن ذلك أن مبدأ عزل المكفوفين قوى واشتد ،

وأن عادة بقاء الكفيف خاملا بلا عمل رسخت وتوطدت . كما رفعوا من شأن التسول بالسماح للذين كانوا يتمتعون بحماية الكنيسة ومزايا روحية وزمنية خاصة أن يمارسوه . ومن هذه الجمعيات امتدت هذه الظواهر إلى غيرها ، بخاصة المعهد العلمانى .

المعهد العلمانى

فى أوربا ، كان القرن الثامن عشر (أو على الأقل العقود السبعة الأولى منه) يعرف بقرن الشحاذين ، لأن المتسولين فعلا ملئوا الشوارع ، وكانوا بكل وقاحة يعترضون عربات الأغنياء والغرباء من المارة طلباً للصدقة ، وكانت المشكلة قد تعقدت منذ القرن الخامس عشر ، ولكن الإصلاح ، وقد حد من سلطة الكنيسة فى أنحاء كثيرة من أوربا ، كون جهازا علمانياً ليعالج هذه المشكلة . ولسوء الحظ بنيت خطة العلاج لا على أساس محاربة الفقر بل على أساس إخفاء المتسولين عن الأنظار .

فكان المكفوفون ، وهم أبرز فئة بين المتسولين ، أول من روعيت أحوالهم وعنى بأمرهم . ولكن لايوجد فى هذه الفترة ما يدل على أنه كان هناك اتجاه على الأقل إلى تكليفهم بالقيام بأى عمل منتج . ومما يدل على ذلك أن القوانين الجديدة التى سنت فى بروكسل وباريس وغيرها من المدن ، اهتمت فقط بكيفية إعالتهم . وفى الملاجىء

والأديرة على حد سواء بقى المكفوفون بمعزل عن غيرهم وعاشوا عيشة الخمول . ولا يستطيع قارئ سجلات هذه الأماكن أن يعثر على مبرر واحد لهذه الحالة من الناحية الاقتصادية . والمعلومات التاريخية فى مجموعها تبين على ما يظهر أن للعاطفة دخلا كبيراً فى الموقف لدرجة أنها شلت التفكير فى الناحية الاقتصادية . فالملجأ لم يحل مشكلة المكفوفين ولا مشكلة المتسولين ، كما أنه لم يفلح فى إخفائها كلية عن الأنظار ، لأنه على حد تعبير مدير مدرسة المكفوفين درسدن سنة ١٨٧٣ لم يكن ممكنا بناء ملاجىء تسع كل المكفوفين .

على أن الحالة فى اليابان حالت دون فهم المشكلة على أساس عاطفى بحت . ذلك أن التأثير البوذى كان يعمل على تدعيم ما يبدو من ميل عام نحو الإبقاء على كفيفى البصر من أن تلك البلاد الفقيرة كان يستحيل عليها فى الغالب أن تعول طبقة كبيرة من مواطنين كسالى أو غير منتجين .

وبالإجمال كانت الحال فى اليابان تتطلب حلا غير التسول أو الملجأ . وإنه لمن المشجع أن ندرك أن الإنسان يستطيع تحت الضغط أن يلاحظ أن بين المكفوفين قسما كبيراً من أقوياء الأجسام الذين يمكن أن يكونوا نافعين اجتماعياً .

ويبدو لنا أن أبرز ناحية في تاريخ المكفوفين هى فشل الإنسان

فى استخدام ذكائه لحل مشكلاتهم طوال هذه القرون . وقد قيل إن إنقاذ المكفوفين لم يكن ميسوراً قبل ازدياد المعلومات العلمية عنهم واختراع طريقة الكتابة الخاصة بهم . ولكن يلوح لنا أن هذا مجرد تعلل ، لأن إحدى قوى الإنسان الدافعة يجب حتما أن تكون إيجاد الوسائل التى يحمى بها نفسه مما يخيفه ويقض مضجعه ، والأدلة موفورة على خوف الكفيف من عجزه وسوء مآله فى حالة فقد البصر . ومن ذلك يظهر أنه أصيب بالشلل فلم يحرك ساكنا ليدرأ عن نفسه الخطر .

ومن العجيب حقاً أن الكلب وهو أقدم رفيق للإنسان لم يدرب قط بطريقة منتظمة على إرشاد الكفيف ليحل مشكلاته الملحة الخاصة باستقلاله فى الحركة والتنقل إلا فى السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة من هذا القرن ، مع أن قدرة الكلب على الإرشاد معروفة منذ آلاف السنين . وقد أثبت المكفوفون أنفسهم من وقت لآخر أن الكلب يمكن تدريبه على إرشادهم . فما لاشك فيه أن المكفوفين من الإنجليز استعانوا بالكلب المرشد ، وأن العمال المكفوفين فى محاجر الزاس استخدموا نوعا منه أيضاً ، واستخدمه الرومان كذلك ، كما أن صوراً للقديس هيرفياس (St. Hervaevs) تظهره دائماً مع كلب أبيض .

ومع ذلك كله لم تكن هناك طريقة منتظمة لتدريب الكلاب لهذا

الغرض قبل سنة ١٩١٥ كما أن قبول الفكرة ذاتها حدث تدريجيا .

علاوة على ذلك كان من السهل التحقق من قدرة الكفيف على مزاولة أعمال كثيرة كالنسيج والضفر والحياكة وبالإجمال القيام بالأعمال التي تتطلب أصلا استخدام الأيدى .

لقد قدمنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب اعتباراً نظرياً فحواه أن تصور الإنسان يقصر لدرجة خطيرة عن فهم ما يستطيع الكفيف القيام به ، ولكن حتى لو سلمنا جدلا بعجز الإنسان عن مثل هذا الفهم ، فمن الصعب أن يوضح ذلك الصورة البشعة السائدة فى الموقف عامة .

إنه من الجلى أن فى الإنسان نوعا من الشعور المتصل بنظرته إلى فقد البصر ، وهذا الشعور أثر فى قوة ذكائه وتدخل فى تفكيره من ناحية المكفوفين تدخلا أقعده عما كان يجب أن يفعله منذ زمن طويل .

الفصل الرابع

الاندماج فى المجتمع

إن ما يبدو مفاجئاً ومدهشاً أن النظرة إلى المكفوفين تتغير الآن ، فقد أتت فكرة لشاب فرنسى لا هو بالعالم ، ولا بالمربى ، ولا برجل الكنيسة ، ولا بالمصلح ، بأن الأطفال المكفوفين يمكن تعليمهم تعليما منظما ، فجمع بعض التلاميذ المكفوفين وعلمهم ثم عرض نتائجه على الأكاديمية الفرنسية (French Academy) التى أثنت على مجهوده ووافقت على منحه إعانة من الدولة تمكنه من متابعة عمله ، وهكذا أنشئت مدرسة . وانتقلت فكرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث قيض الله لها رجلا ذا قدرة نادرة بنى على الأساس الذى وضعه الشاب الفرنسى ، وانتشرت الفكرة بسرعة لدرجة أنه فى ظرف سنتين أنشئت ثلاث مدارس فى نواح مختلفة . وخطت الفكرة خطوتها الثالثة إلى فيينا حيث قام شخص ثالث بتشييد مدرسة . والتقطت بريطانيا الفكرة ، وكذلك ألمانيا ، وقد بدأ الرجال الثلاثة يعملون فى هذه المؤسسات ، وما زالت منذ ذلك الوقت إلى الآن

تعلم الأطفال المكفوفين بطريقة تربوية تطورت بطبيعة الحال وتقدمت على مر الأيام .

ولكن ما الفائدة من التعليم إذا لم يقصد به إعداد للحياة فى المجتمع ؟ فإنشاء المدارس للمكفوفين اقترن به ولادة الشعور بأن المكفوفين يمكنهم أن يندمجوا فى المجتمع ويحتلوا مكانهم فيه .

ولنعد إلى المؤسسين الثلاثة بشىء من التفصيل . فالشاب الباريسى كان فالنتين هوى (Valentin Haüy) ، والفيينى هو « جوهان كلين » (Johannx Klein) أما الأمريكى فهو « صمويل جريدلى هاو » (Samuel yridley Howe) . ولقد أنشأ الثلاثة مدارسهم فى سنة ١٧٨٤ وسنة ١٨٠٤ وسنة ١٨٣٢ على التعاقب .

وهؤلاء الثلاثة جديرون بتكريم أعظم من مجرد ذكر آرائهم وثمرات جهودهم فى حيز محدود كهذا . فالذى يعنينا أكثر من سرد الحوادث التاريخية هو القوى التى تضافرت على خلق تلك الأحداث وأثرها فى حياة الكثيرين فى العالم الحديث .

هؤلاء الثلاثة كانوا قادة ثورة لا محرضين عليها . ونجد دائما فى التاريخ أن الشخصيات تزيد السرد الممل للحركات والاتجاهات تألقاً .

ولما كانت هناك كتب تفى هؤلاء القادة حقهم من التقدير

فحسبنا أن نحيل إليها القارىء المتطلع إلى المعرفة ، ونذكر هنا مايتصل بموضوعنا فقط .

أما « هوى » فكان فى الثامنة والثلاثين عندما أخذ على عاتقه سنة ١٨٧٣ أن يعلم صبياً عمره سبع عشرة سنة اسمه ليزير (Lesueur) ووافق « ليزير » هذا على أن يخصص للتجربة بعض الوقت الذى كان مضطراً أن ينفقه فى التسول . وتشاور « هوى » مع عدد من المكفوفين المشهورين فى ذلك الوقت ، وفحص بعض الأجهزة التى كانت قد صممت قبل ذلك لنقل المعلومات إلى الكفيف .

وكان « هوى » ابن عصره ، له أخ متخصص فى المعادن وأصاب بعض الشهرة فى الأوساط العلمية وكلاهما كان مشبعاً بروح الثورة السائدة فى ذلك الوقت . ولم تكن مواهب « هوى » عظيمة ، وفى الواقع أن من يتتبع تاريخه يشعر بأنه كان يهتم بالمظهر أكثر من اهتمامه بالنتائج الواقعية . ولكنه كان ذا قدرة على التقاط الوسائل الفنية التجريبية إلى حد أنه كان يرفض أن ينسب أية ظاهرة يكتشفها إلا إلى القوانين الطبيعية ، واقتنع عن طريق اتصالاته واجتماعاته بالمكفوفين البارزين بأنهم لم يصلوا إلى مستواهم الرفيع بسبب مواهب خارقة فى أخلاقهم أو شخصياتهم ، بل بفضل تحصيلهم الثقافى الذى يمكن أن يكتسبه المكفوفون الآخرون .

على أن « هوى » لم يكن أول من فكر فى الحروف البارزة

التى يمكن قراءتها بالأصابع ولكنه اخترع طريقة إبراز الحروف من أى نوع كانت على الورق للمكفوفين .

ويقول واج (Wagg) إن « ليزير » تلميذ « هوى » لاحظ أن فى الطبع العادى عندما يخرج الورق من المطبعة مبتلا نوعا ما تبرز الحروف معكوسة . فكان «هوى» يستخدم حروفا معكوسة وعندما تطبع على ورق مبتل تظهر فى شكلها الصحيح على ظاهر الورق .

وكان تفكيره متجهاً أول الأمر إلى الحروف الرومانية فقط معتمداً على افتراض شائع وقتئذ ألا وهو أن فى عقل الكفيف فراغاً فيجب أن يكون الأساس فى تعليمه هو ملء هذا الفراغ بمعلومات عن أشياء كما تظهر للعين . وكان المظنون أن حاسة اللمس تستطيع أن تنقل المظهر النظرى للحروف عن طريق إدراك شكلها . وظل كثيرون من المربين بعد هوى يفكرون على هذا النمط مدة طويلة حتى ظهرت الكتابة بالنقط بعد ذلك بخمسين سنة على يد واحد من تلاميذ المدرسة التى أنشأها هوى ، فأثبتت أن حاسة اللمس يمكن استخدامها على أحسن وجه فى القراءة .

كان «ليزير» ولدا ذكياً ، ففى أقل من سنة غامر «هوى» بعرض النتائج التى توصل إليها معه على مجمع من العلماء . وضمن عن طريق عرضه الثانى الحصول على معونة مالية واثنى عشر تلميذاً كانت تعنى

بهم جمعية خيرية لخولتهم إليه ليكون منهم أول فصل قام بتعليمه . وصار هذا الفصل فيما بعد المعهد القومى لصغار المكفوفين الذى تأسس فى سنة ١٧٨٤ . وكان هؤلاء الاثنا عشر أول فصل فى العالم تلقى تعليماً « رسمياً » .

وتلقى « هوى » العون المالى الثابت بعد أن ظهر لأول مرة أمام الأكاديمية الفرنسية . فبعد أن عرض تلاميذه وما استطاعوا أن يحصلوه ، وبعد أن قدم شواهد من كتاباته البارزة أصدر المجمع قراراً بأغلبية أعضائه يعلن فيه رضاءه عما وصل إليه « هوى » من نتائج وكان ذلك فى شهر فبراير سنة ١٧٨٥ .

ثم تدفقت عليه التبرعات لتضاف إلى إعانة الحكومة التى كان يحصل عليها . وكان الموسيقيون يحيون حفلات يخصص دخلها لمدرسته . وفى سنة ١٧٨٦ ظهر أربعة وعشرون طالباً أمام الملك فى فرساى وعرضوا بعض ماتعلموه . ويقول « فرلش » : إن رجال البلاط دهشوا لما رأوا المكفوفين يقرأون ويكتبون ويحلون المسائل الرياضية ويعملون بأيديهم أعمالا تعلموها فى المدرسة ، ومما زاد فى عمق الأثر الذى تركوه فى النفوس أن فرقة منهم عزفت على الآلات الموسيقية . وفى ذلك الوقت نشر « هوى » رسالته العلمية التى أجهد نفسه فيها زمناً طويلا وكان موضوعها « تربية المكفوفين » . وهو

يذكر فى هذه الرسالة كيف كان يتلمس طريقه وهو يكون الحروف ويرسم الخرائط البارزة لتعليم الجغرافيا ويصنع الأرقام المتحركة لتعليم الحساب . ولم يهمل العنصر العملي فى التعليم فأخذ يعلم بعض المهارات الخاصة وجعل الموسيقى جزءاً هاماً من المنهج . ويظهر أنه كان يعتقد أن المكفوفين يتمتعون بالموهبة الموسيقية أكثر من غيرهم ، وهو اعتقاد شاركه فيه من خلفوه فى إدارة المدرسة .

وذكر أحد المراقبين أن مدرسة « هوى » لم تعد أكثر من مدرسة قومية تعلم المكفوفين الموسيقي .

ثم دعى « هوى » ليؤسس مدرسة مماثلة فى برلين وتم ذلك فى سنة ١٨٠٦ ، وأخرى فى بطرسبرج بناء على دعوة شخصية من الأمبراطوار الإسكندر الأول . وبالرغم من الرعاية السامية التى حظى بها فى بطرسبرج فإنه باء بالفشل ، فبالرغم من أن أهل المدينة كانوا يظهرون احتراما جما للعلم الفرنسى ويستقدمون الأساتذة من فرنسا إلا أن الروس لم يكونوا فيما يظهر على استعداد لقبول فكرة تعليم المكفوفين . قال الدكتور يعقوب كلو بوفسكى فى تقرير قدمه للمؤتمر الدولى المنعقد سنة ١٩١٤ عن حالة المكفوفين فى روسيا ما يأتى :

فى سنة ١٨٠٧ قرر الإمبراطوار أن يدعو فالنتين هوى ... ولكن نوايا الإمبراطور الخيرية لم تجد تربة صالحة . ولقد كان تعليم

المكفوفين يعد فى نظر الناس أمراً مستحيلا . وذهب بعض المتطرفين إلى حد القول إن محاولة تعليمهم خطيئة كبيرة لأنهم كانوا يرون فى كل كفيف أثراً ليد الله . وقضى « هوى » عشر سنوات فى روسيا يحاول جاهداً أن يصل إلى هدفه بالرغم من عدم المبالاة الكامنة من جانب الحكومة والمجتمع ومعارضتهم فى بعض الأحيان . ومن الغريب أن البعض أراد أن يقنع هوى بأن روسيا ليس بها مكفوفون .

أما جوهان ولهلم كلين (johann Wilhelm Klein) من فينا ، فكان يختلف كثيراً عن « هوى » فى الخبرة والمزاج . كان كلين ألمانى الأصل ، نمسوى الإقامة . درس القانون ومارس مهنته ولكنه وجد فى القانون لذة أقل مما وجد فى خدمة الإنسانيه . عرف كل شىء يتعلق بالإحسان وكرهه . وشغل وظيفة مدير المنطقة المسئول عن الفقراء بدون أجر ، فوجد فى مئات المكفوفين الذين عرفهم مواهب قابلة للتعليم . واتصل مثل « هوى » بالمكفوفين المشهورين فى وقته واستنتج مثله أنهم ذوو مواهب عادية ولا يتميزون عن غيرهم بشىء خارق للعادة ، ثم قرر أن يفتتح مدرسة . وبدأ كما بدأ «هوى» بتلميذ واحد اسمه يعقوب برون (jacob Braun) وما إن جاءت سنة ١٨٠٨ حتى تم إنشاء معهد فينا — المشهور الآن — لتعليم المكفوفين .

ولم تختلف تجربته عن تجربة « هوى » إلا فى أمر واحد ، وهو أنه في بداية عمله لم يقابل بالتشجيع وبالحماس اللذين قوبل بهما زميله . وكثيراً ما قيل عنه إنه رجل أحلام وإن مشروعه سيبوء بالفشل . ولكن المعهد لما وضع تحت رعاية فرانز الأول استقرت أحواله المالية .

كان « كلين » أكثر الرواد الثلاثة فراسة علمية فى معالجة موضوعه : كان يفرق بين أهداف التربية وأهداف الإحسان . ولم يكن شىء من جو الملجأ موجوداً بمدرسته ، وكان يتمنى أن يجىء اليوم الذى تصبح فيه مدارس المكفوفين غير ضرورية فيستطيع الأطفال المكفوفون أن يلتحقوا بمدارس المبصرين دون فارق ، إلا ما كان خاصاً بالوسائل التعليمية التى تتطلبها حالتهم .

ويقول فرنلش عن معهد كلين إنه ما من معهد فى العالم يسر دراسة حالة المكفوفين وتعليمهم مثل معهد كلين . ولأن شخصية كلين لم تكن لتلفت النظر مثل « هوى » أو « هاو » فكان أقل الرواد الثلاثة شهرة . فإذا ما تركنا « كلين » الآن والتفتنا إلى « هاو » فما ذلك إلا لأننا نريد أن نعرف ماحدث فى أمريكا التى لم توجد فيها الآراء العتيقة بما فيها من هوى بل لم يسمع عنها .

« هاو وأمريكا »

بينما كان جون فيشر وهو شاب من مدينة بوسطن يدرس الطب فى باريس فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، زار مدرسة « هوى » عدة مرات . وقد واجهت المدرسة صعوبات أثناء الثورة الفرنسية ، إلا أنه أعيد تنظيمها واستمرت بإشراف مدير آخر . وكان أمراً عادياً فى تلك الأيام أن تبحث الجماعات المثقفة موضوع تعليم المكفوفين فى أوروبا ، ولما عاد « فيشر » إلى بوسطن سنة ١٨٢٦ أخبر الناس بما شاهد فى فرنسا . فطلب منه أن يدعو إلى اجتماع أناساً من ذوى النفوذ ليفكروا معاً فيما يمكن عمله فى أمريكا لمساعدة المكفوفين . فعقد الاجتماع فى العاشر من شهر فبراير سنة ١٨١٩ فى أحد المقاهى . ولما كان المجلس التشريعي لولاية ماسانشوشتس فى دورة انعقاده ، وحضر الاجتماع بعض المشرعين ، فقد انتهز «فيشر» الفرصة فخطب فى المجلس مبينا بالتفصيل وسائل نقل المعلومات إلى المكفوفين ، وعبر اثنان هما كالب تشنج ، ووليم كالهن ، عن استحسانهما للفكرة ونفعها لو تأسس معهد مشابه لمعهد باريس .

وعقدت اجتماعات أخرى وعينت لجنة لتهتم بالموضوع ، وصدر قرار بتنفيذ المشروع دون مناقشة من كلا المجلسين التشريعيين .

بعد ذلك خصصت الاعتمادات اللازمة وعمل إحصاء بعدد الأطفال المكفوفين فى كل أنحاء الولاية ، وكان كل شىء معداً إلا المدير ، لأن الدكتور لم يكن راغباً فى تحمل مسئولية إدارة هذا المعهد الناشىء بنفسه وفى سنة ١٨٣٠ عاد صموئيل جريدلى هاو إلى بوسطن بعد أن اشترك فى ثورة اليونان اشتراكا إيجابياً . وكان «هاو» قد درس بتعمق مشاهير المفكرين والتربويين فى ذلك الوقت ، وكان هو نفسه يعتبر قوة حقيقية فى فترة الانتقال هذه . وكان كطبيب يرفض أن يتقاضى أجرا على خدماته الطبية ، وكان ذهابه إلى اليونان بدافع من رغبته فى أن يساعد ذلك القطر فى التحرر من نير الأتراك . وتزوج من جوليا وارد وهى ثائرة مثله . وكان جميل الصورة قوى البنية ، لا يقف حب الاستطلاع فيه عند حد . وقد كان يرجو ألا يواصل الكفاح لأجل المحرومين بعد عودته إلى أمريكا ولكن خاب ظنه وقبل عرض فيشر بأن يتولى إدارة معهد المكفوفين فعاد إلى أوروبا ليقضى عدة أسابيع فى دراسة الأساليب المتبعة فى معهدى باريس وفيينا وفى المدارس الناشئة فى انجلترا .

ووجد فى هذه الدراسة كثيراً مما أعجبه وكثيراً مما رغب عنه . كما وجد أن العمل فى أوروبا يشوبه نوع من الصوفية أو التقديس الذى رفضه هذا الرجل بما فطر عليه من حس واقعى ، ووجد

هناك كذلك الظاهرة التى نمت على الأيام حتى أصبحت الطابع الغالب على جميع الجهود التى تبذل للمكفوفين ، وهو ضرب من السرية يفرض على المناهج واعتقاد راسخ عند كل مدرسة بأنها وحدها تملك الإجابة الصحيحة على اللغز الموجود إلى الآن وهو كيفية الوصول إلى عقل الطفل الكفيف .

وعاد هاو إلى أمريكا فى سنة ١٨٣٢ التى تعتبر مولد حركة تعليم المكفوفين . وأحضر معه معلمين ذوى خبرة هما أميل ترنشيزى لتدريس الأدب وجون برنجل من أدنبره لتدريس الأشغال اليدوية . ولما افتتح المدرسة فى بيت أبيه فى تلك السنة التحق بها ستة تلاميذ تتراوح أعمارهم بين السادسة والعشرين . وفيما بعد قدم الكولونيل توماس بيركنز بيته الجميل ليكون مقراً للمدرسة ، واعترافا بجميله سميت المدرسة « معهد بيركنز » .

وفى السنة عينها افتتح معهد تعليم المكفوفين بمدينة نيويورك وعين الدكتور جون . د . روس أول ناظر له . وفى سنة ١٨٣٣ افتتحت جمعية الأصدقاء معهد تعليم المكفوفين فى مدينة فلادلفيا وكلا المعهدين باق حتى الآن فى تقدم مطرد بعد مرور أكثر من قرن على إنشائهما .

أما هاو فظل الشخصية البارزة فى الميدان ، إذ استخدم ماحبته به الطبيعة من حب استطلاع وذكاء بكل غيرة وحماس ليشبع عقول التلاميذ المكفوفين بالإحساس بحقيقة البصر ، لأن هاو نفسه كان يعتقد بنظرية الفراغ . فأدخل تحسينات علي الخرائط البارزة التى رآها فى مدرسة كلين بمدينة فيينا ، ووضع نظاما جديداً للحروف البارزة ، وقام بتجارب عدة بقصد استخدام حروف فى طبع الكتب .

ونجح فى أن يعرض نتائج ما أحرزه ثلاثة من تلاميذه من تقدم فى المدرسة أمام الكونجرس الأمريكى ليقنعوا هذا المجلس بضرورة إنشاء مطبعة وطنية للمكفوفين ، إلا أن هذه المغامرة من جانبه لم تصادف نجاحاً سريعاً . واهتم بقسم الموسيقي فى المعهد وكون منه فرقة مدرسية موسيقية . وأدخل مؤخراً عدة حرف مما استطاع التلاميذ تعلمها مثل التنجيد وصناعة الحصر والمكانس وملء الكراسى .

وأصر هاو على ألا تكون هناك أية سرية فيما يتعلق بالعمل الذى كان يقوم به . فكان يدعو العلماء من زوار مدينة بوسطن لمشاهدة معهد بيركنز . ووقف هاو أمام خمسة عشر مجلساً تشريعياً مدافعاً عن قضية المكفوفين ووجوب تعليمهم . وكان من أثر ذلك

أن أنشئت مدارس حكومية على الفور . وكان يخطب أمام الجمعيات العلمية عن عمله و نشر كثيراً من النشرات لنفس الغرض . وحاول أن ينمى فى كل العاملين بين المكفوفين . ورؤساء الملاجىء من جملتهم ، روح التنظيم والتنسيق .

وكان يكره فكرة الإحسان على هذه المؤسسات التعليمية الأخرى .

وكان كثير من الأطفال المكفوفين فى حالة مروعة بدنيا عند التحاقهم بالمدرسة ، ولذا كان يلح على وجوب تقديم الفرصة لمثل هؤلاء لينموا بدنياً . ويقول ميشيل أناجنوس ، صهر هاو وخليفته فى إدارة المدرسة فى هذا ما يأتى :

« إن الغرض من خطته الشاملة أن تتفتح ملكات المكفيف الذهنية وتنمو قواه البدنية فى نظام معين وأن نرقى فيهم الإحساس بالجمال ونعدهم لمهنة حرة . وندربهم على الجد والفضيلة ، وتنمى إلى أقصى حد كل مواهبهم وقدراتهم ، وأخيراً لنجعل منهم أشخاصاً لهم قدرة الاحتمال يعتمدون على أنفسهم حتى يخرجوا إلى العالم لا ليأكلوا خبز الصدقة بل ليكسبوا عيشهم بالعمل الشريف » .

وكل ما يؤخذ على هاو هو أنه سمع عن اختراع جديد يفيد المكفوفين منه فائدة محققة ولكنه رفضه . والاختراع هو طريقة

رايل . وقد بدا لهاو أن طريقـة برايل تعسفية لأن حروفها تختلف شكلا عن الحروف المعروفة للعين . ومع ذلك اتضح أن المكفوفين لم يقرءوا قط بسهولة الحروف البارزة التى اخترعها ، بينما أولئك الذين اتقنوا طريقة برايل استطاعوا أن يقرؤا بسرعة تضارع سرعة المبصر تقريباً . ويمكن أن نغتفر للرجل غلطة كبيرة مثل هذه بسبب ما أداه من جليل الخدمات الأخرى . فاهتمامه بذوى العاهات كان لا حد له . فلم ينس ضعاف العقول . وأخذ على عاتقه لأول مرة فى التاريخ أن يعلم فتاة مكفوفة صماء خرساء ، وكان اسم الفتاة لورا بردجمان . وبالطريقة التى اخترعها هاو لتعليم هذه الفتاة . تعلمت هيلين كيلار فيما بعد . ومن الصعب أن يصدق الإنسان أن صموئيل هاو مات منذ أقل من خمس وثمانين سنة .

إن تأثير هاو كان عظيما . وقد امتد ، كما سنرى ، من أمريكا إلى بريطانيا . وقيل إن تعليم المكفوفين فى أمريكا لم يتغير كثيراً عن الطريقة التى وضعها هاو ، وينطبق هذا القول على المدارس الداخلية إلى حد كبير .

وأما المطبعة الأمريكية الخاصة بالمكفوفين التى لا تزال تمد المكفوفين فى أمريكا وفى جزء كبير من العالم بالكتب البارزة والناطقة وغيرها ـ هذه المطبعة جاءت نتيجة للإجراء الذى احتضنه هاو فى الكونجرس عن طريق المنظمة التى أفلح فى تكوينها بين

المربين . ولكن لنذكر أن مثل «هاو» فى أمريكا كمثل «هوى» فى فرنسا . لقد نجحا لأن كلا منهما وجد التربة الخصبة والجو الملائم لجهوده . ولو ذهب «هاو» إلى روسيا لما لقى نجاحاً أكثر من «هوى» بالرغم من معونة القيصر القوية . إن الشعب يجب أن يؤمن بالفكرة ويقبلها ليكون النجاح مؤكداً .

فى بريطانيا

مع أن المملكة المتحدة سبقت أمريكا فى مضمار تعليم المكفوفين إلا أننا عالجنا تاريخه فى أمريكا أولا لسبب غريب خاص . ووجه الغرابة فيه أن ماحدث فى أمريكا كان له أثر عميق فى التطورات التى حدثت فى بريطانيا ، فى الوقت الذى كان التأثير العام يتجه من بريطانيا إلى أمريكا الشمالية .

حدث فى سنة ١٧٩١ أن أحد الأدباء واسمه ادوارد راشتون (Edward Rushton) فقد بصره فوجه عنايته إلى مشاكل المكفوفين . وكان أول عمل قام به أنه أسس فى مدينة ليفربول ما يسمى فى كتب التاريخ مدرسة صنع السلال . وتلاها فى سنة ١٧٩٣ مدارس أخرى فى أنحاء أخرى من البلاد وبخاصة فى مدينتى بريستول وأدنبرة حيث وضع نظام أصبح نموذجا لتعليم المكفوفين فى الجزر البريطانية لمدة طويلة . وكان أساس هذا النظام أن يتعلم الطفل الكفيف حرفة

يستخدم فيها يديه ويقضى فيها العمر كله ولما زار هاو هذه المدارس وجدها جميعها قائمة على النظام فقط ولم تتأثر إلا قليلا بما كان حادثاً فى القارة الأوروبية ، حيث شجع عمل هوى (Hauy) فى باريس على تأسيس مدرسة فى ستيجلتز سنة ١٨٠٦ ، وثانية فى أمستردام سنة ١٨٠٨ وثالثة فى زيورخ سنة ١٨٠٩ . ويمكن الوقوف على الاتجاه العام نحو قدرة المكفوف على التعلم من ملاحظة وردت فى تاريخ واج (Wagg) إذ قال إنه فى سنة ١٨٢١ ، أى بعد أن اخترع هوى الحروف البارزة بخمس وثلاثين سنة . أرادت لادى البزابيث لوثار أن تشترى بعض الكتب لتستعين بها فى تعليم ابنها الكفيف فلم تجد أيا منها فى بريطانيا واضطرت إلى شرائها من فرلسا .

وكما سنرى بعد قليل كيف أنه انقضى على اختراع طريقة برايل أكثر من ثلاثين عاما قبل أن يقبلها البريطانيون وكيف أنهم أبطأوا فى تعميم استخدامها — كما أنهم لم يعترفوا بقدرة المكفوفين على التعليم الثانوى إلا بعد سنة ١٨٧٠ — وفى سنة ١٨٦٦ أسس القس هـ. هـ. بلير (Blair) كليته فى ورسستر (Worcester) لتعليم المكفوفين من أبناء النبلاء . وجاء فى دائرة المعارف البريطانية طبعة سنة ١٨٧٨ ما يلى عن هذه الكلية :

لقد افتتحت بقصد تقديم الفرصة لأسر الطبقة الراقية أن يعلموا أولادهم بطريقة نظامية مع مراعاة وسائل الراحة المنزلية والجو الذى يلائم منزلتهم الاجتماعية . ومنهج التعليم الذى وضعه السيد بلير شاق من شأنه أن يجعل من التلاميذ رفقاء أذكياء فى البيت إذا لم يكن هناك غرض آخر ، ولكن أساس كل مساعى السيد بلير كان اقتناعه المبنى على معرفته الشخصية بأن المكفوفين قادرون على أن ينافسوا المبصرين إلى أقصى حد . وظل الرأى الخاطىء إلى الآن ضد تشغيل المكفوفين لأن الناس كانوا يظنون أنهم غير قادرين عليه ، أضف إلى ذلك بعض صفاتهم الأخرى الناشئة عن إهمال شأنهم . فلنقتلع هذه الفكرة من الأذهان حتى تزداد الفرص أمامهم للعمل .

هذا النوع من الحاجة الذى استعمل لحض الطبقات العليا على تعليم أبنائها يلقى بعض الضوء على حالة من هم أقل حظاً فى الحياة . وهذه الحال حركت للعمل جمعية للمكفوفين وصلتها أنباء وثيقة عما أصاب غيرها من تقدم حرمت من ثماره . فتحركت للعمل ، ولكى تنزع التقدم فى هذا الميدان أرسلت الجمعية إلى المسئولين فى أواسط القرن التاسع عشر عبارات هى أقسى ما وجه إلى مسئولين على الإطلاق . وكانت تلك الجمعية ، عن طريق رئيسها ، هى التى اتجهت نحو أمريكا لتسترشد بتجاربها : فاستقدمت فرانسس كامبيل (Francis CamPell) من معهد بيركنز (Perkins) ليكون شريكا

فى تأسيس الكلية الملكية التعليمية والأكاديمية الموسيقية .

واستدعت نفس الجمعية فيما بعد أمريكيين آخرين ، ليعينوا البريطانيين بخبرتهم على تفهم مشاكل تعليم المكفوفين . وهكذا بطريق غير مباشر من بوسطن كان لجهود « هوى » أخيرا أثره فى الجزر البريطانية ، إلا أن القانون الخاص بجعل التعليم الثانوى إلزامياً بين المكفوفين إلى السادسة عشرة من العمر لم يمر فى البرلمان إلا سنة ١٨٩٣ .

طريقة برايل

إن اختراع الكتابة الخاصة بالمكفوفين قد أكمل النقص الذى كان يعتور نظامهم التعليمى . وتستطيع حاسة اللمس أن تدرك عن طريق نقطة أو جملة نقط ما يخبرها فى الحروف المكتوبة على شكل خطوط . وتعلم المكفوفين للقراءة عن طريق الحروف المرسومة على غرار الحروف الأبجدية للمبصرين هو فى الواقع ادعاء أكثر منه حقيقة حتى ولو قضوا فى تعلمها السنين الطوال . على أن كلمة « برايل » يفهم منها غير الملمين بالموضوع كل أنواع الكتابة بالنقط ولكن الواقع أنها إحدى طرق عدة تختلف فقط فى وضع النقط وبروزها على الورق .

وهناك خلاف على نشأة طريقة الكتابة هذه . فبعضهم ينسبها

إلى تشارلس باربير (Charles Barber) المهندس والمخترع ، والبعض الآخر يقول إنها نشأت عن الحاجة إلى قراءة الشفرة العسكرية فى الظلام . وسمى باربير طريقته أولا : « الكتابة الليلية » (فى الظلام) .

وفى سنة ١٨١٥ نشر بحثاً لفت فيه النظر إلى إمكان استخدام طريقته فى كتابة النوتة الموسيقية للمكفوفين ، ولكنه يترك فى ذهن القارىء الاعتقاد بأن طريقته إنما فكر فيها مبدئياً على أنها صورة لشفرة سرية . كما أنه اخترع أيضاً لوحاً ونوعاً من القلم يمكن استخدامهما فى الكتابة على الورق بدقة فى خطوط موسيقية تقرأ بالأصابع .

ولد لويس برايل سنة ١٨٠٩ وفقد بصره وهو فى الثالثة من عمره وانضم إلى معهد باريس فى سن العاشرة . وكان ينتمى إلى أسرة طيبة من الطبقة المتوسطة . وقبل التحاقه بالمدرسة علمه أبوه استخدام يديه بمهارة . وكان حاد الذكاء فأصبح تلميذاً ممتازاً وموسيقياً ناجحاً .

وصار بعد تخرجه معلماً بالمعهد . فاهتم اهتماماً عظيماً بالمكفوفين أمثاله . وكان مشهوراً بصبره الفائق وبراعته فى التعليم . ويبدو أنه كان يثور على عدم قدرة المكفوف على قراءة النوتة الموسيقية بنفسه .

ويبدو أيضاً أن ما أظهره من الاهتمام باختراع باربيير يرجع إلى ما أحس به من إمكانية استخدامه فى كتابة النوتة الموسيقية للمكفوفين . فإذا كان الأمر كذلك فإنه من المفيد أن نلاحظ أن أسلوبه فى ترتيب النقط فى النوتة الموسيقية هو الجزء الوحيد من طريقته العامة الذى جاز كل المشاحنات والخلافات التى قامت حولها دون تغيير .

ولاحظ برايل أيضاً أن النقط فى ترتيبها الوضعى بالنسبة إلى بعضها البعض أسهل بما لا يقاس فى القراءة بواسطة اللمس من الخطوط المستقيمة أو المنحنية فى أى وضع كانت . كانت طريقة باربيير معقدة ومبنية على عدد كبير من النقط ، أما برايل فلأنه عالج المشكلة وهو كفيف وجد أن ست نقط كانت أكبر عدد يمكن لطرف الإصبع أن يحس به معاً كمجموعة فى الوقت الواحد . كما أنه وجد أيضاً أن هذه النقط الست يمكن بسهولة أن تكون منها كل الرموز أو الحروف الأبجدية . والجدير بالملاحظة أيضاً أنها كانت كافية للتعبير عن أبجديات أخرى غير الرومانية .

وكان أول شىء نشر عن طريقته عام ١٨٢٩ ، أما طريقته بأكملها فلم تنتشر إلا فى سنة ١٨٣٧ . والطريقة المسماة باسمه هى طريقته كما انتهى منها مع بعض تعديلات قليلة .

ومع أن طريقة برايل راقت لدى كل كفيف جربها إلا أنها لم

تقابل بالترحاب من القائمين بالأمر فى المدارس . فالمدرس أو التلميذ الذى أراد تعلمها كان عليه أن يفعل ذلك خارج ساعات الدراسة الرسمية . وحتى المدرسة التى بدأت فيها طريقة برايل لم تستخدمها رسمياً إلا بعد مرور أربع عشرة سنة . وكان ذلك بعد وفاة لويس برايل بسنتين .

ولم تقبل طريقة برايل بأكملها فى بريطانيا إلا فى سنة ١٨٦٩ وقيل إن صموئيل هاو كان فى شك منها . وأما فى أمريكا فبدأ استخدامها فى سنة ١٨٦٠ . ويظهر أنها لم تستخدم أولا فى مدارس بوسطن أو فيلادلفيا أو نيويورك بل فى مدرسة ميسورى ولم يعم انتشارها إلا بعد سنين من بدئها فى أمريكا . ويقول فرنش إنه من الصعب معرفة السبب الذى من أجله بقيت مهملة كل هذه السنين . لقد كان عليها أن تختط طريقها خلسة وكان رفضها على أساس أنها طريقة تعسفية . إلا أن الدكتور ت . سبلى (Sibley) كان أول من طبقها فى مدرسة ميسورى علنا .

عوامل التغيير

والآن يواجهنا السؤال : أية قوة عملت على إزالة التحامل القديم على تطوير العمل فى رعاية المكفوفين والسماح بحدوث هذا التطور ؟ من المعتاد أن ننظر إلى الأحداث التى تلت عام ١٧٨٤ على

أنهـا تطور تقدمى فى رعاية المـكفوفين وأنها بالطبع جزء من تطور عام فى الاهتمام بأمر ذوى العاهات جميعاً . ويمكن الإشارة هنا إلى أن قليلا فقط من التطورات التى حدثت فى حياة المـكفوفين اجتماعياً شملت غيرهم من ذوى العاهات الأخرى منذ القرن الثالث عشر . فقد ظل العمل مقصوراً على المـكفوفين وحدهم طوال هذه المدة . ولايزال حتى الآن بمعزل عن غيره من ميادين الرعاية . ولـكن هذا الاعتبار وحده لا يكفى سبباً لهذه العزلة ولا يوضح علاقته ، إذا كان هناك علاقة ما ، بموضوع التسول فى التاريخ ، أو بمـا يسمى فترة الملجأ .

إن الفترات التى ذكرناها إن هى إلا تقسيم سطحى أو صناعى دعت إليه الحاجة إلى التقسيم لفهم الحوادث . وفى الواقع ، أن فترة التسول لم تنته عند بدء فترة الملجأ ؛ ذلك لأن الملجأ أخفى فقط ما كان موجوداً . ولم تـكن فترة الملجأ دليلا على التقدم بأى معنى من المعانى ، ولا حاجة بنا إلى تعريف التقدم لنثبت هذا القول . فالتعرض لنوع من التسول المفروض على الـكفيف مدى الحياة لم يكن قط مظهراً من مظاهر الفهم الاجتماعى ، ولـكن كان هناك بعض الحرية للمتسولين القوى الأبدان ، وفرصة لجمع الثروة للدهاة منهم . أما الملجأ فقد أودى بهذا القدر الضئيل من الميزات وأحل

محلها السجن وحبس الحرية . فتحت سلطان الكنيسة كان الغرض من الملجأ تخليص النفس ، وأما في صورته العلمانية فلم يكن له من غرض إلا جمع المكفوفين من الشوارع وبذا يخفى حقيقة حالهم . فالأحداث التي بدأت تظهر فى سنة ١٧٨٤ لم تكن من نتائج فترة الملجأ إطلاقاً بل كانت تمرداً ضدها ، واتفاقاً فى الاتجاه مع ثورة أعم وأشمل ضدقوى كثيرة ، منها الرغبة فى جمع المكفوفين معاً كفئة لها مجموعة من الخصائص المشتركة .

إلا أن عمل «هوى» (Haüy) كان مرتبطاً بدرجة محدودة بالناحية العلمية فى تلك الفترة . حقاً إن انتشار الثقافة والرغبة الملحة فى التعليم العام كانت من العوامل التى دفعته إلى العمل ليحمل الناس على قبوله . إلا أن عمل هوى ، بالرغم مما فيه من رجاحة لا يمكن اعتباره من الناحية التاريخية النتيجة النهائية لمجموعة من التجارب والأبحاث ، لأن به الكثير من التأمل والخيال . هذا ، ومن وقت لآخر ، كانت تظهر نشرات وصحف بها اقتراحات عن طريق تعليم القراءة للمكفوفين وتقارير عن نجاح تحقق . وفى سنة ١٥١٧ صنع فرانسسكو لوكاس (Francisco Lucas) من سراقسطة مجموعة من الحروف البارزة مصنوعة على قطع الخشب الرقيق ، ويظهر أن هذه كانت أول مجموعة من الحروف البارزة المقترحة لتعليم المكفوفين . وحوالى سنة ١٥٥٠ اخترع كردانو (Cardano) من بافيا طريقة أخرى ،

وفى سنة ١٥٧٥ اخترع رامبازتو (Ramazetto) من روما حروفا مماثلة لحروف لوكاس . وفى سنة ١٦٥١ نشر هورز دورفر (Hars Dorfler) رسالته التى وصف فيها طريقة لتعليم المكفوفين الكتابة على لوح مغطى بالشمع . وفى سنة ١٦٧٦ تعلمت اليزابث والدكيرخ (Elizabeth Waldkirch) على يد برنويللى (Berniouilli) الحروف جيداً بوساطة لمس مكعبات من الخشب حتى إنها كانت تستطيع أن تعيد رسمها على ورق مثبت فى إطار . . وفى سنة ١٦٧٠ عالج الأب اليسوعى فرانسسكو (Francesco) طريقة لتعليم المكفوفين فى رسالة أشار فيها إلى إمكان تعليم الصم .

وقد خص فلاسفة القرن الثامن عشر المكفوفين ببعض تفكيرهم ، فلوك (Locke) نشر رسالة تحت عنوان « الفهم البشرى » أثارت نقاشاً كثيراً حول مشكلة حاول مولينوه (Molyneux) معالجتها ألا وهى : إذا عرف كفيف الفرق بين المكعب والكرة بوساطة اللمس ، فهل يستطيع إذا عاد له البصر أن يميز بينهما دون الاستعانة باللمس ؟ فكان رد لوك على هذا التساؤل بالنفى ، إلا أن ليبنتز (Leibnitz) خالفه فى ذلك فى سنة ١٧٠٣ . وبقي التفكير الفلسفى على هذا المستوى النظري دون أن يعرض لاقترحات محددة عملية تدفع إلى العمل .

إلا أن ديدرو (Diderot) أوشك أن يصل إلى نظرية سليمة لتعليم المكفوفين . فبعد أن درس حالة صديق كفيف نشر رسائله تحت عنوان : المكفوفون تحت رحمة المبصرين . وقد أودع السجن لأنه هاجم السلطات ، غير أن هذا الحادث قد أدى إلى اهتمام الجماهير بالموضوع . وقدم ديدرو فى رسائله ثلاثة افتراضات جريئة تبين أنه أدرك تماماً أن حاسة اللمس وحاسة النظر لهما مركزان مختلفان .

ولا يبين عمل هوى أنه تأثر بهذه الفكرة ، لأنه تمسك برأى مؤداه أن تعليم المكفوفين يشتمل على مدهم بما يسببه لهم فقد البصر من نقص ، بتدريب الحواس الباقيـة وتنميتها على مستوى أجهزتها المختلفـة ، ولكن فى نطاق محدود . لقد فحص الوسائل المتبعـة التى اخترعت فى الماضى ، ولكنه أسقطها من حسابه . وكان الأثر المباشر لذلك أن الموضوع لم يعد مشكلة تقوم مجموعة من العلماء بدرسها ، بل سعى المكفوفون أنفسهم فى أن يعينوا أنفسهم على النمو والتقدم .

وحوالى منتصف القرن السابع عشر ظهر عدد من المكفوفين البارزين . ولا شك أنه ظهر قبل هؤلاء مكفوفون بارزون لهم مثل مواهبهم ، ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن شهرتهم انحصرت فى دائرتهم الضيقة تاريخياً ، وبروز شخصياتهم كان فى نظر الناس ناشئا عن عوامل غير طبيعية ، لقد نجح المحدثون فى اكتساب ثقافة ومعرفة كان يمكن

أن تكون موضع فخر لأى إنسان ، كما كان من الجلى أنهم لم يكونوا مجرد ببغاوات تردد ما تعلمت ، إلا أنهم ، بدلا من أن يثيروا التعجب والمزيد من الخرافات بين الناس كما كان الحال مع القديس ديديموس (Didymus) . كان من حسن حظهم أنهم عاشوا فى زمن كانت العقول متأهبة فيه لأن تفكر فى إمكانيات المواهب الطبيعية قبل أن تفكر فى العوامل الخارقة .

وأول اسم يذكر بين هؤلاء المكفوفين المشهورين هو نيقولا سوندرسون (Necholas Saunderson) الذى كان يمكن أن يبرز بين أية مجموعة من الناس فى أى عصر . وقد ولد سوندرسون (Saunderson) فى انجلترا سنة ١٦٨٢ وكان موضع عناية خاصة فى تعليمه وأظهر ذكاءاً نادراً فى العلوم الرياضية لدرجة أنه عين أستاذا للرياضة فى جامعة كامبردج بناء على تزكية السير إسحاق نيوتن الذى كان يشغل نفس الكرسى فى الجامعة . وكان هذا التعيين فى وقته أعجب مما لو زكى اينشتاين فى أيامنا هذه كفيفاً ليحل محله فى جامعة برنستون . وأصبح سوندرسون أحد المبرزين فى توضيح علم الطبيعة النيوتنية . وترك وراءه وسيلة تفوق كل تقدير لتعليم المكفوفين ، وكانت ساذجة ومرت بعدة تعديلات ، فبوساطتها استطاع المكفوفون أن يتعلموا الحساب . وكانت تتكون من لوحة بها مجموعات من الثقوب عدد كل منها تسعة ، ويضع فى كل

ثقب عاموداً صغيراً من الخشب يدل على عدد . وبهذه الوسيلة كان المكفوف يحل مسائل فى الجمع والطرح والضرب والقسمة .

وكان جون متكاف (John Metcalf) معاصراً لسوندرسون ولكنه كان من طبقة اجتماعية مختلفة . فقد متكاف بصره وهو فى السادسة من عمره ، ولكنه عاش عيشة عادية لدرجة يصعب تصديقها . كان قوى الجسم فتعلم الركوب والعوم . وانضم للجنود الملكيين وشاهد الحرب فى كالودين (Culloden) . كان يصمم الكبارى ويشرف على إقامتها واشترك فى مقاولات بناء الطرق وكان أول من استخدم الحجارة المجروشة لهذا الغرض .

وكانت هناك قصة مشهورة يرويها عنه الأدب الملهم لتشجيع من يفقدون البصر . قيل إن متكاف كان معتاداً أن يتخذ طريقاً معيناً فى إحدى الغابات . وذات ليلة وجد غريباً ضالا فتطوع أن يقوده إلى حيث أراد . ولم يدرك الغريب أن متكاف كان كفيفاً إلا بعد أن وصل إلى حانة فى آخر الطريق ، وعندئذ قال : لو علمت أنك على هذه الحال لما ائتمنتك على نفسى ولو دفعت لى مائة جنيه .

وكان بين المكفوفين المشهورين أيضاً يوحنا ستانلي (John Stanley) الذى ولد سنة ١٧٣١ وحاز درجة بكالوريوس فى الموسيقى وعمره سبع عشرة سنة مع أن العلامات الموسيقية البارزة لم تكن

معروفة في وقته ، وقد قام بقيادة فرقة تعزف موسيقى هاندل فى حفلاته الأولى بلندن وحاز لقب الأستاذ الملكى للموسيقى .

وهناك من الجنس الآخر ماريا أريزا فون بارادى التى ولدت فى فيينا سنة ١٧٥٠ وفقدت بصرها فى الثالثة من عمرها ، وأهمل تعليمها حتى اكتشفت موهبتها الموسيقية فى السابعة من عمرها ، فاهتم بها والداها ودرست الموسيقى على يد أستاذ فهم مشكلتها فأظهرت مقدرة نادرة حتى نالت شرف العزف فى كنيسة البلاط وهى فى الثانية عشرة من العمر ، وقد أجرت عليها الامبراطورة معاشاً لتمكنها من إتمام تعليمها . أما عن شخصيتها الاجتماعية فكانت متزنة ، لطيفة ، تبتهج بصحبة الغير ، وقد اخترعت ورق اللعب للمكفوفين ، وكانت تلعب لعبة خاصة بها ، وكانت مولعة بالسفر وإقامة حفلات موسيقية فى باريس وبرلين .

وهناك مكفوف ألمانى ينتمى لطبقة اجتماعية مختلفة يدعى « فايزنبرج » (Weissenburg) ولد فى مدينة مانهايم سنة ١٧٥٦ ، وقيض الله له مدرساً اسمه كريستيان نيسين (Chrstian Niessen) أحرز نجاحاً عظيماً فى تعليمه مستخدماً شتى الوسائل ومن بينها لوحة ساندرسون . ولم يقف فايزنبرج عند حد تعلم القراءة والكتابة والحساب فحسب بل كان له إلمام كبير بعلوم الرياضة والطبيعة أيضاً .

هؤلاء وغيرهم استرعوا اهتمام المفكرين فى عصرهم . وكان منشأ

اهتمام ديدرو (Diderot) أحاديثه مع كفيف يدعى « لونوتر » (LeNotre) الذى أثار دهشته بعدم تأثره من فقده نعمة البصر . فقد سأل ديدرو (Diderot) لونوتر (Le Notre) عما إذا كان لا يرغب حقاً فى التمتع بالبصر ، وكان الجواب أنه يفضل تقوية الحواس الأخرى وبخاصة حاسة اللمس .

وهناك صفة هامة يتصف بها المكفوفون ، وهى أنهم يميلون إلى أن يساعد الواحد منهم الآخر — وتبادل الشعور هو الذى أدى إلى تكوين مجموعات منهم فى بادىء الأمر ، ويبدو أن جماعات المكفوفين تستمر حتى بين الذين لا يجتمعون كثيراً مع غيرهم . لقد كانت فون بارادى (Von Paradis) تهتم اهتماماً زائداً بأحوال المكفوفين أمثالها ، وكانت فى باريس عند ما بدأ هوى (Hauy) عمله ، ولا شك أنه تأثر كثيراً بالفارق العظيم بينها و بين المكفوفين الآخرين المنتشرين فى شوارع باريس . فأخذ يتحدث إليها ويسألها عن طريقة تصرفها بالتفصيل . وإنه لمن المؤسف أن اختراعها ورق اللعب البارزه ، بأن جعلت فى كل ورقة عدداً من ثقوب بالدبوس ليدل على قيمتها ، لم يؤد إلى اكتشاف طريقة الكتابة بالنقط البارزة وقتذاك . وبالطبع لم تكن بارادى تعرف كيف تقرأ إلا بطريقة الحروف البارزة ، وأما كتابتها فلم يكن يقرأها إلا المبصرون . وألحت « بارادى » على «هوى» أن يدرس مشكلة فايزنبرج (Weisenburg) . ويظهر أن تأثير «بارادى»

على « هوى » جعله يهتم كثيراً بالموسيقى . كما كان لها تأثير عميق على كلين (Klein) الذى تأثر أيضاً بالشاعر برجوفر (Berghofer) .

ولقد كان هوى بلا شك مخترعا وعبقريا ، إذ أدخل كثيراً من التحسينات الواضحة على ما استمده من المكفوفين من الطبقة الراقية الذين أمدوه بكل العناصر الأساسية . وهو لا يمثل العالم المبصر الذى يرى ما وراء الاعتقاد القديم بعدم قدرة الإنسان على فهم عمل العقل البشرى دون بصر . بل إن كلين ظل واقفاً عند حد العناصر الأساسية التى وصل إليها المكفوفون إلى ذلك الوقت .

ويمكن القول دون الغض من قدر كلين أنه بدا أكثر تقدما فى نظرته للأمور من المشهورين من أسلافه من الناحية الجزئية على الأقل لأنه جاء بعدهم بخمس وعشرين سنة واستطاع أن يلمس بعض الأخطاء فى العمل الذى أنشأوه . إن هاو مزيج عجيب ، فقد رفض طريقة برايل واتبع فى تعليم لورا بردجمان (Laura Bridgman) طريقة مبتكرة تماما .

وإذا بدا أننا نصر على أن المكفوفين ، لا المبصرين ممن خصصوا حياتهم لخدمة المكفوفين هم الذين يرجع إليهم الفضل فى تقدم وسائل تعليم المكفوفين ، فليس ذلك لأننا نريد مجرد إثبات نقطة من الناحية الأكاديمية ، بل لأن هناك نتائج هامة خاصة بموقف

المكفوفين اليوم تتوقف على فهم القوى التى كانت تعمل وقتذاك . وقد يتضح الشىء الكثير إذا نحن نظرنا الآن إلى التطور العجيب للأحداث بعد سنة ١٧٨٤ .

معركة الكتابة بالنقط البارزة

إن المدارس والمعاهد الأخرى المعنية بتحسين حال المكفوفين منذ نشأتها كشفت عن سيكلوجية عجيبة . فكل منها سارت بمعزل عن الأخرى واحتفظت بسرية أسلوبها التعليمى . . إن ملاحظتنا عن أن حركة «هوى» ترجع إلى الروح العلمية العامة التى كانت تؤثر فى ذلك العهد يؤيدها الواقع ، ذلك أن المدارس الناشئة لم تسر على هدى البحث العلمى وتبادل المعلومات ونتائج الأبحاث ، ولما عاد «هاو» سنة ١٨٣٢ من جولته التفتيشية للمدارس الأوربية أفضى بتعليقات غير مرضية عنها فقال عن معهد باريس ، وهو أهمها ، ما يأتى :

« هناك محاولة سخيفة نحو الغموض ـ محاولة تؤثر الاستعراض والمظهر ، وهى تضر بالمؤسسة عند أولى الألباب . والقائمون عليها يبقون خطة التعليم بلا إيضاح ويحتفظون بالسرية التامة فيما يتعلق بتركيب بعض الأدوات بدلا من أن يفتحوا باب المعرفة على مصراعيه ويشجعوا كل محب للإنسانية على الفحص وتقديم الاقتراحات . إننا نقول بما رأينا بأنفسنا » .

لقد كان الشعور العام أن الحروف الرومانية لا تصلح ، ولكن نشأ من إصلاح الخطأ الأساسى ، بالابتعاد عن فكرة نقل شكل الحروف ومعناها ، أن أجرى الأفراد تجارب فى معاهد مختلفة على تعديل الحروف الرومانية واستنبطوا حروفاً جديدة على نفس القاعدة القديمة . ففى بريطانيا وحدها قبل إدخال الكتابة بالنقط ، كان هناك على الأقل تسع طرق لكتابة الحروف وذلك حوالى سنة ١٨٧١ ، منها نوع اخترعه الدكتور وليم مون (William Moon) كان يستعمل فى ٣٨ معهداً ، وسبعة معاهد كانت تستعمل حروف لوكاس (Lu cas) وأربعة تستعمل النوع الرومانى القديم ، وأربعة تستعمل حروف الستون(Alston) ، وثلاثة تستعمل حروف فرير (Frere) . وكل معهد كان يعتقد عن يقين أن طريقته تقدم الحل الشامل لمشكلة القراءة ، ولكنه فى نفس الوقت كان يحول دون انتشارها . وأدى ذلك بالطبع إلى اليأس من طبع كتب عامة ينتفع بها المكفوفون جميعاً طالما اختلفت طرق الكتابة . لذلك وضع كل معهد كتبه الخاصة باليد . ولما اخترعت كتابة الحروف بالنقط لم تحل المشكلة ولم تزل الخلافات ولكن صارت الحال أسوأ مما كان . لقد رأينا كم من الوقت استغرقت هذه الطريقة لتحل محل الطرق القديمة ، ويقول الينجورث (Illingworth) :

لقد قوبلت هذه الطريقة بمعارضة شديدة من جانب جمعيات التعليم المنزلى فى اسكتلندا بنوع خاص .

فى سنة ١٨٦٨ اختبر وليم ويت (William Waite) من معهد نيويورك قدرة التلاميذ الذين ظلوا زمناً طويلا فى المدارس الأمريكية على القراءة فوجد أن ثلثى التلاميذ الذين تعلموا بطريقة الحروف القديمة لايمكن أن يقال عنهم إنهم يقرأون على الإطلاق بينما كل التلاميذ الذين كانوا يتعلمون فى المدرسة الوحيدة التى كانت تستخدم طريقة النقط استطاعوا القراءة بسرعة . وعقب ويت على ذلك بالقول : « من الواضح أن هناك خطأً ما » . وبالرغم من كل هـذا لم يقبل الناس استخدام الطريقة الجديدة إلا بعد مرور عشر سنين أخرى . فالانقسام والعزلة وهما الصفتان اللتان تتصف بهما معاهد العميان إلى اليوم كانتا فى سنة ١٨٦٥ من بين الخصائص البارزة فى الميدان .

وفى بريطانيا اهتم المكفوفون أنفسهم بالأمر ، وبروح تذكرنا بجمعيات المكفوفين القديمة ، تكونت جمعية المكفوفين البريطانية . وكان الدكتور توماس رودز ارمتاج (Thomes Rhodas Armitage) ، وهو موجه نشاطها سنين كثيرة يعارض بمرارة تدخل المبصرين فى العمل لأجل المكفوفين .

يقول فرنش (French) فى هذا الصدد : كان ارمتاج بنوع خاص ينظر إلى تحكم المبصرين فى معاهد المكفوفين على أنه أحد الأسباب الرئيسية لاختلال الأحوال فى تلك المعاهد . ومع أن الجمعية التى كونها كانت ترحب بالمبصرين كأعضاء فإن المجلس التنفيذى كان لابد من تكوينه من أشخاص يستعملون حاسة اللمس فى القراءة . وأما فيما يتعلق بالحروف التى تستعمل فى القراءة فقد قررت الجمعية أن المكفوفين وحدهم هم الذين يقررون ماهو صالح لهم .

إن المفاضلة بين الطرق المختلفة يجب أن تبنى على أساس معرفة مباشرة لاعلى أساس آراء نظرية يبديها المبصرون الذين يجب ألا يعتمد عليهم . ولذلك درست الجمعية الطرق المختلفة واختارت من بينها طريقة مون لأن الذين يفقدون البصر وهم كبار ، كثيراً مايتعذر عليهم تكييف أنفسهم وفق طريقة النقط ويحتاجون إلى نوع مألوف من الحروف . أماللاستعمال العام فقد اختارت الجمعية بعد البحث الدقيق طريقة لويس برايل دون تغيير تقريبا .

ومع أن الجمعية لم يعترف بها رسمياً إلا أنها كان لها من قوة الرأى ما مكنها من إدخال طريقة برايل فى أربعة معاهد على الأقل حتى سنة ١٨٦٩ .

وفى أمريكا حدث تقريباً نفس الشىء . تكونت جمعية من المكفوفين المكافحين واتحدوا على إقصاء المبصرين وعملوا بقوة على

إصلاح الحال . على أن تاريخ الحركة فى أمريكا يدور حول ظروف عجيبة . فعندما قبلت المعاهد المختلفة استعمال طريقة برايل أثارت الطريقة نفسها خلافاً كثيراً شبيها بما أثير حول استعمال طريقة الحروف قبلا ، إذ أصرت المعاهد على إدخال تعديلات تتفق وآراءهم الخاصة وتمسكوا بهذه الآراء بكل عناد .

وبالرغم من أن وليم ويت (William Waite) هو الذى اكتشف صلاحية طريقة برايل ، فإنه لم يقدم على استعمالها بل أقدم على تغييرها وذلك بجعل مجموعة الحروف الستة فى وضع أفقى بدل الوضع العمودى ، علاوة على ما أدخله من تغييرات أخرى . وكان برايل قد اخترع طريقة قابلة للتعلم ولكنه لم يأخذ فى اعتباره مقدار تكرار الحروف فى اللغات الأوروبية الأساسية ، فجاء ويت (Waite) وعالج هذه النقطة وأصبحت طريقته تسمى « نقطة نيويورك » . إلا أنه حدث بعد ذلك تغيير آخر ، وهذا التغيير قام به يوئيل سميث (joel Smith) بمعهد بيركنز ، الذى أدخل تعديلا إضافياً على طريقة برايل فأصبحت تسمى طريقة برايل الأمريكية .

أوقعت هذه الحالة بيوت الطباعة فى حيرة وارتباك ، وقد زاد الأمر تعقيداً أن مدارس المكفوفين الداخلية كانت تستقدم مربين أوروبيين ، وهؤلاء أحجموا عن استخدام الطريقة الأمريكية ونقطة نيويورك على السواء وأصروا على طريقة برايل دون تعديل .

وفى سنة ١٨٩٥ انقسمت الولايات المتحدة إلى معسكرين : معسكر يستعمل « نقطة نيويورك » ويشمل ولايات نيويورك وأوهايو وكارولينا الشمالية ، وآخر يستعمل طريقة برايل الأمريكية ويشمل باقى الولايات وفى مقدمتها ميسورى . ومقابل هذين المعسكرين كانت المدارس التى تمسكت بطريقة برايل الإنجليزية وهو الاسم الذى أطلق عليها فى القارة الأوروبية .

ويصف ا. ه. بوريت (O. H. Burritt) الموقف فيقول : إن الصراع كان حاداً ومرارة الخصومة فوق التصور . فالمربون اتخذوا موقفاً لا يتسامحون فيه ، إذ رفضوا التفكير فى إجراء التجارب كوسيلة للتحكيم ، وقرر المكفوفون المرة الثانية أن يحلو مشكلتهم بأنفسهم .

وفى سنة ١٨٩٦ كونوا جمعية المكفوفين للتعليم العالى والإصلاح العام ، وأقصى المبصرون عنها . وكان أعضاؤها مثل إخوانهم البريطانيين يريدون أن يحلوا مشاكلهم عن طريق التجارب . ولم يكن المربون منظمين تنظيما حسناً . ولقد حاول هاو أن ينظمهم فعقد لهم اجتماعاً فى سنة ١٨٥٣ ، إلا أن روح التشاحن الذى كان يسود أوروبا تسلط وحال دون التكوين النهائى للجمعية

الأمريكية لمعلمى المكفوفين حتى سنة ١٨٧١ ، وقد ساعد على اتحادهم نوعا ما وقوف المكفوفين أمامهم صفا واحداً فى جمعية الإصلاح العام ، إلا أن اتحادهم لم يكن عن طيب خاطر ، ففى اجتماعهم السنوى الذى عقد فى سنة ١٩٠٤ احتدم الجدل حول موضوع طريقة برايل لدرجة أنه على أهميته لم يدرج فى جدول أعمال الاجتماع التالى .

واستمرت المعركة ناشبة بين المبصرين والمكفوفين الذين يعملون فى هذا الميدان أحد عشر عاماً . وفى سنة ١٩٠٥ اقتنع جانب من المكفوفين بأن القيود التى وضعوها على قبول أصدقائهم المبصرين فى الجمعية لاينجم عنها إلا الضرر فى آخر الأمر . ففى تلك السنة حطموا القيد واتفقوا على أن يكونوا الجمعية القائمة الآن المسماة بالجمعية الأمريكية للعاملين من أجل المكفوفين وكان ذلك فى الاجتماع الذى عقد فى ساجينو بولاية متشجان .

إلا أن مسألة نوع الحروف التى تستعمل لم تهمل ، وكانت التجارب قد أجريت لمدة ثلاث سنوات بميزانية تقل عن مائتى ريال ، ولكن قامت صعوبة جديدة . لنفرض أن إحدى الطرق الأمريكية اتفق عليها الجميع فماذا عن الطرق البريطانية الأخرى ؟ إن طريقة برايل البارزة باهظة التكاليف والمكفوفون فى حالة من الفقر

لا تشجع على رفع ثمن كتبهم ، علاوة على أن تبادل الكتب بين أمريكا والمملكة المتحدة ذو نفع عظيم لكلتيهما ، ويجدر بهذه المناسبة أن نذكر أن الجمعية التى أسسها ارميتاج مع بقية بريطانيا أصبحت محافظة بقدر ماكانت معادية للمحافظين ، إذ لم تكن بريطانيا لترضى عن الطرق الأمريكية أو أن تقوم بتجارب لإثبات قيمتها ، وكان لابد إذن من عقد مؤتمر دولى ولكنه لم يعقد إلا فى سنة ١٩١٤ فى لندن .

أما الأبحاث التى قدمت فى المؤتمر فقد احتفظ بها لأنها تناولت كثيرا من المسائل التى تؤثر فى حياة المكفوفين فى العالم أجمع ، وكان السبب الأساسى فى عقد المؤتمر الحاجة الماسة إلى اتفاق على توحيد الحروف البارزة التى تستعمل ، ولم يكن الخلاف مقصوراً على الولايات المتحدة وبريطانيا وحدهما ولكنه شمل أيضاً كثيراً من البلدان الأوربية الأخرى .

وحضر المؤتمر وفود رسمية ممثلة لثلاثين دولة تقريباً من بينها روسيا وبلاد أخرى كثيرة من الشرق وأمريكا الجنوبية ، ولكن ألمانيا لم تكن ممثلة فى ذلك المؤتمر بسبب الاضطرابات وقتئذ ، وقد وقف مندوب الولايات المتحدة يناشد المؤتمر قائلا : هلا استطاع هذا المؤتمر أو هيئة ممثلة له أن تفعل أقل ما يمكن أن يطلب منها ألا

وهو تعيين لجنة تشاور مع لجنتنا لتريا إذا كان من الممكن الوصول إلى أساس للاتفاق ؟ فعقب « بيروز » المندوب الفرنسى قائلا : إنه إذا قبلت التعديلات لوجب على كل أوروبا أن تقبلها أيضا ، وأيده فى هذا مندوبا بريطانيا واسكتلندا . ولكن هذا القبول لم يبد محتملا . وكان على الأمريكيين أن يسيروا فى الركب إذا لم يريدوا أن ينعزلوا عن غيرهم من الأمم الأخرى . وسلمت أمريكا فى آخر الأمر ، ولدينا الآن طريقة لبرايل مليئة بالأدلة القوية على حدوث تعديلات يدركها كثير من الطلاب لأول وهلة . إلا أن هناك بعض المعارضين الذين لم يتعلموا الطريقة الجديدة واكتفوا والحالة هذه ببعض المجلات والكتب التى تطبع على طريقة نيويورك . كما لا تزال بعض الكتب تطبع على طريقة مون إلى الآن .

الديموقراطية والمكفوفون

إذا كنا نستطيع أن نخرج بنتيجة واضحة من هذا البحث التاريخى فهى هذه : إن العمل لأجل المكفوفين لايمكن أن ينظر إليه كميدان العلاقة فيه كتلك التى تقوم بين الوصى والقاصر ، أو

بين الطبيب والمريض أو بين الحارس وما وضع تحت عنايته . لقد قام النزاع دائما بين المكفوفين ومديرى معاهدهم كلما بدأ الأخيرون يظنون فى أنفسهم أنهم هم وحدهم الذين يقررون ما فيه مصلحة المكفوفين . فالأحداث المتعلقة بتطورات طريقة برايل كان لها ما يقابلها فى بلاد أخرى ، وفى أوقات أخرى كانت المشكلة هى بعينها ما إذا كان يحق للمكفوفين أن يتصرفوا فى شئونهم بأنفسهم . ومن الواضح أنه مع حاجتهم إلى أصدقائهم المبصرين فإنهم هم الذين أثاروا المشكلة .

والنقطة الهامة فى فهم تاريخ هوى ليست هى كونه مبصراً رأى إمكانيات فى المكفوف لم يرها إلا القليلون قبله ، بل كونه مبصراً رأى أن ما استطاع بعض المكفوفين أن يحققوه لأنفسهم يمكن إقناع الباقين بتحقيقه . وهناك الآن مراقبون فى ميدان العمل بين المكفوفين فى كل أنحاء العالم يصرحون دون مواربة أن معظم الآراء التقدمية والتطورات التى حدثت جاءت عن طريق المكفوفين أنفسهم . على أنه مهما كانت رغبة المكفوفين فى أن يتولوا أمورهم بأنفسهم ، ومهما بلغت مظاهر قدرتهم كأفراد على أن يكونوا نافعين منتجين ، ومهما كانت المعونة التى يقدمها أقوى الأصدقاء والحماة ، مهما كانت هذه فإنها ما كانت تكفى لأن يصبح المكفوفون طبقة لها شأنها دون تغيير ملائم فى موقف الناس حيالهم .. إننا نعرف أن

أفراداً من المكفوفين ذوى مواهب عظيمة رفعوا شأن أنفسهم قبل سنة ١٧٨٤ . ولكن السؤال الآن هو : بأى نوع من التغيير الاجتماعى أمكن ظهور المكفوفين كطبقة ؟

فى مؤلف سابق قدم الكاتب فكرة مؤداها أن التقدم الذى أحرزه المكفوفون فى العالم الحديث كان يسير مع الثورة الصناعية ، على أنه اعترف فى نفس الوقت بأن الصناعة حتى يومنا هذا لم تستخدم المكفوفين بدرجة تذكر . ونستطيع الآن أن نبين إلى أى مدى كان الكاتب صائباً فى رأيه ، لأن أبرز ظاهرة فى تتابع الحوادث مثلا هى بطء بريطانيا موطن الثورة الصناعية فى تشغيلهم قبل غيرها .

إن بريطانيا ، تحت أى الظروف ، كان يجب أن تكون فى مقدمة الدول التى تهتم بصالح المكفوفين ، أو بعبارة أصح ، كان يجب أن تعترف بجهود المكفوفين الذين عملوا على رفع إخوانهم من حالة البؤس والانحطاط التى كانوا فيها قبلا . ذلك لأن بريطانيا موطن التهذيب ، ومصدر كثير من التفكير الثورى الذى ظهر أثره فعالا فى فرنسا . إن بريطانيا ، أم الولايات المتحدة ، فقد كان يجب أن تكون فى طليعة الآخذين بيد المكفوفين لو كانت القوة الأساسية فيها للعلم والتربية . ولقد كان فى بريطانيا أكبر عدد من المكفوفين المشهورين فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر نذكر منهم

سوندرسون ومتكاف وستانلى وبلاكلوك (Blacklock) الشاعر ، وهؤلاء لم يثيروا الشعور العام بأن غيرهم من المكفوفين يمكن السمو إلى ما وصلوا هم إليه .

إن جو بريطانيا الاجتماعى لم يكن ليساعد رشتون (Rushton) ومعاصريه على السير بمعاهدهم إلى أبعد من تعليم أبسط المهارات الصناعية . أما أسبانيا فقد سبقت بريطانيا فى هذا المضمار بأربعين عاما حين قبل معهدها التعليمى الرأى القائل بأن المكفوفين فى مقدورهم أن يتقدموا ثقافياً . وأما فى المستعمرات فيمكن استنتاج الحالة هناك من قول واج (Wagg) إن طريقة برايل لم تصل إلى استراليا إلا فى سنة ١٨٨١ بعد اختراعها بخمسين سنة .

إن النظريات الاقتصادية التى توضح أسباب التغير السريع فى حالة المكفوفين بعد سنة ١٧٨٤ ليست صحيحة إجمالا ، فقد قيل إن حاجة العالم المتزايدة إلى الأيدى العاملة كانت السبب . حقاً إن أمريكا فى وقت « هاو » كانت فى حاجة إلى مزيد من الأيدى العاملة حتى ولو كان ينقصهم البصر . ولو درسنا الجانب الأمريكى من التاريخ فقط لملنا إلى قبول الفكرة الاقتصادية على أنها كل السبب فى التغير . إلا أن هذه الفكرة لا تنطبق على فرنسا التى لم تكن فى حاجة إلى أيد عاملة . كذلك لا يمكن تطبيقها على روسيا مع أنها كانت تنقصها الأيدى العاملة .

نخلص من هذا إلى أن الباحث يجب أن يفتش عن عامل اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى أو الثلاثة مجتمعة لينطبق على فرنسا وأمريكا وإلى درجة أقل على بريطانيا . إن عاملا كهذا يسهل العثور عليه ، إنه الثورة ، فعندما أسس هوى مدرسته كانت فرنسا على حافة الثورة ضد النظم السياسة والاجتماعية القديمة وكانت أمريكا أيضاً فى وقت هاو مشغولة بالتخلص من التقاليد البالية .

فالثورتان الفرنسية والأمريكية قامتا للمطالبة بحقوق الإنسان فى الحرية والمساواة . وفكرة احترام الشخصية هى التى كانت تغذى الفلسفة الشائعة فى كل من الثورتين . وفى هذا الجو الذى كان العنصر السائد فيه تحقير الماضى بما فيه من فروق طبقية ، برز المكفوفون على المسرح بعد ماض طويل من خمول الذكر وحقارة الشأن وسيادة النظام الطبقى بكل مساوئه ، برزوا وطالبوا ، كل حسب مواهبه ، بأن يحتلوا مكانهم فى المجتمع ، وقد كان هذا جوهر قضيتهم .

ويبدو لنا أن هذا هو طابع الأحداث فى ذلك الوقت . ويتضح ذلك من قول جلبوا فيما كتبه عن معهد باريس حيث قال « لقد أفاد دائما من حرموا نعمة البصر من نتائج الثورات ، وإن أتت الفائدة بطيئة فى بعض الأحيان » .

لقد رأينا أن هوى وهاو لم يكونا مربيين ولكنهما كانا ثوريين

بمعنى الكلمة ، وهذا هو ما جمع بينهما . وفى الواقع كان هاو مثيراً للفتن إذ أنه ساعد اليونان فى جهادها لنيل الحرية . وكذلك كان يختلط بالأوساط التى أمدت الثورة الفرنسية بقادتها . وينبغى أن نلاحظ هنا أن « هوى » لم ينجح فى روسيا القيصرية بالرغم من صيته الذائع ومن الاحترام الذى كان يكنه الروس للمربين الفرنسيين ومن الرعاية التى شملها بها الإمبراطور مجهود «هوى» . وأما السبب فى فشل « هوى » فهو كما ذكرنا سابقاً عدم اعتراف الروس بالنفع الذى يعود على المكفوفين من تعليمهم ، أو بعبارة أخرى عدم اعترافهم بأحقية المكفوفين فى أن يحتلوا مكاناً فى المجتمع .

أما فى بريطانيا فلم يكن للثورة صدى كبير فيها . فالشعور بوجوب التغيير الاجتماعى والسياسى كان ينمو ببطء . ولذا سبقتها أمريكا فى منح الحريه للمكفوفين . وتعترف بهذا دائرة المعارف البريطانية طبعة سنة ١٨٧٨ وبشىء من الأسف .

إن معاهد المكفوفين فى أمريكا ليست ملاجىء ولكنها فى أدق معنى مؤسسات تعليمية يحصل فيها المكفوفون على تعليم كامل بغض النظر عن مستقبلهم . ومستوى المكفوفين فى أمريكا أعلى منه فى أى بلد آخر . فعدد كبير منهم يصبحون علماء وموسيقيين مشهورين ، وحتى العمال منهم يتمتعون بقدر من الرفاهية غير معروف فى إنجلترا أو فى القارة الأوربية .

وجدير بالذكر أيضاً أن المكفوفين فى المانيا لم يتذوقوا طعم الحرية الاجتماعية قبل نهضة سنة ١٨٤٨ . وبعد التخلص من تقاليد الماضى فى ألمانيا فى أعقاب الحرب الأولى تحت حكم جمهورية فيمار طالب المكفوفون بالاستقلال الاجتماعى والاقتصادى ونالوه . فى أثناء تلك الفترة ولدت حركة الكلاب المرشدة كنتيجة مباشرة لطلب المكفوفين الاستقلال والمساواة .

وإذا عدنا إلى روسيا القيصرية وجدنا أنها حتى سنة ١٩١٤ لم يكن بها إلا أحد عشر معهداً صغيرا للمكفوفين ، مع أنه فى سيبيريا الشمالية الشرقية أكبر عدد من المكفوفين فى العالم بالنسبة لعدد السكان . ولكن بعد تكوين الاتحاد السوفييتى تألف مجلس للمكفوفين وأنشئت على وجه السرعة معاهد خاصة [٣٢] .

على أن أشهر مؤتمر للمكفوفين عقد سنة ١٩٤٩ فى بريطانيا الناهضة اجتماعياً وتكللت اجتماعاته فى أكسفورد بإعلان ماسمته الصحافة « قرار حقوق المكفوفين » .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المجتمع إذا أراد العودة إلى النظام الطبقى بعد فترة تقدم اجتماعى وسياسى ، فإن النكسة تصيب المكفوفين بشدة .

ويجب أن نذكر هنا أنه لا ينبغى الخلط بين ما نقصده من حديثنا عن مصلحة المكفوفين وبين عدد المعاهد التى تأسست لرعاية هذه المصلحة ، لأن هذه المعاهد بلغت أكبر عدد وأحسن تنظيم فى أمريكا ، ولكن فى الأجزاء الأمريكية التى عادت على مر السنين إلى التمييز بين الطبقات سلبت من المكفوفين بعض حريتهم ، وزاد اعتمادهم على الإحسان فى صورة ما لكى يستطيعوا متابعة الحياة .

على أن المعنى من هذا واضح لمكفوف اليوم . « فمصلحته كشخص تقع مع أولئك الذين يتمسكون بشدة بحقوق الفرد وتخلصه من مساوئ التعصب الطبقى ، وقدرته على الاحتفاظ بمكانته كمواطن يؤدى خدمة للمجتمع تعلو وتنخفض تبعاً للروح الديمقراطية السائدة . ويمكن الإشارة فى هذا المجال إلى العلاقة الكائنة بين المكفوفين وبين الأقليات التى وصلت فى تاريخها الطويل إلى حالة الذلة والمسكنة . ونجد هذه العلاقة وثيقة فى مثل هذه التعبيرات : ملجأ المكفوفين ، حى اليهود ، عشة العم توم ، (سكن العبيد) ، فكل هذه أساليب للعزل والإقصاء ، وبالتالى لجعل الحالة متعذرة العلاج .

هناك مكفوفون اليوم يشعرون بأن الاندماج فى المجتمع إنما هو حديث خرافة . على أنه ما من أحد ولو فى أكثر المجتمعات استمتاعاً بالحرية يستطيع أن يضمن الاندماج الكلى للكفيف أو

لأى شخص آخر . ذلك أن حوادث سنة ١٧٨٤ لم تمنح الكفيف بعد طول الزمن شيئاً أكثر من جواز لدخول المجتمع ، أى جواز يقدمه بنفسه حتى يقبل ويكرم ، ويبقى عليه بعد ذلك أن يثبت وهو يطلب مكانه فى هذا المجتمع أنه قادر على أن يحتله . ومن المسلم به أن المكفوفين يواجهون صعوبة فى هذا السبيل أكثر من سواهم ، وأن المجتمع لا يزال يشعر بأنه من الأوفق أن يمدهم بالإحسان الذى أصبح بحكم العادة طوال أربعة آلاف سنة أمراً إرغاميا ، لا أن يعترف لهم بقدرتهم على أن يصيروا مواطنين من الطراز الأول .

ولهذه الأسباب يتوق بعض المكفوفين إلى إيجاد مخرج من هذا المأزق ، ويعملون على تكوين طبقة خاصة بهم ينتمون إليها . ولكن يجب على من يذهبون هذا المذهب فى تفكيرهم أن يدرسوا تاريخ أسلافهم ، وعلى ضوء الماضى وحده يستطيعون أن يحكموا على مقدار الامتيازات التى حصلوا عليها فى الوقت الحاضر .

الفصل الخامس

فكرة الفراغ

إدراك المبصرين :

فى سنة ١٧٤٩ أفصح ديدرو عن ثلاثة آراء جريئة مبنية على مجرد الحدس والتخمين . أما الرأى الأول فيقول إن حواس الكفيف لا تزداد حدة بصفة خاصة بسبب فقد البصر ، ولكن فقد إحدى الحواس يحتم يقظة زائدة من جانب الحواس الأخرى . وأما الرأى الثانى فهو أن تعليم الكفيف يجب أن يقوم على أساس الحواس الباقية ، لا على أساس المفقود منها . وأما الرأى الثالث فؤداه ، أن الكفيف الأصم الأبكم يمكن تعليمه عن طريق اللمس .

ويستعيض الإنسان أحياناً عن الخرافات بأخرى حديثة إذا كان ترك القديم يحدث غموضاً يصعب على الإنسان جلاؤه ، ومن الخرافات القديمة الزعم القائل إن الكفيف لا يفهمه إلا كفيف مثله . وهذا الزعم قد يوجد حقائق منها أن من يولد دون بصر

يمكن أن يحصل على جوانب شتى من المعرفة ، كما يمكنه أن يتعلم التمييز بين الأشياء المجردة حتى فيما يتعلق بالفضاء والعمق . وإذا ما أوضحنا أن « هوى » وغيره من قدامى المربين فضلوا الاستعانة بالمكفوفين فى أيامهم بدلا من العلماء والفلاسفة فإننا لا نقصد تأييد مثل هذا الاعتقاد الجديد . ذلك أن عجز المبصرين عن فهم مشكلة المكفوفين يجعل قضيتهم ميئوساً منها فى هذا المجتمع أو فى غيره من المجتمعات . وليس هناك أية مغالاة إذا قلنا إن الناس بصفة عامة لا يفهمون كيف يتصرف المكفوفون ، فإن التجارب التى يمر بها الكفيف يوماً بعد يوم تبين أن قلة من الناس فقط هى التى تفهمه ، وإنه لصحيح أيضاً أنه فى سبيل السعي للنهوض بقضية المكفوفين ، لتسير جنباً إلى جنب مع التقدم الاجتماعى العام ، قام خلاف بين العاملين فى حقل خدمة المكفوفين ، ونشط العاملون المكفوفون ليحولوا دون رجوع بعض المبصرين بالعمل إلى الوراء .

ولقد سبق ديدرو عصره فى آرائه بما يتراوح بين ١٧٠ ، ٢٠٠ سنة . فرأيه الأول الخاص بالعلاقة بين فقد البصر وحدة الحواس تؤيده النتائج التى وصل إليها علماء النفس الحاليين عن طريق تجاربهم. وقد بدأ المربون يدركون أخيراً سداد رأيه الثانى الذى ينادى بتعليم المكفوف على أساس الحواس الأخرى المتبقية له .

أما رأيه الثالث فقد حققه هاو وغيره ممن أفلحوا فى تعليم

المكفوفين الصم والبكم . وكان عجز الناس عن إدراك ما فى آراء « ديدرو » من قوة دافعة لتعليم المكفوفين دليلا على مستوى تفكيرهم ، وعلى الخلط بين البصر والمخيلة والذهن ، فالبصر ، على حد تفكيرهم ، مساو للذهن وفقد البصر معناه فقد القوة على الفهم .

ويستطيع الإنسان أن يفهم وجهة النظر السائدة فى الوقت الحاضر مما نقتطفه من مقال وارد فى دائرة المعارف البريطانية « طبعة سنة ١٩٤٧) تحت عنوان « كف البصر » . فقد جاء فى هذا المقال : « لما كانت العين مصدراً للانطباعات أكثر من غيرها من الحواس ، كان فقد البصر مدعاة لفراغ العقل ، ولذا وجب البدء بتعليم الكفيف عاجلا وإلا خمل العقل . إن فقد البصر يؤدى بطريق غير مباشر إلى الجمود » .

ولهذا السبب كانت جهود المربين الأولى ترمى إلى ملء هذا الفراغ فى عقل الكفيف . وأصبحت المشكلة لديهم هى كيف يمكن توصيل الانطباعات التى يتأثر بها المبصر مما حوله إلى غير المبصر ؟ فكانت الوسيلة الأساسية استخدام الألفاظ الوصفية . وأما الوسيلة الثانوية فكانت اللمس وإن كان اللمس يجب أن يتفق مع المرئيات . فلجأ المربون الأول إلى الأحرف البارزة مع أنها تحمل المعنى لا الشكل .

وكانت المشكلة فى أساسها العجز عن فهم التنظيم العقلى للتكفيف وكان برايل أول من أقام الدليل على الفرق بين الإدراك البصرى والإدراك اللمسى . إلا أن العلم لا يزال عاجزاً عن فهم جزء كبير من المشكلة بما يملأ عقل الطفل المولود بلا بصر .

الهـــدم قبل البناء

فى مطلع هذا القرن تركز اهتمام علم النفس الآخذ فى النماء حول مشكلة الإدراك عند المكفوفين لدرجة أن معظم علماء النفس المشهورين ومن بينهم فاندت(Wundt)وجيمس(James)وماكدوجل (Macdougal) حاولوا المشاركة فى حل المشكلة . وبدا أن الحقل تربة خصبة للبحث وراء معلومات أكثر عن الحواس من وجهة عامة على أساس أن دراسة الأمراض تنتج معرفة يستفيد منها الأصحاء . وقد كانت هناك أكداس من المعلومات ينقصها البحث . وهذه المعلومات كانت حتى هذا الوقت مأخوذة على أنها قضايا مسلم بها لا تحتاج إلى نقاش . ذلك أن كتب التاريخ والأدب بالإضافة إلى شهادات المكفوفين أنفسهم قدمت لنا كثيراً من الأدلة على أن بعض المكفوفين بلغت حدة حاسة اللمس عندهم درجة مكنتهم من تمييز ألوان الأقمشة والأرقام المكتوبة على العملة الورقية .

وقرر كثير من المكفوفين أنهم عند اقترابهم من أجسام

تعترضهم فى طريقهم كالحوائط مثلا شعروا فعلا بانقباضات فى الجلد ، وبدا أن هذا القول يؤيد الاعتقاد بأنه فى حالة فقد البصر قد تتخذ حاسة اللمس شكلا بارزاً بطريقة ما . كل هذا دعا إلى البحث عن إيضاح لهذه المزاعم لأن البعض ذهب إلى حد القول إن بعض المكفوفين فى مقدورهم إدراك العقبات التى تعترضهم ، وحتى تقدير المسافات التى تفصلهم عن تلك العقبات . وكانت هناك حاجة إلى بحث ميكانيكا ما يسمى بالفراغ العقلى لدى المولودين مكفوفين من غير أن يحول هذا الفراغ دون عمل العقل نفسه .

وسرعان ما اتضح أن كل هذا لم يكن إلا تخيلات ابتدعها الإنسان لتفسير ماعسر عليه فهمه ، وكان لزاما أن تزال من الطريق حتى تتسنى الإفادة من تيار الفهم الصحيح عن طريق التنظيم العقلى .

ويحسن الآن أن نلقى نظرة موجزة على عملية الهدم التى قام بها علماء النفس ، وقد عالج هذا الموضوع الدكتور صموئيل هيز (Samuel Hayes) من معهد بركنز بطريقة تدعو إلى الإعجاب فيما كتبه تحت عنوان : « مقالات فى علم النفس للمكفوفين » .

إن أول نظرية تداعت أمام علم النفس التجريبى ، وإن بقيت لها بعض الآثار فى عقول العامة ، كانت تلك التى تقول بأن حواس

المكفوفين شديدة الحدة ، فكل ما كان يقال عن أولئك الكفيفين الذين يميزون بين القماش الأحمر والأسود ، ولون الخيول ، وأرقام العملة الورقية لم يكن إلا حديث خرافة أو من صنع مكفوفين دجالين .

والمكفوفون الصادقون الذين يؤمنون بهذه النظرية إنما يخلطون بين حدة الحس والزيادة فى الإدراك الحسى الناشىء عن زيادة الانتباه واليقظة . فنظرية التعويض كانت قياساً خاطئاً مستمداً من التحول فى حركة أجزاء الجهاز العضلى . وقد يبدو غريباً إذا نظرنا إلى الماضى أن نجد أن قليلين هم الذين لا حظوا أن البصر لا يزداد بانتظام فى حالة فقد السمع .

وأما عن بقية الحواس فقد ظل العلم مكتفياً بالمبدأ الذى وضعه الدكتور س . ا . سيشور (Dr. C. E. Seashore) فيما يلى :

« إن السنين الطويلة التى قضيتها فى العمل باحثاً أقنعتنى تدريجياً بأنه يجب أن يفرق الناس تفرقة واضحة بين قوة الحواس الموروثة والقدرة أو المهارة المكتسبة . ومن وقت لآخر كنت أقارن بين قوة حاستى اللمس والسمع عندى أنا شخصياً وعند بعض المكفوفين المشهورين بالقدرة على السير وحدهم معتمدين على استخدام حاستى السمع واللمس ، وفى كل الحالات التى قمت فيها بالمقارنة لم أجد حالة

واحدة زاد فيها صاحبها عنى فى حدة إحدى الحاستين زيادة نذكر » .

إن أقدم النظريات فى تربية الطفل المكفوف التى تقول إن الانطباعات البصرية يمكن نقلها عن طريق الحواس الأخرى كانت تسمى نظرية « إنابة الحواس » . وبنفس التفكير الذى أبقى على الحروف الرومانية زمنا طويلا مفضلا إياها على الطرق الحديثة ، كان كثيرون يصرون على أن الأطفال المكفوفين إذا ما قدمت لهم نماذج من أجسام فنية كالتماثيل مثلا ليلمسوها يمكنهم عن طريقها تصور الأصول التى تمثلها . وقد وجهت إلى هذه النظرية الهجمات الشديدة . فمثلا يقرر كتسفورث (Cutsforth) نتيجة اختباره الشخصى أن اللمس كثيراً ما يحمل إلى الذهن صورة مشوهة للمرئيات وأن هناك فرقاً فى التنظيم بين حاستى اللمس والبصر ، إلا أننا مازلنا نفتقر إلى إجراء تجارب إيجابية لنفهم تنظيم حاسة اللمس فهماً كاملا .

الوجه ندل العينين

لقد كان من المهم أن نعرف الحقائق الصحيحة عن كيفية إدراك الكفيف للفضاء والعمق ولوجود العقبات ، إذا كان لابد لطريقة

التكيف عن طريق التدريب من أن تخرج إلى حيز الوجود .

فليست هناك ناحية أخرى من نواحى المكفوفين اختلطت بها الخرافات التى حاز الكثير منها موافقة المكفوفين أنفسهم مثل هذه الناحية التى نحن بصددها ، فكثير من المكفوفين الذين يرتفع صدقهم فوق مستوى الشك يقررون أنهم عند اقترابهم من أية عقبات يحسون بها عن طريق أعصاب الوجه ، ولقد بلغ اعتقاد البعض فى صدق هذا الاختبار الشخصى درجة جعلتهم يرفضون بشدة البرهان العلمى الذى يثبت أن أعصاب الوجه فى بعض الأحيان لا تكون الوسيلة الأصلية فى إدراك وجود العقبات .

لقد بدا مما يقوم به بعض المكفوفين الذين بلغوا درجة عالية من التكيف ما يكاد يبرر الاعتقاد بنظرية التعويض . ذلك لأنهم استطاعوا أن يقدروا المسافة مقربة بالبوصة بينهم وبين بطاقة مرفوعة تجاه وجوههم ، وبينهم وبين أعمدة خشبية أو أشجار تقع فى طريقهم . وليس ذلك فقط ولكنهم استطاعوا وصف تكوين الحوائط نفسها وهى على مقربة منهم . ولهذا ابتدع جافال (Javal) حين كتب بإسهاب عن فقد البصر ما سماه « بحاسة الكفيف السادسة » حتى يتسنى له وصف هذه الظاهرة .

وفى سنة ١٩٢٤ وضع رومينز (Romains) النظرية التى تقول إن أطراف أعصاب الحس فى الجلد يمكنها فى حالة فقد البصر أن

تنمو فى شكل عوينات ، أو بعبارة أخرى إن الجلد فى الواقع يصبح قادراً على الرؤية .

ولكن فى سنة ١٩٤٤ نشرت سلسلة من التجارب حسمت فى النهاية مسألة البصر عن طريق الوجه إلى حد كبير . أما التجارب المشار إليها فقام بها سوبا (Supa) وكوتزن (Cotzin) ودالنباخ (Dallenbach) من جامعة كورنل (Cornell) .

وكانت الفكرة فى هذه التجارب بارعة حقاً برغم بساطتها . لقد جىء بعدد من المكفوفين وبعدد آخر من المبصرين وجميعهم متساوون فى درجة حدة الحواس . ثم عصبت عيون المبصرين وطلب إلى الجميع الاقتراب من عقبات معينة عدة مرات تحت ظروف مختلفة . وبعد أن تسجل نتائج كل منهم كان يؤخذ إلى خارج صالة التجارب ويعطى آلة تليفونية متصلة بميكروفون فى يد المشرف على التجربة الذى يعيد جميع الخطوات التى اتخذها الكفيف أو المعصوب العينين قبلا . ومن الواضح أنه إذا تساوى الجميع فى تقدير المسافة عند اقتراب الميكروفون من إحدى العقبات ثبت بكل جلاء أن السمع هو العامل الوحيد فى التقدير وأن الشعور بالعقبة عن طريق الوجه إن هو إلا نتيجة لرد فعل ثانوى نما مع تكرار مواجهة الكفيف للعقبات على مر الأيام .

واستغرقت التجربة عدة أيام فى ظروف متباينة وغرف مختلفة فتارة كانت تؤدى وهم حفاة الأقدام وأخرى وأحذيتهم فى أرجلهم ، وتارة فى غرفة مفروشة الأرضية وأخرى فى غرفة بلا بساط . أما العقبات نفسها فكانت تختلف حجما ، والمسافات تتنوع طولا وقصراً . ومن المهم أن نلاحظ أنه وإن كان تقدير المكفوفين المسافات أضبط على وجه العموم من تقدير المبصرين . إلا أن الأخيرين اعتادوا الموقف بسرعة وكيفوا أنفسهم وفق الظروف الجديدة حرفياً دون إضاعة وقت يذكر .

وكانت إحدى التجارب تستلزم سد الآذان بمادة من الشمع ، فلوحظ أن المبصرين المعصوبين والمكفوفين على السواء كانوا يرفعون أذرعهم إلى فوق بطريقة غريزية كأنهم يحاولون اتقاء خطر أمامهم .

ولما كانت التجربة قد بينت أن كل واحد من الذين اشتركوا فيها أعطى نفس التقدير للمسافة فى حالتى قياسه شخصياً بالتجربة أو إدراكه للمسافة عن طريق آلة التليفون ، كانت النتيجة أن رؤية الأجسام عن طريق الوجه ما هى إلا ثمرة اختبار وتمرين على تقدير الوقت بوساطة انعكاس موجة الصوت . فالكفيف على مر الزمن يتعلم أن يحدد مثـــلا المسافة بين وجهه وبين بطاقة وضعت أمامه بالبوصات بوساطة حدة إدراكه للتغييرات الدقيقة التى تطرأ على طول رجع الصوت ، وينطبق نفس المبدأ على تقدير العمق والفضاء .

إن نتائج تجارب جامعة كورنل السابق الإشارة إليها قد استخدمت في المحاولات الأولى لتعليم مكفوفي الحرب ، وأيد العمل في آفون (Avon) هذه النتائج وأضاف دليلا آخر على صحتها . وأما استخدام هذه المعلومات الجديدة في آفون فكان بطريقة سهلة بسيطة . كان يصحب المكفوف حديثاً مدرب وهو يقترب من أجسام معينة موضوعة في طريقه وفي أثناء ذلك تصدر أصوات حادة من آلة معدنية . وكان المدرب يصحح أخطاء الكفيف في تقدير المسافات وبذلك كان يساعده على إنماء الإدراك السمعي بسرعة . ووجد ، ولا غرابة في ذلك ، أن القدرة على إدراك المسافة على أساس رجع الصوت كانت تتفاوت تفاوتاً كبيراً ، ولكن كانت النتائج على وجه الإجمال تبرر الرأي القائل بأن اطراد التقدم في الأساليب سيؤدي إلى تقصير وقت التعليم من سنوات إلى أسابيع .

فكرة الظلام

إن الفكرة عن شعور الكفيف الدائم بعدم وجود النور أو شعوره بالظلام لم تلق اهتماما كبيراً من جانب علماء النفس باستثناء كتسفورث . فإذا بدأ الإنسان بالتأمل ملياً في اللغة أو الألفاظ المستعملة وجد كثيراً مما يشير إلى فكرة الظلام . إن كل ما كتب خاصاً بالمكفوفين مشبع بهذه الفكرة لدرجة أن استئصالها من الأذهان

أصبح أمراً مشكوكاً فيه . وقل أن تجد كتابا يعالج أية ناحية من نواحى مشكلة المكفوفين يحمل عنواناً لا يشير إلى معنى الظلام . وفى مؤلف سابق لكبير كاتبي هذا الكتاب نقد شديد لهذه الفكرة بشكل مفصل ، ومع ذلك ورد فى التعليق على المؤلف المذكور وفى تلخيصه فى إحدى صحف مدينة نيويورك الكبرى بعض الإشارات إلى فكرة الظلام فى عالم المكفوفين .

وعند التحدث عن موضوع « الأمل » فيما يتعلق بالمكفوفين تستخدم كلمة« النور» للدلالة عليه . وأكبر هيئة تقوم بخدمتهم فى الأمة كلها تسمى نفسها « بالفنار » أو « المنارة » . وعلى باب مكفوفى اليهود بمدينة نيويورك تجد هذه العبارة : « إلى كل الذين أودعوا الظلام فى عالم كله جمال باهر نقدم النور » .

إن أمثال هذه العبارات وإن بدت لذيذة على السمع إلا أنها تعمل على تأييد فكرة بقاء المكفوفين فى حالة من الظلمة والكآبة الدائمتين ، كما أنها توحى على الدوام بفكرة الفراغ . ولا شك أن كل واحد فى لحظة من اللحظات أراد أن يتصور ما هية فقد البصر قد قام بإغماض عينيه ، ولكن أليس من الغريب أن أولئك الذين قاموا بمثل هذه التجربة البسيطة بعد أن لاحظوا الشعور بالظلمة لم يفطنوا إلى أن هذا الشعور يتلاشى بعد وقت قصير لتحل محله بقع من الضوء يولدها الخيال ؟ إن كثيرين من المكفوفين « يرون » فعلا نوعاً من

اللون يسود كل شيء ويكون هذا اللون رمادياً على الأغلب ، ولكنه عند البعض جو يظهر به ما يشبه المفرقعات إما بشكل دائم أومتقطع، وهو بلا شك مظهر يرجع إلى مرض فى شبكية العين . وإذا استثنينا هؤلاء ، فإن ما يراه الكفيف عبارة عن بقع الضوء المعروفة للمبصر . ويقول كتسفورث إن الفكرة بأن المكفوفين يعيشون فى دنيا الظلام نشأت عن تفكير خاطىء يستمد من نظريات نيوتن فى الطبيعة . . . . فإذا كان السواد أو الظلام عكسه النور ، فالمكفوفون إذن يعيشون فى دنيا ظلام دامس . والنتيجة المترتبة على هذا هى أن المكفوفين الذين يتحرقون رغبة فى استرداد البصر يواجههم بسبب عجزهم عالم ظلامه اختيارى ملىء بفظائع السواد والخوف والوحدة وكل مايتولد فى ذهن الرعديد وهو ينظر فى الظلام . وكل هذا غير صحيح إطلاقا سواء من الناحية النفسية أم من الناحية الصحية .

نتائج إيجابية

إن أهم نتيجة أدت إليها هذه التجارب هى أن معظم المعتقدات التى كانت سائدة فى الماضى ليست صحيحة ، وعندما اكتشف الناس هذا فقدوا الاهتمام بالموضوع . وارتكازاً على ما لدينا من معلومات يمكننا أن نقول إنه لم تظهر أية نتائج هامة خاصة بفقد البصر منذ التجارب التى أجراها سوبا وكوتزين ودالنباخ . إلا أن علماء

النفس التربويين قاموا بمعظم الدراسات منذ انتهاء التجريبيين من هدم المعتقدات القديمة . وإنه وإن كان للنتائج التى توصل إليها الأخيرون قيمة عظيمة فى فهم المشاكل الخاصة بتربية الطفل الكفيف ، إلا أنها من الناحية الفنية خارج نطاق بحثنا هذا . وفيما يتعلق بموضوع عقل الشخص المولود كفيفا وطريقة تنظيمه وعمله فإننا مازلنا كمن يتلمس طريقه فى الظلام .

تشابك الحواس

اعتاد علماء النفس الأولون أن يظنوا أن الحواس كائنة فى العقل وتختص كل حاسة منها بقسم منه ، وليس لأى منها علاقة بالأخرى . ولذلك كان فقد البصر عندهم معناه خلو قسم من العقل مما كان يشغله ، أو على الأقل وجود جزء خال لا يمكن ملؤه بأى شىء جديد . ويبدو أن نظرية « إنابة الحواس » يقصد منها محاولة إيضاح الكيفية التى تعوض بها الحواس الإنسان عما ينقصه منها .

ويبدو الآن محتملا أن نظرية الإنابة هذه كانت تتلمس شيئاً كان يمكن الحصول عليه لو أمكن التخلى عن فكرة تقسيم العقل بين الحواس ، إذ أن المفهوم عامة الآن أن أعمال الحواس متداخلة بعضها فى بعض . ولاشك أن النجاح الذى صاحب الاستعانة بإذاعات الراديو لا يمكن توضيحه دون وجود هذا التشابك . وإنه يظهر أن التكيف

الحقيقى لا يمكن تحقيقه فى حالة فقد البصر دون الراديو . وبدأ الكتاب فى الوقت الحاضر يطلقون على هذا التشابك اصطلاح (التنبيه النقلى) ومعناه استجابة حاسة لمؤثر وقع على حاسة أخرى. أما المفكرون من العلماء فيقولون إن ما يحدث بين الحواس قد يكون من قبيل المشاركة لا الإنابة . والأفراد الذين لوحظت عليهم حالة الإنابة « سمعوا » اللون الأخضر « ورأوا » صوت البوق . وتبادل انطباعات الحواس على هذا النحو يصحبه انهيار عقلى وبخاصة عند الفنانين المبدعين . لهذا كله يبدو أننا يجب أن نواصل بحثنا بغض النظر عن الألفاظ .

إن النواحى السيكولوجية لنجاح إذاعة التمثيليات فى الراديو قد درست دراسة وافية ، وأصبح هذا الجزء من برنامج الراديو نوعا من العمل المستقر الذى تصرف عليه ملايين الدولارات كل عام ، وتأثيره يصل نهاراً وليلا إلى كل بيت تقريباً فى معظم القارات ، وللمؤلف الأول خبرة عشرين عاماً أو أكثر فى هذا العمل ، وقد تابع نجاح هذه التمثيليات منذ مراحلها الأولى حين كان يساور الناس الشك فى إمكانية فهم المستمعين لها من غير الاستعانة بمن يقدم التمثيلية ويمهد لمناظرها بعبارات وصفية تعين البصر ، إلى أن بلغت نظامها الحالى المتقن فأصبحت تضارع القصة القصيرة أو المسرحية . ومن يتصفح التمثيلية المعدة للراديو يجد أنها تبدو لغير الخبير خالية تقريباً

من الإرشادات الخاصة بالوضع التمثيلي ، الذى يتخذ عادة شكل إشارات صوتية مثل إغلاق باب أو تمزيق ورقة وما إلى ذلك . وقد لوحظ أن الجو المصاحب للتمثيل إذا كثر فيه استعمال الأصوات الأخرى حول انتباه الجمهور عن التمثيل نفسه .

ومن الواضح أن نجاح الراديو الباهر من الناحية المادية يبين أن ملايين الناس قد وجدوا أن تمثيليات الراديو تشبع رغبة فى أنفسهم . وقد ظهر أيضاً « التليفزيون » فى مراحله الأولى ولكن آراء النقاد تبين أن الناس لا يزالون يحسون بالمتعة فى الاستماع لتمثيليات الراديو .

لقد ظل المشتغلون بالسينما سنين طويلة يعتقدون أن النظر يمكن الاستغناء عنه فى تتبع قصة ما ، وأما الكلمات فلا غناء عنها . ومنذ سنة ١٩٢٨ ظهرت على الراديو آلاف التمثيليات وكلها استمتع بها الناس دون حاجة إلى النظر ؟ ولكن فى مدة ثلاثين سنة ظهر أقل من اثنى عشر شريطاً سينمائياً صامتاً ، ولم ينجح مادياً من هذا العدد الضئيل إلا أقل من النصف ، والسبب فى الإخفاق ما يعزى إلى أن الإشارات التى كانت مطلوبة لنجاح التمثيل كانت فوق مستوى الممثل وأن النظارة لم يرقهم التمثيل دون استعمال الألفاظ . ومن الأشرطة غير الناطقة التى لاقت نجاحاً رواية إميل جاننجز (Emil Jannings) وعنوانها الضحكة الأخيرة .

إن كثيرين ممن يفقدون البصر عرضاً يقولون إن قدرتهم على التصور لم تضعف بعد فقد البصر وأنهم فى أحلامهم يرون الأشياء كما لو كانوا مبصرين وأن شعورهم العام بالمسافة والفضاء لايزال فى المستوى البصرى . ويظن الكثيرون أن المكفوفين الممتازين وحدهم هم الذين تبقى معهم قوة التصور التى يدعونها . ويبين لنا نجاح تمثيليات الراديو القدرة العامة على التصور المبنى على مجرد السماع ، وهذه القدرة أكثر بكثير من الـ ٢٣ ٪ التى قدرها أحد علماء النفس اعتماداً على أبحاثه التى أجراها على عدد من الناس . فالشخص الجالس فى بيته وهو يستمع إلى الراديو هو فى نفس وضع الشخص الذى فقد بصره عرضا . فهو يسمع سلسلة من الجمل متصلة بنوع من الصوت له علاقة بالحوادث التى توصف ، ومن هذه جميعها تتكون صورة مرئية . فالإصغاء إلى تمثيليات الراديو يكون أساساً لاختبار مشترك بين المبصرين ومن يفقدون البصر عرضا . وقد يكون صحيحاً أن أصوات الممثلين المتشابهة فى تمثيليات الراديو والأصوات الحادثة من الأجسام تتوقف فى الانطباعات التى تحدثها على اختبارات بصرية سابقة رسخت عن طريقها أنواع الناس والصور الخاصة المعروضة فى أذهان المستمعين، على أن الألفاظ الوصفية التى ترد فى معرض الكلام تزيد الصورة العامة وضوحا . وهناك نقطة أخرى يجب فهمها وهى أنه من الواضح

أن مستمعى الراديو لايشعرون بحاجة شديدة إلى البصر ليصاحب إشارات الصوت . ويبدو والحالة هذه أنه ليس هناك أى نقص تتطلبه الناحية النفسية فى المستمع .

وقد لاحظ فرويد ، وأيده كثيرون بعده ، أن الأحلام بصرية على الأرجح ، وأنها تحدث عن طريق تجمع الانطباعات الناشئة عن كل الحواس فتشكل فبكرة مصورة . وأحد المؤلفين لهذا الكتاب يشهد حسب اختباره أن أحلامه على الأقل بقيت دائما فى صورة بصرية . فما يسمعه أثناء النهار ويلمسه أو يحس به يتركز فى الحلم ليشكل وصفا مصوراً . والمؤلف يذكر حلما عن أحد معارفه رآه وهو يلبس عوينات ، وقد اتضح أنه صحيح . ولعل الظروف التى تعارفا فيهاتوضح سبب ظهور العوينات فى الحلم . كان الرجل عندما يتكلم يرفع نظره من أشياء موضوعة أمامه إلى فوق . والمعروف أن الشخص الذى يستخدم العوينات يدير رأسه بشدة أكثر ممن لا يلبس عوينات حتى تصبح المرئيات فى بؤرة النظر . وإذا تنقل بنظره من مكان إلى مكان وهو يتكلم فإن المستمع إليه يحس تغييراً فى درجة الصوت .

ولو سئل المؤلف عما إذا كان الرجل يلبس عوينات أم لا ، لما استطاع أن يعطى جواباً أكيداً . ولكنه كان متأكداً من ذلك فى عقله الباطن لدرجة أن العوينات تمثلت له فى الحلم

ومرة أخرى حلم المؤلف بأحد معارفه يلبس حذاء بكعب متآكل . وكانت مناسبة الحلم أنه سمع فى اليوم السابق ذلك الصديق يسير فى ممشى مغطى بالأسمنت ولكنه لم يلاحظ فى ذلك الوقت أن صوت الحذاء دل على أنه كان فى حاجة إلى الإصلاح . وعن طريق الأذن وصلت المعلومات إلى العقل الباطن واتخذت صورتها فى الحلم .

لقد رأى المؤلف العوينات وكذلك الكعب المتآكل فى الحلم ، والعملية التى أدت إلى هذا قد تكون حقاً نتيجة تشابك الحواس . ولكن ما يجب ملاحظته هنا أنه لم يحلم بصوت الكعب المتآكل أو بالتغير فى درجة حدة الصوت ولكنه حلم بالأجسام التى تسبب الأصوات ، عن طريق حاسة أخرى .

بسط هولنجورث(Holling worth)مبدأ يشير إلى ما هو أكثر من مجرد علاقة تشابك بين انطباعات الحواس ، وقد يوضح لنا الأساس الفسيولوجى لهذا الترابط . وعلى قدر علمنا ، لم يطبق مبدأ هولنجورث على الطريقة التى يعمل بها عقل المكفوفين عرضاً .

كلنا اختبرنا الشعور الذى نحس به عندما نذكر ملاحظة أبديت

لنا فى الماضى ونعجز عن تذكر المكان الذى قيلت فيه . وكلنا نمر بمواقف تذكرنا بمكان أو شخص أو سلسلة من الحوادث من غير أن نعرف لماذا ، يقول هوانجورث فى تعليل ذلك إن أى جزء من اختبار مضى إذا أعيد مرة أخرى أثار ذكرى كل الاختبار الماضى . ولذلك فإننا إذا دخلنا غرفة علق على أحد حوائطها بساط للزينة فإن رؤية هذا البساط تثير فى نفوسنا ذكرى غرفة أخرى بأكملها كنا قد شاهدنا فيها هذا النوع من البساط قبل عشر سنين ، وقد تذكرنا الغرفة الجديدة بشخص لا علاقة له بها ، ولكن قد يرتبط بها من ناحية حبه لهذا النوع من الزينة الموجودة فى الغرفة . وعلى ذلك يمكننا أن نقول إن الغرفة الأولى أو الشخص السابق الإشارة إليهما اتخذ صورة بصرية .

قد يحدث كل هذا بطريقة معقدة ، فمثلا الذكرى قد تكون مباشرة كما فى حالة صورة الشخص التى تثيرها رائحة مألوفة ، أو قد تكون غير مباشرة عن طريق الإيحاء بهذه الرائحة . ولتوضيح ذلك أكثر نقول إن رائحة نوع معين من الطباق قد تثير ذكرى شخص يستعمله ، أو أن رؤية صندوق الطباق تذكرنا برائحته التى بدورها تذكرنا بصورة الشخص الذى يدخنه ، وأكثر من ذلك أنه من الممكن أن تثب الصورة إلى الذهن دون شم رائحة الطباق أو رؤية صندوق الطباق أو حتى دون أى انطباع واضح لرائحة معينة لها علاقة

بالرجل . وقد يتضح فيما بعد أن الموقف الجديد قد تضمن رائحة طباق وأن الرجل كان يستعمل هذا النوع فى الوقت الذى عرفناه فيه .

إن عملية التذكر هذه تتم عادة بسرعة البرق عن طريق العقل الباطن . وفى غالب الأحيان يتعذر تحديد السبب الذى يثير الذكرى .

ومما لا شك فيه أن الانطباعات تتحرك فى المخ حتى تثار الذكرى فى إحدى الحواس عن طريق مؤثر على حاسة أخرى .

إذا كان المبصر يظن أن أى انطباع يمكن أن يثير تطورات الماضى حتى بعد عشرات السنين ، فلماذا يفترض أن نفس العملية لا تحدث فى عقل من فقد بصره فيما بعد فى حياته ؟ وبما أن أجهزة كهذه فى حالتى تشابكها أو انتدابها تعمل دائماً فى عقل هذا الكفيف كان من الملائم أن نقول إن اقتصاده العقلى لا يطرأ عليه تكيف البتة . فإنه يستمر فى أداء وظيفته كما كان دائماً ، لأن فقد البصر لا يترتب عليه فقد القدرة على التصور ومن ثم لا يخلق فراغاً مظلماً . إن الاقتصاد العقلى تمده الحواس بالانطباعات التى أعارها الشخص قليلا من الالتفات أثناء تمتعه بالبصر .

والاختلافات فى الإدراك التى يفرضها التدريب والاختبار تتمثل

فيما ينصت إليه مختلف الموظفين العاملين فى الإذاعة والراديو . فالمهندس الذى له اختبار طويل فى طريقة تنظيم الموسيقيين أمام الميكروفون والذى يجاهد فى سبيل ضبط الصوت الآتى من أجزاء مختلفة من صالات رديئة البناء يستطيع فى غالب الأحيان ، وهو يستمع إلى برنامج غير مألوف لديه ، أن يحدد مكان كل قطعة موسيقية تستعملها الفرقة ، وأحياناً يحدد سعة الصالة ونوع السقف من حيث تأثيره على الصوت ، أما المدير فيستمع إلى شىء آخر والموسيقار إلى شىء ثالث والكاتب إلى شىء رابع وهكذا .

ويذكر المؤلف أن صديقاً كفيفاً له ذا حواس قوية ظن أن سمع المؤلف ، وكان ضعيفاً ، أحد من سمعه هو لأنه (أى المؤلف) يستطيع أن يميز بين الإذاعة الحية والمنقولة .

وقد تحدث المؤلف إلى كثيرين من أصدقائه يعملون فى الإذاعة وبخاصة المهندسين منهم ، فوجد أنه بالرغم من اشتغالهم مبدئياً بالصوت فإن إحساساتهم كل فى مجاله الخاص ، تتجمع فى صورة مرئية . فالمهندس الذى يعرف أماكن العازفين حول الميكروفون من مجرد سماع برنامج الراديو يكون صورة بصرية لأماكنهم . والمكفوفون الذين سئلوا عما يتصورون وهم يتحدثون عن النظر أكدوا أيضاً هذه الصورة البصرية . ويقول أحد الأصدقاء إنه يرى « نقط برايل » وهو قول يوافق عليه المؤلف لأن ذلك هو الحال فى الأحلام حيث

يحدث الانتقال إلى التصور . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نجاهر بالرأى بأن عملية الإنابة أو المشاركة ذات جانب واحد فقط ، بمعنى أن الانتقال يكون من السمع أو اللمس أو غيرهما إلى التصور وقلما يحدث العكس . ومن الممكن أن يكون العكس بسبب تشويش فى التنظيم العقلى ، كما أنه من الممكن أن يتسبب عن هذا العكس اضطراب فى الشخصية أو على الأقل يكون مصاحباً لمثل هذا الاضطراب . يقودنا بحثنا إلى التفكير بأنه من الأمور الطبيعية أن يوحى النغم الموسيقى بسلسلة من الصور البصرية ، ولكن من غير الطبيعى عكس ذلك ، أى أن سلسلة الصور البصرية توحى بالموسيقى. فإذا كان لهذا الاعتراض أية قيمة فهى أنه فى حالة المكفوف عرضاً على الأقل تظل بؤرة الاقتصاد العقلى على الدوام هى القدرة على التصور .

المكفوفون منذ الولادة

إن احتمال بقاء التصور كبؤرة للاقتصاد العقلي عند من يكف بصرهم بعد الولادة يعمل على إقصاء إمكانية وضع علم نفس مستقل للمكفوفين. علاوة على ذلك يعمل نفس الاحتمال أيضاً على عزل مشكلة تنظيم الاقتصاد العقلى للمولودين مكفوفين وجعلها أكثر غموضاً .

فمن الواضح أن البصر يمكن الاستغناء عنه فى عمل العقل حيث أنه لا يوجد فراغ مسبب عن فقده ، لأن التصور وليس البصر هو العنصر الهام فى الموضوع . ولكن يواجهنا السؤال : ماذا يحدث فى الشخص الذى ينقصه الاختبار الذى ينبنى عليه التصور ؟

يقول كتسفورث بكل وضوح إن الشخص الكفيف منذ الولادة له تنظيم يختلف عن تنظم المبصر ، ويبدو أن هذه الفكرة لا مجال للجدل فيها . فالتنظيم موجود حتما . والكفيف ليس كائنا يحاول أن يملأ مكانه فى الحياة بجزء ناقص منه . وكما يقول كتسفورث إن الكفيف ليس آلة ذات ست إسطوانات أزيلت منها واحدة ، ولكنه قد نظم تكوينه منذ بدء الحياة على أساس خمس اسطوانات ، والسمع هو الوسيلة الأساسية التى تشعره بالبيئة المحيطة به . فاللمس والشم وغيرهما تشكل الاقتصاد العقلى للكفيف . والنجاح الذى يحرزه الذين ولدوا مكفوفين فى التعلم وفى تقدير المسافات عمقاً وطولا يدلنا على أن الكفيف جهاز فعال إذا ما أعطيت له الفرصة للنمو تحت قيادة رشيدة وأن قدرته عادية باستثناء البصر طبعاً ، فالمولود كفيفاً يستطيع أن يتعلم استخدام الكلاب المرشد والاستعانة بعصاه فى التنقل بمفرده من مكان إلى مكان ، وكلا الأمرين يتطلب إدراكاً للمسافات والجهات . على أن مدربى الكلاب المرشدة يلاحظون أن

إدراك الفضاء أقل حدة عند المولودين بلا بصر بعد أن يكبروا ، ولكنه من الواضح أنه ليست هناك عقبة نظرية أو عامة تحدث هذا الفرق .

وإن الإنسان ليتساءل عما إذا كان التركيب الذهنى للمولود كفيفاً له مركزية ، كما هو الحال مع الشخص المبصر ، وإذا كان الأمر كذلك فهل هذه القدرة المركزية سمعية أو لمسية ؟

لقد بينا أن هذه الحواس متشابكة بعضها ببعض . فغير المبصر الذى يتمتع بحاسة سمع قوية يمكنه أن يتعلم تقدير رجع الصوت على أساس المسافة التى هي المقياس المعتمد لحاسة اللمس .

إذا بدا هذا الكلام معقداً نخذ مثلا عبارة كتلك التى تدل على طول يبلغ قدمين ، إنها تعبر عن إدراك فضائى يأتى عن طريق اللمس ، إلا أن السمع قد يكون وسيلة أيضاً بالتمرين عند الاقتراب من العوائق .

لو أمكن علم النفس أن يبين بالضبط طبيعة الاقتصاد العقلى للمولود كفيفاً ، ففى الغالب لن يستطيع معظمنا فهمه . إن التصور لا غنى عنه فى عمل الذهن عند معظم الناس ، وإدراك العلاقة بالفضاء بنوع خاص تبدو بصرية تماماً . فلو فرض أن أحدهم قدم لنا إيضاحاً لنوع آخر من التركيب العقلى فمعظمنا يصبح فى موقف شبيه بمن

يحاول أن يفهم أن مبادىء نيوتن فى الطبيعة وإقليدس فى الهندسة خطأ . فنحن عادة لا نستطيع أن نفهم ما يبدو مخالفاً للمعلومات التى نكتسبها عن طريق البصر . وعلينا أن نظل قانعين فى الوقت الحاضر على الأقل بما نعرفه من أن المولود كفيفاً يقدر أن يملأ مكانه كأى شخص آخر إذا أعطيت له الفرصة للنمو .

فكرة الفراغ كعامل من عوامل البيئة

إن الكفيف وهو يحاول أن يشق طريقه فى الحياة يعتاد على الشك فى ذكائه ، أو بعبارة أدق يعتاد أن ينكر على حواسه الباقية قدرتها على مساعدته على الفهم . وهو يختبر فى كل يوم ما يقوى هذا الشك فى نفسه . ففى المطعم يسأل مرافقه ، لاهو ، عما يريد أن يأكل ، كما يطلب ممن يتحدث إليه أن يرفع صوته ويتكلم ببطء . ويحدث أحياناً أن الناس يبحثون شئونه على مقربة منه ظنا منهم أنه لا يمكنه أن يسمع ، أو أنه إذا سمع فإنه لا يفهم . وفيما يكتب المكفوفون عن أنفسهم يجد القارىء كثيراً من هذه الاختبارات التى يشكو منها المكفوفون ويسجلونها ضد المجتمع . وإذ يحاول الكفيف أن يتغلب على الشعور بالنقص الذى تولده فى نفسه هذه الاختبارات ، ينمو فى داخله شعور قوى بالاحتقار الشديد للعالم المبصر الغبي الذى لا يفهم

(طبعاً فى تقديره هو) إن التغلب على هــذا الشعور يتطلب من الـكفيف الـكثير من التسامح والنضج النفسى .

وإنه لمما يؤلم الـكفيف الذى يحاول أن يفهم المبصرين أن يكتشف أنهم لا يزالون يعتقدون فى الخرافات والأخطاء القديمة كأنها حقائق علمية صحيحة .

مثال ذلك أن أحد المحللين النفسيين كتب فى مجلة منتشرة يقول : إن المـكفوفين بسبب شدة حدة حواسهم الباقية ينتظر أن تجنــح أحلامهم إلى النوع المتعلق باللمس أكثر مما يتعلق بالبصر . وفى نشرة ألمـانية خاصة بالتحليل النفسى ظهرت منذ سنوات قليلة تساءل أحد العلماء قائلا : هل يمكن أن تـكون قوة التصور التى يدعيها المـكفوفون نوعا من الوهم يماثل ما يتصوره الشخص الذى تبتر ساقه من أنهــا لا تزال موجودة ؟

ولسنا ندرى كيف يكون هنـــاك وهم من أى نوع كان دون قوة التصور .

إن النظام التربوى للمكفوفين قد اتخذ طريقاً يخالف ما وضعه هاو كل المخالفة ، من ناحية الأدوات والموظفين وطريقة التعليم . ومعظم النقاد متفقون على أن هذا النظام يميل إلى النظر إلى الطفل الـكفيف لا كفرد قادر على أن تكون له شخصية موحدة ، بل كمخلوق غير منظم ، إلى أن يزود بمـا يراه معلموه المبصرون .

إن غالبية المعلمين يظنون أن المهمة الأساسية للمدرسة هى أن تمد الطفل بما لم يره قط بدلا من أن تتجه إلى تحقيق زيادة التناسق فى كيانه العصبي العضلى .

إن الطفل كثيراً ما يتعلم فى المدرسة تعبيرات وألفاظاً تحمل معانى لا علاقة لها بتجاربه ، باستثناء ما يتعلق بنموه الشخصى ، كما يفهم أن يعلق أهمية على أن يتعلم أكثر مما يتضح له من حواسه ، والطفل الكفيف الذى يردد ما يحفظ ينظر إليه كأنه قد ملأ الفراغ الذى يحس به بطريقة مرضية .

والعبارة التالية المقتطفة من كتابات هيلين كيلر تقدم لنا مثلا عن مدى النجاح الذى أحرز فى تعليم الفرد الذى يعانى نقصاً فى الحواس . تقول الكاتبة : « كان بساط من الخضرة يطغى على المجرى الفضى ، والجو يملؤه الضباب الخفيف ، والسحب الناعمة تمسك بعضها بخناق بعض فى السماء فيزداد البساط السندسى اخضراراً والسياج تكلله أزهار الربيع ووروده . . . . »

إننا عند ما ندرس مشاكل المكفوفين الباقية اليوم يملأ صدرنا التقدير العظيم لعقل ديدرو ، فنفاذ بصيرته أظهر أنه ليس من الممكن تعليم المكفوفين فحسب بل من الممكن أيضاً تعليم المبصرين وزيادة وعيهم عن المكفوفين .

الفصل السادس

مشكلة العاطفة

المشكلة :

« إن حال المكفوفين المحزن ومآلهم المفجع ليبلغان حداً يجعل ذوى القلوب الرحيمة تواقين إلى تقديم العون لهم ، ويحمل حتى من قدت قلوبهم من الصخر على أن يقفوا جانباً فى سكون وخشوع ليدعوهم يتلمسون طريقهم غدواً ورواحا . وإنه لمن القسوة الجائرة أن يسخر أحد من هؤلاء المكفوفين أو يزيد فى شقائهم . ولقد أنذرت إحدى الشرائع السماوية باللعنة من يضلل كفيفاً عن طريقه ومن يضع حجر عثرة فى سبيله . . . . . وقد يقع العطف من نفس الكفيف موقع النسيم العليل من نفس المحرور أو موقع تغريد البلابل من نفس السجين . إلا أن الرثاء بفقدان شيء عزيز لا أمل فى استرداده كثيراً ما يزيد الحزن مرارة ، أو على الأقل يحدد الألم بدرجة أعمق . والعقل المدفون فى ظلام يشبه ظلام القبور إما أن يجتر ما به أو ينكمش فى افتقار أليم إلى الغذاء ويذوى حتى يضمحل » .

هذه العبارة ليست مقتبسة من آداب العصور الوسطى أو من

ثرثرة أحــد العاطفيين ولــكن من كتابات أحد مشاهير القساوسة الأوربيين ، نشرت له عام ١٩٢١ وكان كفيفاً . فإذا كانت هذه العبارة تعبر تعبيراً دقيقاً عما يشعر به المـكفوفون ، فإن كل ما عمل لتحسين حالهم فى القرن المـاضى ، وكل كلام عن التكيف وما إليه إن هو إلا لغو وسخرية . وما الفائدة من أى تقدم اجتماعى حيال هذه التعاسة الواضحة . إن مكفوفى اليــوم ليسوا فى نفس وضع مكفوفى الأجيال المـاضية ، إذ تتوفر لديهم الـكتابة البــارزة وكل وسائل العصر الآلى ، كالتليفون والآله الـكاتبة وغيرهما ، مما يمد المـكفوفين بقدرة على العمل لا تقل عن قدرة المبصرين . ولـكن ما الفائدة من كل ذلك إذا كان هذا هو شعور الـكفيف ؟

لقد اعتقد الإنسان دواماً أن كف البصر يولد التعاسة والشقاء . ولم يغير رأيه هذا بأية درجة منذ أيام يوربيدس[1] الذى كان يظن أن فقد البصر يجب أن يدفع صاحبه إلى التخلص من الحيــاة . وهل نستطيع أن نتخذ من مثل العبارة المقتبسة آنفاً برهاناً على أن الشعور بالبؤس هذا يتولد عند الـكفيف من فقد البصر فى حد ذاته ؟ نحن لا نستطيع أن نغفل قول الرجل أو نشك فى أمانته .

يقال إن الـكفيف لا يمـكنه التخلص من الـكآبة التى تفرضها

---

(١) يوريبدس احد فحول الشعراء الثلاثة التراجيديين عند الإغريق .

عليه حالته ، وإنه لا يستطيع فى الواقع إن يكيف نفسه وفقها ، وكل ما هنالك أنه ينسى هذه الحالة لحظة . وإذا أنكر أنه يشعر بشىء من هذا فلا يصدقه أحد . ويعتبر أنه على جانب عظيم من الشجاعة فى مجابهة موقفه . ومما يساعد على وجود هذه الحالة النفسية الشعور المزعوم الدائم بالخيبة الناشئة عن قدرته المتناقصة على أن يحتل مكانه ، وعجزه عن الاستمتاع بالبصر ، ولا يستطيع التغلب على هذه الحالة إلا الأقوياء خلقاً الذين يرتفعون بأنفسهم فوقها ويتكيفون لمجابهتها ليحيوا كغيرهم من الناس . ولأن كل هذا هو حظ الكفيف من الحياة يقابل من الناس بأكبر قسط من الشعور العام الذى يوصف بالرثاء .

الفرق بين الرثاء والشفقه

إن المكفوفين ليشغل بالهم على الدوام عامل الرثاء . ففى مجموعاتهم المنظمة يتناقشون فيه بتفصيل ، ويتساءلون ماذا يكون موقفهم حياله . وهناك شعور بالجرم يمتزج بكراهيتهم له . لأنهم مشبعون بالشعور بأن جميع ما يمتلكون والفرصة التى تتاح لهم للاندماج فى الهيئة الاجتماعية بل وحتى السماح لهم بالحياة ، كل هذا نتيجة إشفاق الناس عليهم . ومن المؤكد أن نظام الخدمة الاجتماعية لا يتردد أحياناً أن يستدر الإشفاق عليهم تماماً كما كان المتسولون يفعلون قديماً فى الأسواق .

ويبدو أن موضوع الرثاء وعلاقته ببيئة المكفوفين لم يبحث بحثاً

علمياً دقيقاً . ولاشك أن الموضوع على قدر من التعقيد يخيف من يحاولون بحثه بعناية . ويبدو كذلك أن هذا التعبير هو من تعبيرات الإنسان المفضلة فى الإعراب عن سلوكه الاجتماعى فيما يتعلق بالقلق الذى يشعر به نحو البائسين والعاجزين والذى يدفعه إلى تكوين تنظيم يضمن العناية بهم .

ولقد نال الإشفاق موافقة أرسطو كما حاز استحسان قادة العالم الدينيين . ولذلك فإنه من المفيد أن نلجأ إلى التفرقة العلمية بين الألفاظ ، وعند ذلك سنرى أن اللغة هى السبب فى كل هذه البلبلة .

أما التفرقة فيجب أن تكون بين لفظى « إشفاق أو رثاء » « وشفقة وحنو » . ولكل من اللفظين أصله فى النفس . فمن الناحية اللغوية المجردة يقصد بكلمة « شفقة » كل العناصر التى تحمل الناس على مساعدة بعضهم البعض فيعملون معا متعاونين مدركين أهمية المبدأ القائل « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » فالشفقة تقود الإنسان إلى أن يأتى عملا لخير الإنسان والحيوان وليس من الضرورى أن يصاحب هذه الأعمال شعور عميق شامل يدفع إلى إتيانها . فمثلا قد يتحاشى الإنسان أن يطأ نملة فى الطريق من غير أن يكون الدافع إلى هذا فيض الإحساس بالاشفاق على تلك الحشرة . وقد يصبح التمييز بين هذين اللفظين واضحاً إذا ما وضعنا أمام ناظرنا ذلك

الشعار الأمريكى « كن رؤوفاً بالحيوان » فهل يستطيع المرء أن يتصور أن من الإحساس بضعف الحيوان ما يبعث على الرثاء ؟

يقول أتوفينيتشل (Otto Fenichel) فى كتابه « النظرية التحليلية للأمراض العصبية » ما يأتى :

« إن سيكلوجية الرثاء ذات أهمية خاصة فى العلاقات الاجتماعية . فمما لا شك فيه أن الرثاء أثر خلقى متصل أصلا بخاصية « السادية » التى يثير الاشتباه فيها هذا المظهر الخارجى ، وكثيراً ما يؤيد هذا الاشتباه وجود السادية فعلا وراء ستار الرثاء عند التحليل النفسى للمريض . ولكن يظهر أحياناً أن هذا الرثاء وسيلة للتسامى بالسادية ، إلا أن الأصل واحد على أية حال » .

فاعتقاد فينيتشل إذن هو أن الرثاء متفرع من حافز القسوة فى الأصل ويظهر عن طريق التسامى . فيرى الفرد نفسه فى شخص المتألم ولذا يتكون عنده الشعور بالخوف ثم القسوة .

ويقول المحلل النفسى الألمانى لودفيج جيلكيلز فى بحث له عن « سيكلوجية العطف » : إن الإشفاق لفتة سحرية الغرض منها إرضاء الضمير عندما يجابه الإنسان أشياء تثير لديه رغبات غريزية عدوانية ، ولا شك أن الغرض هو إبعاد الشىء عن النظر أو تحطيمه » .

أما أرسطو فيقول عند محاولته تحليل افتتان الناس بتمثيل

التراجيديا على المسرح « إن ما يشعر به الإنسان إن هو إلا تطهير للنفس عن طريق الرثاء والفزع » . فالمتفرجون يشاهدون الممثلين يتحملون الآلام التى تفرضها عليهم الآلهة . والتطهير الذى يذكره أرسطو هو الشعور بالارتياح من جانب المشفق بأنه ليس هو الشخص الذى كان عليه أن يتحمل هذه الآلام . ولكن هذا الشعور بالارتياح يولد الشعور بالجرم لأن كل الناس يعرفون أن المأساة يمكن أن تحدث معهم . وعندما يشاهد المرء مأساة تمثل فهناك ارتياح داخلى إلى أنه ليس الشخص الذى حلت به الآلام بل إنما حلت بشخص آخر . والارتياح إلى شقوة الغير إنما هو الذى يولد الشعور بالجرم . ولهذا يجب أن تدفع النفس الثمن ، فيعرب الإنسان عن رثائه لمن يقع تحت الآلام . وإذا استطاع أيضاً أن يقدم صدقة يكفر بها عن الجرم ثم التطهير .

إلا أن الرحمة ليس فيها عامل الشعور بالخوف أو الجرم . فمثلا عندما يجيب الإنسان سائلا غريباً عن مكان يقصده فهو إنما يفعل ذلك لأنه يدرك أن المجتمع لا يستغنى عن مثل هذه المساعدات ، وأنه هو قد يوجد فى نفس الموقف يوماً ما . ويكون الباعث الأساسى فى هذه الحالة هو غريزة حب البقاء لا الخوف والفزع .

ولقد ألقى علم التحليل النفسى ضوءاً كثيراً على أصل الرحمة وأساسها . فهى تتولد عن موقف مشابه لموقف الإخوة والأخوات

فى العائلة وموقف الآباء والأعمام والأقارب فى الوحدة الكبرى .
وهذا الموقف يتطلب التعاون والجهود المشترك اللذين دونهما تصبح الحياة الاجتماعية مستحيلة . والشعور بالرحمة إعلاء للشعور بالرغبة فى الاعتداء الذى نراه فى الأطفال ، وقد يكون أيضاً نتيجة لنظام دفاعى أضعف فى مستواه الصحى ضد نفس البواعث .

ولا ينشأ الرثاء مثلا من الملمات التى يتعرض لها أفراد العائلة بل من الحاجة إلى التسلط على الخوف ، فكلنا نخشى النكبات التى قد تجلبها علينا الحياة . وهذا التهديد يتمثل أيضاً فى الشخص الذى يفقد أحد أعضاء جسمه أو الذى تضيع ثروته . وحتى يتغلب الفرد على هذا الشعور الذى لا يمكنه إظهاره علنياً ، نجده يخفيه ويبين نقيضه مستخدماً جهاز الدفاع المعروف بجهاز رد الفعل ، والإنسان عادة يكره ما يخشى . فإذا كان الشخص الذى يحاول السيطرة علي الخوف بهذا النوع من الدفاع ، به أيضاً فى تكوينه أثر قوى من القسوة استخدم نفس الجهاز ضده . ويجب فى هذه الحالة أن يكون جهاز الدفاع قوياً ، لأن الدافع الواضح هو أن يبعد من أمام عينيه أو يقضى على ذلك الشخص الذى يثير خوفه وعداءه عن طريق إظهار نكباته. وكل هذا بدوره يثير الشعور بالجرم .

ومن المهم أن نبين هذا الفرق بين الرثاء لحال الغير والرحمة

بهم . فالرثاء بحال الغير يتضمن الشعور بالنقص فيهم ليمنع الشعور الأصلي بالعداء نحوهم من الظهور . أما الرحمة فليس فيها شعور بالعداء . إنها مثلا تدفع الرحيم إلى مساعدة الكفيف على تعلم القراءة ، والمسكين على تحسين حاله ، والمريض على نيل الشفاء ، والناقص فى شيء على استكمال نقصه . والرثاء يتحاشى الاتصال بالغير ، وينتحل المعاذير لصاحب العمل الذى يرفض استخدام الكفيف حتى ولو أثبت صلاحيته للعمل كغيره . وفى نفس الوقت يحمل صاحبه على تقديم المعونة المالية لمعهد المكفوفين — وهذه هى لغته السحرية التى يدفع بها الشعور بالجرم .

ومن الميسور أن نميز فى الرثاء بين درجات تتناسب عادة مع درجة خطورة موقف الشخص المرثى لحاله . ولكن هناك متناقضات فى هذه النقطة أيضاً . فإذا كان جزء الرثاء الموجه للمكفوفين سببه عدم القدرة على التحرك كان من المنتظر منطقياً أن يثير المصابون بالفالج قدراً أكبر من الرثاء ، لأن المفلوجين يلازمون الفراش ولا يستطيعون حراكا . وعندما أجرى استفتاء عن الداء الذى يفضله الناس فيما لو أجبروا على الاختيار ، جاءت النتيجة ضد كف البصر بالإجماع تقريباً . ولكن أهم من ذلك الفرق المبين فى الطريقة التى ينظر بها العالم إلى الأصم وإلى الكفيف .

الفرق بين النظرة إلى الصم والنظرة إلى المكفوفين : إن الموازنة بين الصمم وكف البصر تبدو عادلة فكلاهما حاسة تنقص الفرد وكلاهما هام وعام . إلا أن الاهتمام العام بالصم قل أن يشمل الرثاء . لأن الصعوبات التى تواجه الأصم تبعث على التأثر لا على الرثاء وتثير مايمكن أن يسمى بتعبير أحسن : القلق والتهيج . فالأصم يعانى ورطة اجتماعية أيضاً ولكنها تختلف فى النوع عن ورطة الكفيف . ومما يدل على أن المشاعر التى يثيرها كل من الصمم وكف البصر مختلفة فى أساسها أن الصمم يمكن أن يبعث على التفكه ، ولقد ظلت النكات المتعلقة بالصم تمد المسارح بمادة دسمة للمواقف المضحكة مدة طويلة إلى أن أوقف هذا الجزء من البرامج تحت ضغط المعنيين بالمشاكل الاجتماعية ، بينما لم يسمع قط أن المكفوفين كانوا موضع نكات فى أى مجال . على أن التقليل من قيمة حاسة السمع لا يوضح إلا فرقا فى الدرجة لا فى النوع ، لأن فقد السمع أمر خطير جداً تصحبه اضطرابات فى شخصية الأصم أكثر مما تصحب فقد البصر .

على أن الفرق فى نظرة الناس إلى كل من هذين النقصين الحسيين يعزى عادة إلى أن الصمم لا تراه العين وأما فقد البصر فظاهر للعيان فإذا عرفت أن إنساناً أصم فلا تزيد معرفتك هذه رثاء لحاله . إنما تؤدى فى الواقع إلى تهيجك عند ما ترى نفسك مضطراً إلى رفع صوتك لتسمع الأصم ما تريد أن تقوله له . أما المكفوفون فكتاباتهم عن

أنفسهم تجمع على أن الناس يرثون لحالهم جميعـــاً سواء منهم من كان حسن المنظر أو من كان مشوها .

الرثاء لحال المكفوفين

إن بيئة المـكفوفين مشبعة بالرثاء لهم لدرجة عظيمة ، ولذا وجب أن نفهم طبيعة الرثاء حتى نفهم بيئـــة المـكفوفين . إن الرثاء الذى يوجهه المجموع إلى المـكفوفين يقف حائلا بينهم وبين التـكيف . إنه يكسوهم برداء من الـكآبة والسقم ويعمـل على عزلهم من الهيئة الاجتماعية بتعزيز الخوف من الاتصال بهم . ومع ذلك فإن الأشخاص الذين تبدو عليهم ، أكثر من غيرهم ، الرغبة فى الالتقاء بالمـكفوفين هم أنفسهم الذين يبدون الرثاء لهم ، فالبعض من هؤلاء غرضهم التغلب على عامل الخوف الذى يحسونه عند اللقاء بالمـكفوفين ، والبعض الآخر غرضهم الاستمتاع بلذة الإعراب عن الرثاء لحال الغير ، ولذلك فهم يفرضون هذا الرثاء فرضاً على المـكفوفين حتى ولو قوبل بالرفض . فالرثاء يجعل المرثى له أقل شأناً ، وقد يشعر شخص بالحاجة الداخلية إلى وضع الغير فى مركز أقل من مركزه ويجد فى الرثاء الوسيلة المثلى لهذه الغاية ، لأنهـا تجد من المجتمع أعظم قبول واستحسان . ولقد يجد غير أولئك وهؤلاء لذة فى اقحام أنفسهم حيث لا يرغب فيهم . أو قد يكون تصرفهم هذا نتيجة لعمل الجهاز الدفاعى . على أننا

نرى بكل وضوح بذور السادية الأصلية فى هذه الحالات . وفى جميع هؤلاء الرائين يثير رفض الرثاء عامل الغضب . وليس من التناقض فى شىء أن يكون الإنسان قاسياً بالإصرار على إبداء إشفاقه .

أنواع باثولوجية[1] يقابلها المكفوفون

إن النوع الذى يقابله المكفوفون أكثر من غيرهم هو النوع العاطفى الذى يفرط فى إظهار إشفاقه عليهم . إن هذا النوع هو الذى يكتب الشعر عن المكفوفين ويمد الصحف بمقالات عنهم ويقود برامج الإذاعة الخاصة بهم ، وهو نوع يمكن معرفته ويسهل تجنبه . وقل بين من يقابل المكفوفين من يبدى تأثره بأسلوب عادى دون مغالاة أو انفعال إذا استثنينا من لهم بهم معرفة واتصالات شخصية . وهناك على الدوام عنصر حب الاستطلاع من جانب من يقابلون المكفوفين ، وبرغم ذلك فإن الشخص العادى عند ما يقابل كفيفاً يكتشف عدم صحة الآراء الشائعة عن المكفوفين مثل الكآبة والفراغ العقلى والعجز ، ومن ثم فإن هذا الشخص يسكن روعه وتصبح المقابلة عادية . ولكن بين الناس من لا يمكن أن يكونوا فى حالة عادية فى مثل هذا الظرف ، ويبدو عليهم بسهولة أنهم لا يستطيعون السيطرة على الخوف

(١) آثرنا أن نستعمل هذا الاصطلاح لأسباب علمية ومعناه « عاطفية » .

الذى يوحى به كف البصر فى نفوسهم . ويصل خوفهم هذا أحياناً إلى حد الهلع . مثل هؤلاء الناس هم الذين يخلقون الصعاب أمام المكفوفين الذين يحاولون التكيف .

وفيما يلى نقدم للقارىء أمثلة تؤيد ما ذكرنا إذا لم يكن قد أتيح له فرصة مثل هذه المقابلات ، فيظن أننا مدفوعون بعامل شخصى فيما نقول . وهذه الأمثلة وصلتنا رأساً من مكفوفين مروا فى هذه الاختبارات بأنفسهم :

(١) « فالسيدة » (م) عمرها خمسة وأربعون عاماً كانت تسكن هى وزوجها مدة طويلة فى طابق مرتفع فى عمارة سكنية بإحدى المدن . وندر من جيرانها من تعرف عليها طوال هذه المدة حتى جاء كفيف وزوجته وابنهما والكلب المرشد وأقاموا فى طابق أدنى فى نفس العمارة . ولم تتحدث السيدة (م) إلى الرجل وإذا قابلته فى المصعد أو فى أحد الممرات كانت تنزوى فى أحد الأركان زعماً منها أنه لم يكن يدرى بوجودها . إلا أنها كانت تراقب الكفيف من نافذتها كل يوم والكلب يقوده إلي عمله فى تفاهم تام . فما كان من تلك السيدة إلا أن أخبرت رجل الشرطة المعين لتلك المنطقة أنها لا تستطيع رؤية الكفيف وهو يعبر الشارع بكلبه وأنه يجب أن يصر ، إكراماً لخاطرها ، على أن يرافق الكفيف أثناء عبوره ولو بالرغم منه . ولما علم الكفيف بذلك أخبرها أن تعنى فقط بشئونها الخاصة ولا تتدخل فى شئون

غيرها ، وأنه ليس هناك ما يحملها على مراقبته من نافذتها . عند ذلك حنقت عليه السيدة وقالت إنها تعتقد أنه من الخطأ ترك المكفوفين يتعرضون لأخطار الطريق مع كلابهم على هذا النحو ، ثم هددته بأن تكتب المختصين قائلة إنه يسيء معاملة الكلب حتى يأخذوه منه . ولما سبب لها هذا التصرف متاعب مع جيرانها اضطرت زوجها إلى البحث عن مكان آخر وغادرت العمارة التي بها الكفيف .

(٢) السيدة « ر » وعمرها نحو الخمسين سنة كانت تسكن فى عمارة بها عائلة أحد من أصيبوا بفقد البصر أثناء الحرب . وكانت السيدة كلما قابلت زوجة الكفيف الشابة أخذت ترثى لبلواها بزواجها من كفيف وتمدح فيها نبل أخلاقها وتضحيتها . ولما تكرر هذا المرة الرابعة انفجرت زوجة الكفيف غضباً منها لحنقت عليها وأخبرت جيرانها بأنها واثقة من أن الزوجه الشابة لم تتزوج الكفيف إلا طمعاً فى معاشه . من هذا يتضح أن هذه السيدة لم يكن لديها شعور صحيح بالإشفاق .

(٣) السيد « ن » يعمل محررا فى جريدة ، وكان معه مساعد يكتب مقالات فيها مرح وفكاهة ساعدت على انتشار هذه الجريدة . وفجأه فقد الكاتب بصره نتيجة مرض تطور مع الزمن . وأراد الكاتب أن يتابع مقالاته إلا أن المحرر لم يكن راغباً فى ذلك لأنه

اعتقد أن الكاتب أصبح فى حالة لا تمكنه من الكتابة بروح المرح . وعندما قيل له إن الرجل قادر على استخدام الآلة الكاتبة وعلى متابعة عمله بمساعدة سكرتير ، اقترح المحرر عليه أن يبدأ بابا جديداً مختلفاً فيكتب معقبا على مصائب الحياة . فما كان من الكاتب ، الذى لا يمكنه أن يعالج المصائب إلا بطريقته المرحة ، إلا أن ترك عمله ليلتحق بجريدة أخرى .

(٤) السيدة « و » وعمرها ثمانية وثلاثون عاماً . كان لها ولد عمره عشر سنوات أصيب بمرض خطير فى عينيه وقرر الطبيب لزوم إجراء عملية جراحية للولد ولكن بعد مضى بعض الوقت . فمنعت الأم الولد من اللعب مع الأطفال وأبقته داخل جدران غرفته. ولم يستطع أحد إقناعها بإلحاقه بمدرسة داخلية إما بسبب خوفها عليه من نتيجة اختلاطه بالأولاد المكفوفين وإما لأنها هى كانت تشعر أن بقاءه فى البيت يسد حاجة شخصية فى نفسها . وبدا أن قلقها كان مبالغاً فيه فقط ولم يكن من النوع الحاد . إلا أن الولد بسبب تصرف الأم حاول الانتحار . فاستدعى مشرف اجتماعى لدراسة الحالة . وكان كل واحد يظن أن تصرف الطفل جاء نتيجة لتفكيره فى حالته المؤلمة . ولكن أظهرت دراسة الحالة أن الولد بمحاولته الانتحار إنما قصد أن يعاقب الأم «وهو عقاب حل محل قتل الأم» التى كانت تعتقد أن مرض عينى الولد كان وراثة من ناحية أسرة الأب . ورفضت بازدراء الرأى القائل بأنها هى التى دفعت الولد بتصرفها معه فى هذا السبيل . ولم

تحل هذه المشكلة إلا بعد أن نقل الولد من البيت .

(٥) السيد « ج » وعمره ستون عاماً ، وكيل أعمال ظل يؤدى لأحد عملائه خدمات عادت عليه بالربح سنوات عديدة . وحدث أن فقد العميل بصره فجأة فرفض الوكيل أن يستمر فى القيام بخدمته بالرغم من إلحاح الموظفين عليه ونقدهم لتصرفه . وبلغت به الحال مرة أنه هرب من السلم الخلفى للمبنى حتى لا تقع عيناه على العميل الكفيف لأن مجرد التفكير فى لقاء الكفيف كان كافياً لأن يسبب له اضطراباً وانزعاجاً .

(٦) والسيد « ل » مواطن يهتم بالصالح العام ، وتقدم باقتراح لمدير إحدى الهيئات المهتمة بأمر المكفوفين بمدينة نيويورك . وكان مؤدى الاقتراح ألا يصرح للمكفوفين بالظهور فى شوارع المدينة فى ساعات ازدحام الشوارع بالمارة خوفاً عليهم من خطر الحوادث، وأن يصرح لهم بالسير وحدهم أو بمساعدة الكلاب المرشدة فى ساعات معينة فقط . ولما رفض المدير الاقتراح استاء المواطن استياءاً شديداً .

إن أولئك الأشخاص الذين يظهرون تفضيلا ملحوظاً لمرافقة المكفوفين معروفون جيداً لهم . فإنهم يتحدثون دائماً عنهم لدرجة أنه يصعب أحياناً على المكفوفين تحويل مجرى الحديث إلى أية ناحية أخرى . ولنقدم للقارىء مثلا واحداً يكفى لإظهار ما نريد .

(٧) السيدة « هـ » عمرها خمسة وثلاثون عاماً وكانت تعمل بإحدى المؤسسات الاجتماعية . ثم افتتنت بعمل فى مؤسسة المكفوفين فطلبت أن تنقل إليها نهائياً . وأصبحت لا تختلط إلا بالمكفوفين تقريباً ، وكانت تقول : إن السلام الحقيقى والقناعة الصحيحة لا يوجدان إلا بين المكفوفين . ولم تكتف بهذا بل طلقت زوجها وتزوجت من كفيف .

فى الواقع لا يمكن استخلاص حكم سيكلوجى عام من حادث كهذا . إنما ما يبرر دراسته كأى مرض آخر هو الضوء الذى يلقيه على نوع التصرف العادى وما يجب أن يكون . إن هذا النوع من الناس يسبب المتاعب للمكفوفين لدرجة أنه يوجد ميلا قوياً إلى الحكم على عالم المبصرين بما يفعل أولئك. وهذا الحكم قد يولد شعوراً عدائياً جداً . فأولئك المكفوفون وبخاصة الطبقات الدنيا كباعة الجرائد مثلا الذين يقابلون الجمهور يومياً معرضون لأن يكونوا فكرة غير ملائمة عن المجتمع .

إن هذا النوع من التدليل يعلمنا أن نحذر من التعميم الذى يتبعه الناس فى إبداء الأسباب التى تدعوهم إلى الرثاء لحال الغير . ويجب أن يعلمنا بنوع خاص أن نحذر من نسبة أية فائدة أدبية لهذا الرثاء . فإن فى الأمر شيئاً أعمق من الغباء أو الجهل ، كما هو ظاهر من حالة

السيدة « هـ » مثلا ، فمع أن اهتمامها كان بادى النفع اجتماعياً . فإننا نستطيع إدراك وجود عنصر مرضى فى الحالة .

على أن جزءاً من معرفة السبيل إلى التكيف الناجح يقوم على تعلم اكتشاف الحالات المرضية بسرعة والتفرقة بين الرثاء المقبول عرفاً وبين ما يفرض على المستمع سواء أقبله أم لم يقبله . والسرعة التى بها يتعلم بعض المكفوفين تشخيص الحالة تشخيصاً دقيقاً (مع أنهم قد لا يستعملون لغة علمية) قد أكدت الخرافة الخاصة بقوة بصيرتهم الفائقة . وللمؤلف الأول لهذا الكتاب اختبار يذكره من هذا النوع . فقد ارتبط مرة بعقد لكتابة سلسلة محاضرات تذاع بالراديو يتولى تقديمها شخصية معروفة . وقد دهشت تلك الشخصية إذ عرفت أن الكاتب كفيف ولكنها قبلت الاتفاق على الفور واستمرت بضعة أسابيع تمتدح المقالات فوق ماتستحق . أما الكاتب فتنبأ للمدير بأن الاتفاق سينتهى نهاية سيئة لأن الشخصية المعروفة لم تكن تشعر أن فى مقدروها انتقاد الكاتب . وبعد ثلاثة أشهر أنهى العقد فجأة بسبب مشكلة بسيطة من النوع الذى يمكن حله عادة فى مقابلة قصيرة . فتعجب المدير من قوة بديهة الكاتب . إلا أنه من حسن الحظ أنه يوجد أناس متزنون ناضجون يساعدون المكفوفين على التكيف فيقدمون لهم أصدقاء حقيقيين يعينونهم على تثقيف أنفسهم ليصبحوا جزءاً حقيقياً من المجتمع .

الانفعال النفسي عند المكفوفين

هل لدينا معلومات مؤكدة تثبت أن العجز البدني يثير في حد ذاته انفعالا نفسياً ؟ وكيف نعرف بنوع أخص عن يقين أن فقد البصر يسبب انفعالات نفسية شاملة من النوع الذي يقال إنه يصحب هذا النقص الجسمي ؟ .

إن الدليل الخارجي الذي يبدو على المكفوفين من حيث المظهر والتصرف والحالة العامة وحتى مايبدو من التعبيرات المقتبسة في مطلع هذا الفصل يجب أن توزن بعناية . إن المكفوفين يعيشون في مجتمع له معتقدات راسخة عنهم . ولذا يجب أن يشتركوا هم في تقديرها وتقيمها . فالشخص الذي يفقد بصره ويروح في هوة عصبية عميقة يعقبها شعور بالكآبة والحزن يمثل نوعاً معيناً من الناس ، ويجب إلى حد ما أن يكيف الصدمة وفق القيم التي تعلمها .

إن الطفل الحافي القدمين لا يشعر أنه ينقصه شيء إذا كان كل من حوله حفاة ، ويؤيد هذا الرأي هـ . جـ . ولز (H. G. Wells) في كتابه « بلاد المكفوفين » إذ يقول إن فقد البصر في تلك البيئة لم يكن بعد مصيبة بل على بالعكس كان أمراً عادياً .

إلا أن التفكير على هذا الأساس لا يقنع أحداً فمثلا كتسفورث

الذى ينبع اهتمامه بمشكلة الانفعال النفسى فى حالة فقد البصر من كونه كفيفاً وعالماً نفسياً ، بحث الموضوع بحثاً عميقاً وأدت أبحاثه إلى هذه النتيجة القاطعة : وهى أن النقص البدنى أو الطبيعى لا يمكن أن يؤدى إلى انفعال نفسى أبداً . فالحيوانات التى فقدت بعض أعضائها بسبب التجارب التى أجريت عليها تكيفت فى الحال تقريباً لتستأنف الحياة دون أن يبدو عليها أى انفعال ملحوظ . إلا أن غيره من الباحثين يشكون فى مدى انطباق توكيداته فنجد مثلا أن يركز (Yerkes) يقرر أن فقد البصر فى القردة يمكن أن يسبب لديها شعوراً بالكآبة .

على أنه يمكن غض الطرف عن الخلاف حول هذه النقطة إذا أدركنا أن السؤال الهام ليس هو ما إذا كان العجز يثير انفعالا نفسياً أم لا ، بل ما إذا كان يثير شعوراً يجعل أى جهاز فى الجسم يوقف مجهوده أو رغبته فى الحياة . والجواب على هذا السؤال هو أن غريزة المحافظة على الحياة بوساطة كل الوسائل التى تبقت لدى الجهاز كفيلة بأن تكون لها الغلبة . وفى كل ما كتب عن «العجز التجريبى» وهو كثير ، ليس هناك دليل معروف عند الأخصائيين الذين شاورناهم بأن كف البصر أو الصمم أو بتر أى عضو قد نتج عنه كبت إرادة الحياة ..

وكذلك المشاهدات فى العالم الأوسع ، عالم الحقل والنهر وما إليهما

لاتخالف نتائج المعمل . فالكلاب والقطط والسمك والعصافير تواصل جهادها للحياة بغض النظر عما يحدث لها . وعندما تجد أن محاولاتها غير مجدية وأنها لا تستطيع مقاومة بيئتها تموت بعد أن تحاول محاولة اليائس إلى النفس الأخير .

وليس هناك سبب معقول يدعو إلى الاعتقاد بأن شيئاً يحدث فى الإنسان إذا فقد بصره يوقف فيه عمل غريزة حب البقاء . ومهما يكن شعوره عند فقد البصر ، سواء أكان هذا الشعور نتيجة لمغالاة المجتمع فى تقدير ظرفه أو لأنه طغى عليه من تلقاء نفسه ، فإننا لا نجد أمامنا إلا الاعتقاد السائد الذى مؤداه أن الانفعال يكبت التكيف . غير أنه لا يوجد هناك سبب معقول للاعتقاد بأن الانفعال مهما كان مصدره يستمر طول الحياة . ذلك أن تكوين الإنسان عقلياً وجسمياً لا يمكن أن يستمر تحت وطأة نوع من الانفعال النفسى كالذى ينسب إلى فقد البصر . ومن ناحية أخرى إن وجد الانفعال فسرعان ما يتغير أو يتلاشى أثناء عملية التكيف ، والحزن عموماً له نهاية ، والإنسان يدرك هذه الحقيقة فى ظروف ومناسبات أخرى غير كف البصر . ؟ فإذا بدا أنه لن ينتهى فى بعض الحالات بحث الإنسان عن مرض نفسى خطير ، كما سنرى فيما بعد .

وهناك اعتقاد شائع آخر وهو أن الانفعال النفسى العميق لا بد أن يؤدى إلى الانتحار . ومع أنه من الغريب أن الكفيف لا يحاول

التخلص من الحياة بسبب الظروف التي يعيش فيها حتى في يومنا هذا، فإننا استطعنا أن نقف على مشاهدات مدهشة عن هذا الموضوع . ولأننا عجزنا عن الحصول على إحصاءات فقد رجعنا إلى عدد من المعروفين بخبرتهم الطويلة في ميدان العمل مع المكفوفين . فتقرير ماري كامبل (Marv Campbell) التي شاهدت أكثر من ٤٠٫٠٠٠ حالة في مدة تربو على الخمسين عاماً يقرر بأنها لا تذكر أكثر من حالتي انتحار طول هذه المدة . والدكتور روبرت اروين (Dr. Robert Irwin) الذي ظل مدة طويلة رئيساً للجمعية الأمريكية للمكفوفين لا يذكر إلا أربع حالات انتحار . وأما الدكتور برثولدلوينفلد (Berthold Lowenfeld)، الذي خبر العمل بين المكفوفين في قارتي أمريكا وأوربا والذي نال الدكتوراه في علم النفس ، مما يجعل لدقة مشاهداته وزناً خاصاً ، يقول إنه لا يذكر إلا حالة واحدة فقط . وهناك ثلاثة آخرون ، امتدت مدة خدمتهم مجتمعة معاً بين المكفوفين أكثر من سبعين عاماً وشملت أكثر من ٣٠٫٠٠٠ حالة ، هؤلاء لا يذكرون أنهم صادفوا حالة انتحار واحدة . إلا أن هؤلاء جميعاً يقررون أنهم يذكرون جيداً حالات انتحار عند توقع فقد البصر ، ولكن هذا موضوع آخر جد مختلف عن القول بأن الانفعال النفسي الناشيء عن كف البصر يؤدي إلى الانتحار . فيبدو واضحاً إذن أن حالة فقد البصر ليست فوق طاقة احتمال الناس كما يزعم الكثيرون .

على أن كتسفورث يقول بكل وضوح إن المكفوفين لهم مشكلاتهم النفسية ، ولكن هذه الصعوبات ليست ناشئة عن حزنهم بسبب عدم قدرتهم على النظر . ثم يضيف قائلا إن البحث فى حياة المكفوفين يدل على أن اضطراباتهم النفسية الخاصة سببها حالتهم الاجتماعية وليس حرمانهم من نعمة البصر . ثم يذهب إلى أبعد من هذا فيقول إنه خلال السنين الطويلة التى قضاها فى الأبحاث الإكلينيكية كان من الصعب أن يجد أى دليل على أن فقد البصر فى حد ذاته يسبب اضطرابات نفسية . وأما الإصرار على أن المكفوفين يجب أن يشعروا بالكآبة بسبب عدم قدرتهم على الإبصار فيقول عنه كتسفورث إن كثيرين من المكفوفين شعروا بأنه كان يجب أن يملأ صدورهم الحنين إلى نعمة البصر وأنه من الغريب أنهم ليسوا مضطربين نفسياً بسبب ذلك .

خيبة الأمل والاستياء

هما مصدر الانفعال النفسى

يبدو لمعظم المبصرين أنه من المستحيل ألا يسبب فقد البصر شعوراً عميقاً مستمراً بخيبة الأمل ، مقرونة ربما بالغيظ ، والتى تثير الانفعال الذى يقال إنه يصحب كف البصر .

إن هناك أشياء كثيرة لا يستطيع الكفيف أن يقوم بها ،

ويظهر أن القائمة الطويلة للأشياء التى يستطيع عملها لا تكفيه بديلا . ومجرد النظر إلى الكفيف يوحى إلى البعض منا بأنه لا بد أن يشعر بالعجز والقنوط . ويظهر أيضاً أن هناك من العلامات ما يكفى دليلا على أن المكفوفين يكرهون الحالة التى هم فيها . وفى الواقع أنه يبدو أمراً لا يصدق أن هناك من لا يخامره هذا الشعور على الدوام .

إن المبصر إذ يحاول أن يتخيل حياة الكفيف يتصور أن كل يوم يمر به إن هو إلا تكرار لليوم السابق ، وأن المضايقات التى تصادفه تتجدد كل يوم بنفس الشعور الذى صحبها فى بادىء الأمر ، كأن القدرة على حل المشكلات تبقى على مستوى واحد لا تزيد . إلا أننا قد لا نعرف أو قد ننسى ، فى حالة كف البصر ، أن التكيف عملية مستمرة ، وأنه عند حدوث تغير كبير فى نظام الحياة ترتفع القدرة على التكيف إلى مستوى أعلى لتصبح طريقة مجابهة الموقف الجديد عادية يترتب عليها التوازن بين التصرف الإرادى واللاإرادى .

ومن المعلوم أن المخلوق البشرى السليم يعتاد على كل شىء ، ويصبح تصرفه عند مواجهة موقف جديد عادة . فما كان يسبب ضيقاً عند فقد البصر تتغير نظرة الكفيف إليه بعد سنتين . والانفعالات التى كانت تسببها المضايقات الأولى تتحول إلى ناحية الجزء اللاإرادى بسبب التعود عليها .

والمقارنة بين الإنسان والفأر الذى تجرى عليه التجارب فى المعامل

ليست صحيحة لأن الفأر الذى ينهار عند ما تخور قدرته على مواجهة موقف صعب جديد إنما يفعل ذلك لأنه يواجه موقفاً جديداً كل مرة . لا موقفاً متكرراً يمكنه التعود عليه فيتعلم طريقة التغلب على المضايقة التى تصحبه . وكذلك الإنسان ، سواء أكان كفيفاً أم مبصراً ، إذا أصابته مواقف جديدة تسبب متاعب جديدة باستمرار لا بد أن تتحطم قواه فى نهاية الأمر . ولكن مهما تكن صعوبة الموقف عند بدء كف البصر ومهما يكن الشعور بخيبه الأمل الذى يترتب عليه ، فإن هذا الموقف لن يكون جديداً كل يوم بل يتكرر بذاته ويصبح مألوفاً ، ولذا تزداد قوة الكفيف النفسية على مجابهته .

أما عن الشعور بالغيظ الدائم الذى لا يرى فإننا فى حاجة إلى فهم مصدره الحقيقى لندرك أنه يوجه دائما إلى الأشخاص لا إلى الأشياء . فالطفل الصغير وهو يختبر حقيقة البيئة التى يعيش فيها يتعلم أول ما يتعلم أن الأشياء لا تعطيه ما يريد ، فالحوائط والكراسى والأبواب لا يمكن أن يخترقها بل عليه أن يمشى حولها . والعقل السليم يجب أن يدخل حقيقة الأشياء (عدم إمكان اختراقها) فى حسابه . أما الأم وغيرها من الناس فلديهم ما يعطون . ويمكن عن طريق الإقناع والملاينة أن يغيروا موقفهم . ولذا يحدث التمييز بين الأشياء والناس الذين تقع عليهم مسئولية ما يبدو على الأشياء من عداء . فالطفل الذى تحبسه أمه فى الغرفة وتغلق عليه الباب ، يرفس الباب بقدمه فى

غيظ . وهو بعمله هذا لا يقصد الباب فى حد ذاته ولكنه يقصد الأم التى أغلقت الباب عليه . وإذا قدر له أن يوضع فى « زنزانة » السجن فيما بعد ، فسيرفس الباب ويدق الحائط حنقاً وغيظاً ولكنه فى الواقع لا يدق الحائط بل ينتقم من القاضى الذى أودعه السجن والصديق الذى شهد ضده وربما أمه التى تخلت عنه وأوجدته فى هذا المأزق . وإذ يجد نفسه هالكا فربما يلعن نفسه بسبب جهله الذى أوصله إلى هذا المصير . ولكنه لا يلوم نفسه كما يظن بل يلوم شخصاً آخر يكون قد زين له ركوب هذا المركب الخشن . ويقول مالف (Malev) إن التحليل النفسى يثبت مراراً وتكراراً أن لوم الإنسان نفسه عن الفشل والمضايقات والكراهية المزعومة لظروف شخصية يمكن إرجاعها إلى شخص آخر كان له منذ زمن تأثير على نفس المريض فأصبح جزءاً لا يتجزأ من شخصيته الحاضرة وهذا الشخص الآخر هو الذى يلقى عليه المريض اللوم .

ولما كان فقد البصر « شيئاً » وليس شخصاً ، فإنه إذا أصبح دائماً ولا مفر منه فالكفيف يكيف نفسه وفقاً له ، كما كان يفعل مع الكراسى والحوائط وهو صغير . وفى حالة الشخص المولود كفيفاً فإنه لم يكن يدرى عن حقيقة كف البصر شيئاً إلا بعد أن أخبره غيره به . وكف البصر كغيره من الأشياء قد يسبب ركلا ودقا موجهين إلى أشخاص . ومن المحتمل أن المكفوفين الذين يشعرون

بخنق حقيقى ضد الشيء (كف البصر) يستطيعون بوساطة التحليل النفسي أن يجدوا أنه موجه أصلا إلى أشخاص. ومن هؤلاء الأشخاص قد تكون الأم على زعم أنها لم تستشر الجراح المناسب ، أو الأب الذى رفض أن يدفع الاجر المكافىء للجراح المناسب ، أو الطبيب الذى زلت يده أثناء إجراء الجراحة ، أو صاحب المصنع الذى قصر فى اتخاذ إجراءات الوقاية ، وهكذا .

وإذا تتبعنا أعراض الخنق إلى نقطتها المركزية وجدنا دائما أنها تتسبب عن موقف أو سلسلة من المواقف الاجتماعيـــة التى سببت للكفيف غضباً حقيقياً .

وإذا قابلنا كفيفاً يسخر دواما من حالتـه تساءلنا عمن يريد الكفيف أن يؤثر فيه بهذه السخرية ، وعلى من يريد إلقاء التبعـة مما يعانى . إننا نجد فى العبـارة التى اقتبسناها فى صدر هذا الفصل إصراراً سقيما على التأثير فى شخص ما أو جماعة ما بمـا فى الموقف من آلام مزعومة . فالكاتب يضرب على هذه النغمة بكل ما أوتى من قوة . وكأننا به يتساءل : من الذى كان السبب فى كف بصره ؟ أهى أمه ، أم شخص آخر ، أم القدر ، أم الله ، فهو يريد أن يجعل الشخص يعرف ذنبه ، وفى غيظه هذا نجـد السبب للانفعال الحقيقي الذى يعانيه .

إن الموقف الاجتماعى الذى يواجهه الكفيف دوما ملىء بأسباب

الغيظ . فالـكفيف المدرب والقادر على أن يكون نافعاً فى حياته يقدم له الإحسان بدل الفرصة لإعالة نفسه عن طريق العمل الذى يصلح له. هذا الـكفيف يملؤه الشعور بخيبة الأمل المستديم لأن كرامته مجروحة. ومع أن الهدف من الغيظ واضح مكشوف إلا أن كثيرين لا يصوبون غيظهم نحو الهدف بل نحو الشيء (فقد البصر) . والحقيقة أن الهدف هو الأشخاص الذين يعترضون سبيـله ولا يمكنونه من أن يكون كما يريد أن يكون .

نستنتج ممـا تقدم أن كل شخص يحاول إيجاد أسباب بدنية لـكل نوع من أنواع الـكآبة والضيق يقع فى متناقضات كثيرة . فإنه حتى فى حالات الـكآبة التى تصحب أحياناً التغيرات الهرمونيـــة فى دور المراهقة ، وهذه بلا شك أسباب جسمية ، يبدو محتملا لدى كثيرين من الثقاة أن عوامل الشخصية التى تعبئها هذه التغيرات الجسمية والتى لا تمت إلا بسبب بسيط إلى التـكوين الجسمى ، هى التى تثـير هذه المشاعر بطريق مباشر . علاوة على ذلك فإن الشعور بالـكآبة الذى يصحب التغيرات الهرمونية لا يدوم إلا إذا كانت هناك علة أخرى . وما يسمى بالـكآبة الأولية التى تحدث فى دور الطفولة سببهـا خوف الطفل من أن يترك ويهمل . وإذا نظرنا إلى الموضوع من ناحيـة منطقية بحتة بدا لنـا غريبـاً أن الجسم الذى تدفعه الغريزة إلى حب الحيـاة هو نفسه بسبب حالات تثير رغبـات هى والغريزة على طرفى

نقيض . وأخذ علم التحليل النفسى يسقط بالتدريج معظم أصول المرض السوداوى من الاعتبارات الجسمية البحتة . فالمعتقد الآن أن بعض الأمراض العقلية سببها كراهية المريض لشخص ما ، كأحد الوالدين مثلا ، وكبت هذه الكراهية بطريقة فعالة جعلتها بعيدة عن متناول العقل الواعى ووجهها إلى نفسه توجيهاً كلياً لدرجة أنه قد يحاول التخلص من هذه الحالة بالالتجاء إلى الانتحار . ومعالجة هذه الحالة تتطلب رفع الكراهية المكبوتة إلى السطح واعتبارها سبباً مشروعاً أو غير مشروع لهذه الكراهية .

ومن المهم أن نلاحظ أن الغيظ الشديد قد يسبب حالات انقباض للشخص المحنق ، فالكبت الذى يعيش تحته المكفوفون يحول دون تنفيسهم عن أنفسهم بأساليب يسرف فيها المبصرون . فإذا أرادوا أن يعلنوا شيئاً له علاقة بحالتهم التى يعيشون فيها فيجب أن يكون كف البصر نفسه ، وقد يكون كتسفورث على حق فى قوله إن الكفيف الصريح اجتماعياً هو أحسنهم تكيفاً نفسياً ، وهو رأى قد لا يوافق عليه بعض الأخصائيين والاجتماعيين .

ولنعد إلى موضوعنا الأساسى ، فنقول إنه ليس محتملا أن يكون الجمهور على حق فيما يتصور عن طبيعة حياة المكفوفين من الناحية النفسية . فلماذا يصر الناس على الاعتقاد بأن هناك شعوراً خاصاً يصحب فقدالبصر ، مع أنها حالة لم يختبروها ؟ إذا فزنا بالجواب

على هذا السؤال فربما استطعنا فى النهاية أن نقف على السبب الذى من أجله يوضع المكفوفون بمعزل من غيرهم فيما يتعلق بالخبرة والتجربة الإنسانية ، وقد نجد فى النهاية أن السبب كامن فى الجمهور نفسه .

مركب الخصاء

أبدى وليم ألانسون هوايت (William Alanson White) المحلل النفسى الأمريكى العظيم ، أثناء محاضرة له عن آراء فرويد التى أذهلت العالم حينا وأفزعته حينا آخر ، ملاحظة فقال إن أكثر آراء فرويد إزعاجاً هى أقربها إلى الصحة . فرأيه القائل بأن الخوف من الخصاء هو أحد القوى الأولية الدافعة للإنسان المتحضر وقع فى نفوس معظم الناس موقعاً مزعجاً . وقد كان من سوء الحظ أنه اختار هذه الكلمة لأنها تدل على معنى أضيق بكثير مما قصد . لأنه لم يقصد بالخصاء مجرد استئصال الخصيتين ، بالرغم من اعتقاده بأن الخوف كقوة دافعة متصل أصلا بالجنس ، ولكنه قصد معنى يشمل القدرة الجنسية من وجهة عامة حرفية ومجازية .

ولم يكن فرويد أول من جال بخاطره أن معظم قدرة الإنسان (إن لم يكن كلها) على تقدير الجمال أصلها فى القدرة على إبقاء النوع ، وأن الحافز الجنسى فى الرجل مستمر وليس دورياً .

فكثيرون يعتقدون أن كل قدرة الإنسان على تقدير الجمال منبعثة من القدرة الجنسية المستمرة ، على أن فرويد ذهب أبعد من غيره فقال إن للغريزة الجنسية أثرها حتى فى سن الطفولة ، ولهذا السبب لقيت آراؤه كثيراً من المقاومة . وفى رأيه أن الخوف من الخصاء معناه الخوف من فقد القدرة على السعادة .

إن الخوف من فقد القدرة الجنسية يعجل بحالات الكآبة والضيق . وفى بعض الناس قد تثير هذه الحالات الأمارات البسيطة الدالة على دنو الضعف الجنسى كتسرب البياض إلى الشعر .

على أن الشعر مثل مناسب للمعانى الجنسية التى يتخذها الإنسان منه ، وكثير منها غير معقول ، مع أنه ليس هناك سبب يجعل الشعر يعد رمزاً على القدرة الجنسية إلا السبب النفسى المتأصل فى الإنسان ، فالناس عادة يخلقون علاقة بين الشعر والقدرة الجنسية . فمثلا نجد هذه العلاقة فى قصة شمشون ، الذى كانت قدرته فى شعره ، وكذلك الرسامون يرسمون الأشخاص ذوى الحيوية الجنسية والشعر يكسو مواضع كثيرة من أجسامهم . والراهبون والراهبات سواء فى الشرق أو الغرب يحلقون رءوسهم علامة على زهدهم فى الحياة الجنسية ، مع العلم بأن السيدات بنوع أخص يحرصن كل الحرص على الاحتفاظ بشعورهن ويعتبرنها رمزاً على أنوثتهن .

لقد أبنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب كيف أن النظر مرتبط بالناحية التناسلية فى حياة الإنسان . وكثيرون هم الذين يجعلون للعين أهمية مباشرة فى العلاقة الجنسية . فإذا كان الأمر كذلك فإن فقد البصر يجب أن يتساوى على الأقل مع الخصاء الجزئى ، والأشخاص الذين تعودوا أن يعتمدوا فى تقديرهم لجمال الجنس على النظر لا مفر لهم من اعتبار فقد البصر كأنه خصاء كامل .

ومجمل القول دون أى تزويق هو أن التفكير فى كف البصر يثير المخاوف فى مركب الخصاء فى الإنسان . وإذا بدا هذا الاستنتاج غريباً أو خيالياً ، فهكذا يجب أن تبدو العناصر التى كنا نحاول آن نجد لها إيضاحاً . فإن أصدق جهود المكفوفين لم تستطع أن تقتلع من الناس الاعتقاد الراسخ عما يصيبهم من غم وكآبة ، والارتباط الوثيق الذى يضعونه بينهما وبين الخوف من فقد القدرة الجنسية ، فإذا سلمنا أن البياض فى الشعر هو علامة تافهة فى ذاتها تسبب الاضطراب الذى نعرفه ، فيكون كثيراً أن نسلم بأن مثل هذه الاضطرابات تحدث عند التفكير فى كف البصر . إننا دون الوصول إلى هذه النتيجة تصبح الخرافة الخاصة بفقد البصر لا معنى لها .

وإذا تأملنا مرة أخرى فى اختلاف النظرة إلى كل من المكفوفين والصم وجدنا تأييداً آخر للنتيجة التى توصلنا إليها أن الاختلاف ناشىء عن أن الصمم غير مرتبط بالحياة الجنسية . والصمم لا يثير المخاوف

غير المعقولة ولا يستدر الرثاء ، لأنه لا يوجه ضربته إلى الناحية العاطفية فى الإنسان .

إن العاجزين جنسياً سواء كان هذا العجز بسبب جراحة أو زهد فى الأمور الدنيوية ، كان ينظر إليهم كأنهم ليسوا جزءاً من المجتمع ، وكانت مشاعرهم وعواطفهم تختلف عن مشاعر الناس وعواطفهم وكأنهم أقل قوة ومادية من سواهم . ومع ذلك فهناك تناقض فيما ينسب إليهم من صفات . ولذلك يظن أنهم ، ولا سيما الخصيان ، قد خلوا من المشاعر إلى درجة كبيرة وأنهم قساة القلوب.

ومن آراء فرويد يمكن أن نقرر الأهمية الأساسية لفقد البصر كقصاص إلهى . على أن هذا يمكن تركه للأخصائيين ، بينما يقنع غيرهم بالدليل الذى تقدمنا به حتى الآن . أما إصرار العالم على ربط الانفعال النفسى الذى يعانيه المكفوفون بحقيقة كف البصر ذاتها فما هو إلا إعراب عما يحس به نحو المكفوفين . فالإنسان يصور كف البصر حسب شعوره هو ، فيلصق به صفة الكآبة والغم ويبث هذا الشعور فى نفس الكفيف سواء أراد أو لم يرد . أما المصاب بفقد البصر عرضاً فيساهم فى هذه الآراء إما لأن فكرة كف البصر تولد فيه الخوف من العجز الجنسى وإما لأنه ورث هذا الاعتقاد العام عن غيره . وإلى هذا تعزى معظم الهزات العنيفة التى تصيبه عند فقد

البصر فعلا . وعندما يكتشف أن كف البصر ليس معناه فقد القدرة الجنسية حقيقة أو خيالا يخطو خطوة كبرى نحو الشفاء . ويحس حينئذ بجهل الناس المطبق ، ولكنه إذا أراد أن يبين ذلك لهم فلن يصدقه أحد . على أن الكفيف يحس بعطف أخيه الإنسان عليه ويقدره . وفيما يراه فيه من دليل على حسن النية والمحبة يجد أكبر تعويض عن فقد عنصر هام فى الحياة . أما الرثاء فيدركه على الفور، فهو قسوة مستترة ومتولدة عن الخوف ، تهدم ما يبنيه العطف والرحمة .

إن الشفقة تجد رمزاً لها فى الكفيف الذى ، بعد مغادرته المدرسة التى تعلم فيها ، يمشى بخطوة ثابتة وسرعة متزنة نحو غايته التى ينشدها ألا وهى أن يحتل مكانه بين المبصرين . أما الرثاء فيتمثل فى ذلك المتسول الذى يذرع الطرقات بملابسه الرثة وعلامات البؤس بادية على وجهه ، ويحمل آلة موسيقية مثبت بها صندوق صغير معدنى يلقى فيه المارة ما تجود به نفوسهم . وهذا المسكين يمر بين الجموع وفى قلبه كراهية لنفس الأشخاص الذين تهز مشاعرهم مأساته الأليمة ، وفى نفسه تصميم على أن يستولى منهم على كل ما يستطيع مظهره هذا أن يخرج من جيوبهم . وهو إذ يسير هنا وهنالك يوقظ وهو يعلم أنه يفعل ذلك حافزاً من أقدم

الحوافز فى الإنسان ، ألا وهو استعطاف الأقدار . فمشاعر الإنسان الذى يلقى قطعة نقود صغيرة فى صندوقه المعدنى ليطهر نفسه ويخفف من ضغط الخوف الذى يملأ صدره لا تختلف فى نوعها عن مشاعر ذلك الأثينى الذى ألقى للمتسولين المكفوفين درهما فى ساحة السوق . إن كلا التصرفين ، كما يقول جيكل ، لفتتان سحريتان .

الفصل السابع

البيئة والأعراض

العنصر الثابت فى البيئة :

ربما يبدو الآن أن الرأى الذى تقدمنا به فى الفصل الأول عن بيئة المكفوفين والعنصر الثابت فيها ، ليس مبالغاً فيه . أما هذا العنصر الثابت فهو عبارة عن مجموعة من المعتقدات والمشاعر التى لم يطرأ عليها إلا تغير بسيط على مر الزمن وتطور الثقافة . ولقد اكتسبت قوة الاستمرار من طول وجودها . وعلى كل كفيف أن يدخلها فى حسابه عامداً أو غير عامد . فكون المكفوف يستطيع أن يحتل مكاناً بجانب المبصر فى مجتمعنا لا يدل على أن العنصر الذى نحن بصدده قد فقد قوته أو معناه . صحيح أن بعض العناصر الخرافية فقدت قوتها ولكن أكثر من هذا نجد أن الاندماج لا يقصد به إلا أن يقدم المجتمع الديموقراطى لكل وجل على الأقل فرصة للكفاح يبرهن بها على أنه فرد قائم بذاته لا ممثل لنوع خاص . وليس هذا بالأمر اليسير على الكفيف . ففى الواقع أن درجة إصراره على أن يحتل مكانه فى المجتمع تقرر مقدار حدة صراعه .

على أن العامل الأساسى فى هذا العنصر الثابت فى البيئة هو أن الكفيف منسوب إليه النقص . فكما رأينا ، هناك إنكار لقدرة الكفيف من الناحية البدنية ، وشك فى قدرته على الفهم ، كما أن هناك من يزعم أن به اضطراباً نفسياً . وهو إن يحاول أن يندمج فى المجتمع يواجه هذا النقص فى كل حركة بطريق مباشر وغير مباشر ، وحتى مايبديه الغير من تعجب لما يظهره من قدرات أو اتزان اجتماعى ، يرى فيه عدم الثقة ويدرك أن ما يقوم به لا يصلح علاجاً للموقف .

والنتيجة المنطقية أننا نتوقع وجود رد فعل من جهة الكفيف مماثل لهذا الضغط الدائم من ناحية البيئة ، فالمخلوق البشرى يرفض نسبة النقص إليه ، وإن قبله فى الظاهر فإنه فى دخيلة نفسه كمرجل يغلى امتعاضاً ، ولذلك أعراض ، إما إبداء الرغبة فى الهروب أو الإصرار على إنكار الحقيقة .

فبين من ينسب إليهم هذا النقص نجد المهملين ومدمنى الخمر والمصابين باضطرابات عضوية وظيفية أو من يحاولون الانتحار . ويشعر الكفيف بأنه فى حاجة شديدة إلى النجاح ، فيبذل مجهوداً متزايدا ليدحض فكرة وجود النقص فيه .

وإذا ما ألقينا الآن نظرة إلى المكفوفين كمجموعة ، يظهر أنه

علينا إما أن نعيد فحص المعلومات التى لدينا ، وإما أن نرجع إلى فكرة قديمة ونضع ما يمكن أن يسمى سيكولوجية خاصة بالمكفوفين . لقد رأينا كيف أن عدد المنتحرين بينهم ضئيل ، وسنرى الآن أنه يبدو أن عدد من يدمنون الخمر أو يصابون باضطرابات عصبية وظيفية ، تصحب عادة المجهود المبذول للتغلب على النقص ، قليل أيضاً . ومع ذلك يبدو أن الدلائل فى مجموعها توحى بتغلب الامتثال للآراء الثابتة . وفى الواقع أن الكفيف يمنى بالفشل عادة عند انعدام المساعدة . ولو لم تكن هناك أدلة على نجاح البعض لاستنتج المرء أن كل الآراء الثابتة صحيحة .

ونجاح الكفيف من الناحية البدنية ، كما قلنا ، يتراوح بين الجمود التام ودرجة عالية من الحركة مع رجحان الحالة الأولى . وفى الميدان الاجتماعى نرى نفس الحالة ، فعدد الذين ينجحون قليل جداً . وإذا قصرنا نظرتنا على أقوياء الأجسام فقط فلن تتغير النتيجة كذلك .

وليس من ينكر قسوة الجهاد الذى يواجهه الكفيف ، فالحالة الاجتماعية والاقتصادية قاسية كأى حالة أخرى فى مجتمعنا . والتكيف الجسمى ضعيف أيضاً ، وملىء بالمخاوف والمخاطر . فليس من الغريب أن تكون درجة الفشل عالية أيضاً حتى مع وجود القوة الدافعة نتيجة الرغبة فى دحض فكرة النقص . إلا أن هناك مايدل على

وجود قدرة غريبة على أن يكيف الإنسان نفسه حسب الظروف دون صراع نفسى كبير .

التكييف أو إعادة التنظيم

فى مجتمعنا يجب على الكفيف ألا يخشى الموت جوعاً . ويجب ألا يبدو هذا غريباً لأن القليل جداً من المكفوفين ليسوا ملحقين بأحد المعاهد . إن الكفيف يستطيع العمل الآن ، وإذا لم يرغب فى العمل يمكنه الاعتماد على أهله أو على بعض الجهات . وفى المدن الكبرى يمكنه أن يلجأ إلى بعض الهيئات الاجتماعية التى تجعل فى مقدمة واجباتها أن توفر لقمة العيش للكفيف .

وإن لم يكن هذا أو ذاك فيمكنه أن يستجدى . إن العادة والعرف طوال ثلاثة آلاف سنة يخولان للكفيف أن يلجأ إلى جهات الخير دون أن يتعرض للنقد . إن الحقيقة المجردة هى أن هذه السبل موجودة أمام الكفيف مهما بلغ من شدة اعتراض البعض على أى منها ، فهى عنصر أساسى فى الموقف . فليس الكفيف فى حاجة إلى الاستجابة إلى الدافع إلى البقاء كغيره من الناس ، وفى الواقع قد توحى هذه الحالة بالتفكير فى علم نفس مختلف خاص بالمكفوفين إن لم يكن من الناحية البدنية فمن الناحية الاجتماعية ، ولكنهم كغيرهم من الناس يستجيبون للدافع الطبيعى إلى حب البقاء ، ومع أنهم قد

يفعلون هذا بأساليب أكثر تعقيداً فإن هذا لا يوجد فرقاً أساسياً بينهم وبين معظم الناس .

على أن تكييف الكفيف نفسه جسمياً بحيث يظهر قدراته المختلفة قد يحدث فى الواقع على حساب الشعور بالضمان الذى نحن بصدده .

وهذه حقيقة يدركها الكفيف على الدوام عن وعى أوعن غير وعى ، وقد تكون أحد العوائق التى تحول بينه وبين التكيف . وهذا العائق موجود بالطبع وهو أكثر ظهورا من عوامل أخرى .

فالمجتمع لايؤمن بقدرة الكفيف على التحسن الاجتماعى أوالبدنى بطريقة ملموسة ، ولذا لا توفر له الفرصة المناسبة ، ويقدم له المعونة الكافية حتى لا يشعر بضرورة التكيف فى حالة فقدان البصر .

صراع

إن أحد البواعث الكبرى فى بذل الجهد يقوم على حقيقة واضحة ألا وهى أن المجتمع يتقاضى ثمن توفير لقمة الخبز للكفيف حتى لايموت جوعاً ،وهذا الثمن هوالذى خلق مركب النقص فيه . ولما كان الإنسان ينفر بطبيعة الحال نفوراً شديداً من الشعور بالنقص فلذا ينشأ الصراع .

أما المتقدمون فى السن والعاجزون جسمياً فلا مفر لهم من قبول

الواقع كما يقبل المرء فكرة الموت على أنها حقيقة لامناص منها .

كانت سيدة تقرأ «مسودات» هذا الكتاب ، ولما وصلت إلى هذه النقطة بدا عليها الاضطراب فى التفكير . فقد كانت تظن أن التكيف معناه القناعة . ولا شك أن كثيرين يظنون أن التكيف وفق ظرف من الظروف يدل على أن الإنسان سعيد به . وهذ دليل جديد على أننا فى حاجه ماسة فى هذا الميدان إلى الاتفاق على الألفاظ ومدلولاتها. فالتكيف فى حالة كف البصر أو أية حالة أخرى سيئة لا يعنى بالضرورة شعور الإنسان بالسعادة أو بالقناعة فى هذا الظرف الجديد، كما أنه لا يعنى العكس أيضاً ، أما الذين يسلمون أنهم قادرون على التكيف فليس من السهل عليهم تجنب الصراع . وأبسط مظاهر روح الثورة هذه يبدو فى رفض ما تنسبه إليهم البيئة من نقص وما تقدمه لهم من عون ، ويصرون على أن يعتبروا كغيرهم من الناس سواء بسواء . ولكن حتى لهؤلاء الذين يثورون علناً نوع من الضمان لا يعرفه إلا القليلون من الناس . والجهد المبذول أكثر مما تتطلبه مجرد الحاجة إلى تجنب الموت جوعاً .

أما الذين يذعنون للواقع ظاهرياً فحالتهم أكثر تعقيداً وأدعى إلى الحيرة . فمظهرهم الخارجى يوحى بالتسليم ولكنهم فى الحقيقة على عكس ذلك . وفى هذه الحالة يضطرون إلى تكوين نوع من التفكير يبدل نقصهم — على ما يعتقد غيرهم — تفوقاً ثابتاً لهم . وإنه لمن الأوهام

الوحشية أن يدعى البعض أنهم قد اكتشفوا أن كثيراً من الأطفال المكفوفين يدبرون المؤامرات فى أحلام اليقظة ناسين أن تفكيرهم هذا إن هو إلا رد فعل للإهانات التى تلحقهم باستمرار . فالملاحظ أن المكفوفين فى اجتماعاتهم العادية تنتهي بهم أحاديثهم غالباً إلى موضوع العقبات التى توضع فى سبيلهم وفى هذه الحالة يبدو شعورهم بالحنق وخيبة الأمل واضحاً .

الطفل الكفيف

إن الطفل الذى يولد فى أسرة صغيرة ويحاط بالحب والرعاية يعد بالتالى لما ينتظره من المجتمع فيها بعد . على أن الطفل الكفيف يقف عادة فى المعركة منفرداً . وقد يكون من حسن حظه ألا تكون الأسرة التى ينشأ فيها غير مشربة بفكرة النقص الذى يعانيه الكفيف. والطبيعة تقسو عليه فى بدء حياته لتبرهن العكس . فإذا ما قورن بالمبصر وجد أن إدراكه للحقيقة الواقعة يأتى تدريجيا . وقدرته على تنسيق الحقائق التى تأتيه عن طريق السمع واللمس لاتتوفر إلا بعد وقت بعكس المبصر الذى لايحتاج إلا إلى مجرد اكتمال عضو البصر فيه . والكفيف إذ يرقد فى مهده تأتيه الأصوات من مصادر غير معروفة له ، واللمس هو كل عدته ، ولذلك قد يبقى تفكيره مركزاً فى شخصه مدة أطول مما يحدث مع شخص آخر فى مستوى ذكائه .

وقد تساعد الأم العاقلة المطلعة طفلها الكفيف إذا علقت جرساً فى مكان ما ثم وصلته بسريره بحبل . فهو كلما شد الحبل وسمع رنين الجرس استطاع تحديد مركز الصوت بالتكرار ، وفى نفس الوقت تعلم أن فى استطاعته أن يحدث أثرا على مسافة منه .

ويمكن للأم أيضا أن تعطيه لعبا صغيرة من المطاط تحدث أصواتاً تلفت السمع عند الضغط عليها وبذلك تعينه على إدراك حقيقة السبب والمسبب . ولكن معظم الأمهات لا يعرفن ماذا يفعلن بالطفل الكفيف وحتى إذا كن يعرفن فإن ما يبديه الكثيرون من الأسى نحو الطفل يهدم ماقد تبنيه الأم .

ويمكن للطفل الكفيف أن يبدأ تنسيق الحقائق الخاصة بالعالم الخارجى دون مساعدة عندما يغادر مهده ويتحرك فى البيت . وفى محاولته هذه قد يصدم رأسه أو ساقه بجسم صلب ويدميها . ومع أن كل الأطفال معرضون لهـذه الصدمات ، فالظاهر أن البعض يظنون أن من الخطأ تعريض الكفيف لها ، فيقولون له أو بالأحرى يدفعونه على الابتعاد عن مثل هذه المصادمات البسيطة التى تكون جزءاً من اختبار كل الأطفال المبصرين . وفى هـذا يجلس ساكناً لا يتحرك معظم وقته وهـذا بالطبع يضيق دائرة اختباره ويحد من نمو جهازه العصبي . وفى هـذه الحالة تصدق الملاحظة الواردة فى دائرة المعارف البريطانية التى جاء فيها : أن فقدان البصر

يؤدى بطريق غير مباشر إلى الجمود وعدم الحركة . فإذا لم يشجع الطفل الكفيف على الحركة بقى منزويا وحده فى سكون وإذا ما غادر مكانه تحرك بخوف وجبن . وهذا الجمود الجسمى له آثار جسمية سيئة فضلا عن أنه يعطل النمو العقلى .

وفى اعتقاد كثيرين من المهتمين بالدراسات الخاصة بالمكفوفين أن فقدان البصر يسبب الجبن والتردد وغيرهما من أعراض الخوف . وقد لاحظ آخرون أن المكفوف يتعلم الحركة فى سهولة ويسر فى محيطه المعروف لديه إذا لم يمنع عن ذلك ، وأن تنسيق قواه يتم عن طريق الحركة ، أما الجمود فيعطل نموه .

والخطأ الشائع فى أن يقصر النظر إلى فقدان البصر فقط لمعرفة الأعراض يؤدى بنا إلى نتائج مشوشة . فالعامل النفسى المؤثر ليس شيئاً غامضا أو منفصلا عن الحالة ولكن يمكن إدراكه بكل وضوح .

إن الفرصة المتاحة للكفيف لينمى حاسة اللمس محدودة بل ممنوعة . فهناك فى البيت أشياء كثيرة على الكفيف ألا يقترب منها . وقد دلت التجارب النفسية على أن حدة حاسة اللمس عند عدد كبير من المكفوفين أقل منها عند المبصرين . وليس هذا بغريب لأن الكفيف فى بدء حياته يمنع من نشاطه الحسى بسبب الخوف عليه وتوقيع العقاب عليه إذا خالف .

إلا أن هذا كله يعد ضرراً ضئيلا يلحق بشخصية الطفل الكفيف ، فهناك ما هو أشد خطراً ، إذ يتولد فيه الشعور بأنه منبوذ وغير مرغوب فيه ، أو يبدى الناس نحوه شعورا بعطف غير عادى لا يكون ناتجاً ناماً عن إيمان حقيقى بأنه سيصبح يوماً ما شخصا له قيمته . والأطفال بطبيعتهم يكرهون أن يظن غيرهم فيهم الغباء ، ولأن الكثيرين يزعمون أن الطفل الكفيف غبي لا يلبث هذا المسكين حتى يخشى أن يبدو هكذا فينزوى حتى لا يثبت هذا الزعم . ومع أنه لا يختلف فى هذه الظاهرة عن غيره إلا أنه يعلم على الدوام أنه يختلف عن غالبية الناس . وحصر التفكير فى الذات ، وهو إحدى مراحل النمو التى تستمر مع الكفيف مدة أطول ، لا يعطى الأهمية الكافية على أنه أحد مظاهر الشخصية . فالكفيف سرعان ما يدرك أنه لا يرى ، فقد لاحظ المختصون أن من المكفوفين من يدركون هذه الحقيقة وهم فى منتصف السنة الثالثة من عمرهم . أما كيف يعرفون ذلك فعلمه عند ربى .

ويتولد فى الطفل الكفيف شعور سلبى فيبدو عليه الإذعان والانقياد أكثر مما ينبغى . فيجلس بلا حراك ويطيع فى كل ما يطلب منه ويتعاون إلا أنه ، إذا كان طفلا عادياً ، ينمى عادات يحاول والداه أن يستأصلاها منه بالعقاب . وفى هذه الحالة يمر فى فترة تردد وقد ينتهى به الأمر إلى الخضوع ، وإذا كان قد احتفظ ببقية من بصر فقد

يعتاد طريقة خاصة فى المشى أو فى الجلوس بفضل استخدام القـدر الضئيل الذى بقى له من نور العين .

على أن هذه العادات لا ينظر إليها على أنها تكونت نتيجة لجهود يبذله للتنسيق بين عمل الأعصاب والعضلات ، وإذا أدرك الناس أنه يستشعر شيئاً من الغبطة عن طريق هذه العادات كان هذا باعثاً آخر يدعو إلى السعى إلى استئصالها . كذلك الربطالتى تربطه بغيره لا ينظر إليها على أنها دليل على انفعال نفسى عميق بل على أنها تقلصات قبيحة فى عضلات الوجه يجب عدم تكرارها . وقد يبدو عليه أنه كثيراً ما يفرك عينيه أو ينظف منخاريه أو يهرش فى أجزاء مختلفة من جسمه وعندئذ تبدأ المحاولات فى اجتثاث هذه العادات منه باللوم والتقريع . وإذا حدث وسقط فى استخدام العادة السرية فما أسرع ما يكتشف سره وينفضح أمره ، ولذا كثرت الآراء والمعتقدات عن المكفوفين والعادة السرية . فمن قائل إن فقدان البصر يؤدى بطبيعته إلي الضعف الخلقى . ومن قائل إن قلة الحركة عند الكفيف تسبب ما يمكن أن يسمى « احتقانا » فى القوى الجسمية والأدبية فيتعرض للسقوط . والشىء غير المفهوم هو المعارضة الشديدة حتى من جانب العلماء فى دراسة دقيقة . ولا تزال طريقة معالجة هذه المشكلة هى إنزال القصاص بالمذنب .

الطفل الكفيف والمدرسة

تتاح للطفل الكفيف فى المدرسة الفرصة الأولى ليتسع أفقه . وقد يكون رفقاؤه فى حالة جسمية مؤلمة ، كما قد تكون هناك حالات شبيهة بالحالتين الآتيتين شوهدتا حديثاً فى مدرستين أمريكيتين داخليتين . الأولى حالة ولد فى الرابعة عشرة من العمر لم يسمح له قبل التحاقه بالمدرسة بمغادرة غرفة نومه . والثانية حالة صبي فى الثانية عشرة جعلته أمه يقضى كل أيامه فى فراشه إلى أن التحق بالمدرسة . وفى كثير من الأحيان نرى يدى الطفل تتدليان على جانبيه كأن لا حياة فيها وكأن الولد يخشى تحريكهما ..

على أننا إذا قارنا حالة الأولاد المكفوفين فى أمريكا بحالة الأولاد فى الصين عندما يلحقون بالمدارس لوجدنا أن الأولين أحسن حظاً . فالمدرسون فى المدارس الصينية رأوا أطفالا لا يعرفون أنهم يقدرون على الجلوس . ولكن هؤلاء وأولئك سرعان ما يتعلمون الجرى واللعب . وفكرة إرسالهم إلى المدارس فى حد ذاتها تعنى أن الطفل الكفيف قد يصبح يوماً ما ذا شأن .

وفى المدارس يترك الطفل ليقوم بالتنسيق العضلى والعصبي بنفسه . وفى هذا الصدد يقول فرنش (French) : لقد بدأت المدرسة تدرك أن التربية البدنية للمكفوفين يجب أن تشمل أكثر من التمرينات

الرياضية العادية ـ وتقول هاو (Howe) : كل المدارس الداخلية الكبرى التى تستخدم القمع والقهر والتى لا تتوفر فيها التأثيرات الأسرية المهذبة للنفس ومحاسنها ـ كل هـذه المعاهد ليست بيئة طبيعية للطفل وغير مرغوب فيها فهى عرضة لكثير من المساوئ . ومن كل هذا لم تجد هاو (Howe) ، لهذه المدارس بديلا فى أيامها . وهكذا الحال معنا اليوم .

على أن هناك حركة قوية الآن تهدف إلى وجوب تعليم المكفوفين فى المدارس العامة على أن تقدم للكفيف المساعدة التى تتطلبها حالته فقط . وفى هـذا الصدد تجب الإشارة إلى المشروع المسمى بمشروع أريجون (Oregon) وكذا إلى ماقامت به ولاية نيوجرسى فى هذا الميدان .

والحياة فى هذه المعاهد لها تأثيرات معروفة لا داعى لذكرها هنا . إلا أن هناك لصراً له أهمية خاصة . فالأولاد والبنات المبصرون ، مع أنهم معزولون بعضهم عن بعض فى مدارسهم ، يعرفون شيئاً عن اختلافهم فى الجنس باستخدام أبصارهم ، أما الطفل الكفيف فيصادف صعوبة ناشئة عن فقدان البصر . والمدارس بدافع من الحياء الغريب لا تجد وسيلة واقعية تبين بها له الفروق الجسمية بين الجنسين . وتتضح ضرورة هـــذه الخطوة مما يقرره الدكتور روبرت

ماركس (MarKs) وهو طبيب كفيف بمدينة نيويورك . من أنه لم تكن لديه فكرة عن التكوين الجسمى للأنثي إلا بعد أن التحق بمدرسة الطب .

ويقول أحد المراقبين فى هذا الصدد : إن الحظر المفروض على تناول هذا الموضوع بالبحث أو بالعلاج يجعل المشتغلين بين المكفوفين يتجاهلونه أو يتخذون منه موقفاً هو الجمود بعينه : وقل أن يدرك شخص الآلام الناشئة عن هذه الحالات النفسية إن لم يكابدها شخصياً .

وأما عن مدارس المكفوفين بنوع خاص فيخشى أن اختلاط الجنسين يؤدى إلى التزاوج . ومن يقرأ مايكتب عن المكفوفين ، ير أن الكتاب يقولون إنه ليس من الخير اجتماعيا للمكفوفين أن يتزوجوا . وذكر صديق للمكفوفين فى كتاب له فى معرض الحديث عن معهد باريس فى أيامه الأولى : هناك أمثلة عديدة عن التزاوج بين المكفوفين. وأحدثت تحسينات على نظام عزل الجنسين عزلا تاماً ، ويقول فى نفس الكتاب : إن الكفيف الذى يفكر تفكيراً سليما لا يتزوج من امرأة مثله ، وإذا كان لا يفكر تفكيراً سليما فلا حق له أن يتزوج على الإطلاق . يجب أن يسن قانون يجعل مثل هذا الزواج مستحيلا .

ولاحظ الباحثون أن تلاميذ المدارس الداخلية للمكفوفين يخشون خشية بالغة من إظهار اهتمامهم بالجنس الآخر . وتكتب

جريتا جريفس (Gretta Griffis) التى درست مشكلة تكيف المكفوفين المراهقين فى مدرستين ، تقول : إننى فى هذه الدراسة بأكملها كان من الضرورى أن أراعى الحرص التام عند التعرض لأية نقطة خاصة بالجنس . . . وفى بعض الحالات التى درستها لم أجد فرقا بينها وبين حالة أية مجموعة عادية من طلبة المدارس الثانوية ، ولكن فى أغلب حالات المكفوفين كان الخجل يعلو وجوههم بمجرد ذكر أية مسألة جنسية أو ينكرون بشدة أى اهتمام لهم بالجنس الآخر . ويمكن فهم هذا الشعور الضار حيال المشكلة الجنسية إذا ذكرنا موقف المعاهد منها . . . . فإن أى اهتمام يبدو على الكفيف بالجنس الآخر يقمعه المسئولون على الفور .

وبالرغم من كل هذا يتزاوج المكفوفون عند التخرج من مدارسهم وإن كان هذا يحدث فى دوائر ضيقة إلا أنه يكفى لأن يثير المسئولين . ويخبرنا كتسفورث (Cutsforth) عن معهد تشرف عليه إحدى الولايات وسيطر عليه أحد السياسيين الذى لم يكن يهتم بالمسائل الجنسية وترك للتلاميذ والتلميذات الحبل على الغارب فاختلطوا ، وسارت الحال على هذ المنوال خمسة عشر عاماً ، ضرب خلالها التزاوج بين المكفوفين الرقم القياسى . ومع أن الاختلاط سبب بعض المتاعب للمدرسة إلا أن الأولاد والبنات تعلموا بأنفسهم أنه من الخطأ أن يختار الكفيف شريكة حياته مثله .

إن روح الاستسلام التى تنمو فى الطفل وهو في البيت يحتمل أن تكون قد تأصلت عندما ينتهى من دراسته الثانوية . فهو يعتاد فى هذا الموقف على أن يطيع كل الأوامر التى تصدر إليه وأن يعيش تحت رقابة دائمة . وفى نفس الوقت يعيش فى دنيا أوهام فيها ينسج خيوط النقمة التى يرغب فى أن يحيقها بالمجتمع . ويكون قد اكتسب مجموعة مما يسمى « شارات معبرة » ، غذته بها طبيعة بيئته المدرسية . ويستخدم فى حديثه ألفاظاً ضخمة وجملا طويلة محاولا إثبات تفوقه عن طريق اللغة . ومن المحتمل أن يتفنن فى الحيل والأساليب الخفية التى تتقنها عادة الجماعات المتكونة على غرار جماعته . فالسعال مثلا « والنحنحة ». نوعان من التفاهم السرى المتقن لأنهما كانتا تستخدمان أيام الدراسة فى وجود المدرسين أو الكبار بين المكفوفين . وتتوطد صداقته بغيره من التلاميذ أمثاله . وإذا اشتغل فى مصنع خاص ينضم إليه غيره من التلاميذ أو التلميذات المكفوفات . وقد يحدث شىء أسوأ من هذا وهو أن تستخدم الموسيقى التى يتعلمها الكثيرون فى المدرسة ، وسيلة للتسول بدلا من أن يحاول استخدمها فنياً أو تجارياً ، والأمر الهام فى الموقف هو أن الناس سينظرون إلى كثير من هذه الظواهر وبخاصة ما كان منها نتيجة تأثير حياة المعاهد على الشخصية ، لا على أنها أمور قد تحدث للمبصر

تحت ظروف مماثلة ، بل أدلة على نوع شخصية الكفيف على وجه العموم .

جهاز دفاع «المتسول باختياره»

إن تصرف المتسول وموقفه يبدو حقاً كأنه تأييد لكل الآراء التي ثبتت في الأذهان عن التكييف وهو لذلك يعتبر مؤمنا بها . فظهره يدل على الكآبة وملبسه يتبين منه عدم قدرته على العناية به . وإذا كان يتخذ من آلة موسيقية أداة للتسول فإن مشيته تلفت النظر . والصندوق الذي يجمع فيه الصدقات تراه دائماً في مكان بارز . ومع كل هذا فهو ليس مؤيدا للارآء الشائعة عنه ، إنما هو يؤدى بالضبط عملية الجهاز الذي يبدل النقص تفوقاً واستعلاء . فهو في غالب الأحيان مسرف في احتقاره لذكاء المبصرين ، ويعتبر الصدقات التي تقدم له جزية مستحقة لشخص أذكى وأحذق ، ويسخر بيئته لخدمته . فالمتسول باختياره قد تغلب تماما على مشكلة قبول الإحسان دون اعتراف بالنقص .

والمتسول الكفيف في وقتنا الحاضر يثير من التفكير المضطرب أكثر من أي شخص آخر في عالم المكفوفين . فهو يثير حول نفسه شعوراً غريباً بالاحترام حتى بين صفوف الكفيفين غير المحتاجين الذين

كان ينتظر أن يثبتوا له الكراهية لأنه يجند لمصلحته جميع الآراء التي يقاومونها .

وحتى كتسفورث يظن أنه جدير بشيء من الإعجاب لأجل حذقه وروح الاستقلال التي يتمسك بها .

ومنذ عامين خطب أكبر مؤلفي الكتاب في جمع من المكفوفين يقرب عددهم من السبعين وكان موضوع خطابه « المركز الاجتماعي للمكفوفين » . وكان كل واحد من الحاضرين مهتماً بالموضوع لما له من اتصال به شخصياً . وتحدث الخطيب بشيء من التردد لأول مرة عن موضوع خصاء الكفيف ليدلل به على نظرة العالم إلى المكفوفين . ولم يعرف ما يكون لهذا الكلام من أثر في نفس السامعين . أما الموظفون الذين كان قد بحث معهم هذا الموضوع قبل فثاروا قائلين إنه وإن يكن لهذا القول وجاهته فإن لنشره يضر بقضية المكفوفين . أما الجمع الذي كان يكلمه الخطيب فقابل كلامه بهدوء وناقشه كما يناقش دائماً كل وجهة نظر تلقي أضواء على متاعبه . ولم يثر السامعون بعنف إلا عند ما قال الخطيب وهو يعالج نقطة أخرى : إن سيكولوجية المتسول هي نفس سيكولوجية البغي . عند سماع هذه العبارة احتدم الجدل وصاح أحدهم قائلا . إن التشبيه غير صائب . فالبغاء مشكلة أخلاقية أما التسول فليس كذلك .

وهناك حوادث أخرى جعلت المؤلفين يستنتجان أن كثيرين من

الـكفيفين يكمن فيهم الخوف من أن يصبحوا يوماً مامتسولين . ومعظم هذا الشعور إن هو إلا ثورة ضد الحالة الاقتصادية وضـد تكوين جماعات خاصة من المـكفوفين فى بعض الجهات . ومع ذلك فالحقائق التى تمـكننّا من الحصول عليها لا تبين أن معظم المتسولين مضطرون بحـكم الظروف إلى التسول ، فالمتسول الـكفيف العادى ليس متقدما فى السن ولا عاجزاً جسمياً ، وإن تكن حياة المتسول المتصلة منهكة للجسم .

وقد علمنا من مصدر وثيق أن الشحاذين فى نيويورك الـكبرى يفـدون إليها من مدرسة داخلية للمـكفوفين فى الوسط الغربى للولايات المتحدة . وقـد اكتشف الباحثون الاجتّماعيون عدة حالات لمـكفوفين يحترفون مهنا مختلفة بالنهار ويتسولون فى المساء . وهناك حالة تستلفت النظر عن شخص كان يعمل فى مصنع خاص بالمـكفوفين وكان له نفوذ اجتماعى كبير بين مكفوفى المدينة . وفى الوقت الذى كان يوشك أن يعين فيه رئيسا لقسم الخدمة الاجتّماعية فى المصنع وجد يتسول فى ميناء نيويورك .

ويبرر أحد الشحاذين ممن نعرفهم موقفه بقوله : إنه خير للقوم أن يقدموا مما عندهم . إنهم يشعرون بالراحة عندما يعطون الـكفيف شيئا . إنى أسمو بمشاعرهم بعملى هذا .

جهاز الدفاع

كف البصر قوة وكسب ثانوى

إن كف البصر يمكن أن يكون سلاحا اجتماعيا مخيفا . وإن حظر إيقاع العقاب على الكفيف من القوة بحيث يكتشف بعض المكفوفين، ممن بهم ميل ظاهر للقسوة ، أنهم يستطيعون أن يقوموا بشىء من الطغيان لا يسمح به للمبصرين . وليس هناك عجز جسمى يعطى صاحبه حصانة ضد القصاص مثل فقدان البصر . وهذا يمكن أن يكون جهازاً داخلياً كاملا للدفاع ضد أى شعور بالنقص ، وواضح أنه يجعل المبصر يذعن . وإذا أظهر الكفيف قدرة على مساعدة نفسه فإنه بالطبع يقتل قوة الدفاع هذه . فهو عندما يلقى الذعر فى نفوس من حوله فإنما يفعل ذلك عن طريق كل مظهر خارجى تبدو منه شقوته ومحنته .

وهناك حادثتان وصلتا إلى علمنا شخصياً . إحداهما حادثة ولد ثرى وقع له حادث أدى إلى إزالة شبكية العينين أثناء قيام عائلته برحلة أصرت عليها أمه . وكانت العائلة أثناء وقوع الحادث فى مكان بعيد بين الغابات لا تتوافر فيه العناية الطبية . وقد بلغ الصبى الآن الخامسة والأربعين من العمر وهو لا يعمل شيئاً طوال هذه المدة إلا أن يجلس منتظراً أمه لتنتقل به من مكان إلى مكان ، إذ قد خصصت الأم

كل حياتها لخدمته . ولقد استخدم حالته هذه ليستقل بعطف والديه وهو العطف الذى كان محولا قبلا إلى أخ أصغر منه .

وأما الحالة الثانية فشبيهة بالأولى : شابة فقدت بصرها بسبب مرض السكر وتولت العناية بها أختها التى عليها أن تكد لتعول نفسها وأختها عن طريق مهنة التمريض .

كلا هذين الشخصين لا يظهر أقل ميل لتكييف نفسه حسب الظروف الجديدة ، وعندما يسأل لماذا يتخذ هذا الموقف لا يبدو عليه إلا اليأس البالغ .

وقد وصف أحد الباحثين الاجتماعيين ممن لهم إلمام بالتحليل النفسى ، الحالة الأولى بأنها العجز عن التغلب على الهزة العصبية . وأما الحالة الثانية فبحثت فى اجتماع لجنة الباحثين الاجتماعيين ، وكان الشعور السائد فى الاجتماع أن مرض السكر أحدث مضاعفات قد تحول دون الشفاء . وتقول السيدة صاحبة الحالة الثانية إنها لا تقوى على الذهاب إلى أية هيئة اجتماعية يمكن أن تساعدها على أن تكون ذات نفع لأنها لا تستطيع أن تقابل كل المكفوفين هناك .

وقد يكتسب المكفوفون ربحاً ثانوياً من حالتهم بطرق كثيرة لا ضرر منها ولكنها شائعة بينهم جميعاً . ففقدانهم البصر فى حد ذاته يجعلهم أناساً لهم أهميتهم وشخصيات فريدة . وفى التاريخ أمثلة كثيرة

عن مكفوفين خدعوا مدارس فلسفية كاملة بحكايات عن مشاعرهم واختباراتهم . ويكتب هوكس (Hawkes) عن رجل زعم أنه يمكنه معرفة لون الحصان بمجرد لمسه . والحقيقة أنه كان يستطيع التفرقة بين درجة خشونة شعر فصائل معينة ذات ألوان مختلفة .

المتواكل

وهناك نوع واحد من الشخصية يدعوه المحللون النفسيون « المتواكل » ، وهذا النوع يسهل عليه نفسياً قبول نصيب الكفيف حتى تحت أقسى الظروف التي ينسب إليه فيها النقص ، وهو كذلك على درجة منخفضة من الإقدام والجهاد . وأعز أمنية لديه أن يعود إلى ما كان عليه من طمأنينة وراحة فى حجر أمه . ولهذا النوع من الشخصية يصبح فقدان البصر وسيلة للسعادة والرضا ، ومن المحتمل أن يندر وجوده فى هذه الأيام بين المتسولين لأن حياة التسول حياة مستقلة . ويكون وجوده أكثر احتمالا فى العائلات أو الهيئات الخيرية أو فى عمل لا منافسة فيه . وقد أذهل هذا النوع علماء النفس لأنه نموذج للتكيف الموفق .

تشابه الأقلية

فى الفصل الأول من هذا الكتاب أشرنا إلى المشابهة بين حال المكفوفين وحال الأقليات الدينية والعنصرية . وهناك من الناحية

التاريخية ما يبرر هذا التشابه إذ يلاحظ الإنسان الفوارق الاجتماعية وخلق الطبقات وتحديد المساحات والأقسام . ففى كلتا الحالتين ظاهرة واحدة وهى أن مجموعة من الناس تصر الأغلبية على أن تنعتها بصفات خاصة وتنشىء لها نموذجا يفترض فى كل عضو من الأقلية أن يمثله . والقصد الأساسى من هـذا النموذج أن يكون عنوانا للنقص . فأنواع النقص التى تنسب إلى اليهود والزنوج تحرك انفعالات شخصية تؤدى إلى حـدوث مظـاهر خارجية تدل على الإذعان أو الرفض ، وإن كان الإذعان يخفى تحته نضالا داخلياً عنيفاً .

واحتمال التكيف هو الذى يجعل الأجهزة السيكلوجية المختصة تشابه بعضها بعضاً فى طريقة عملها وإن كانت تختلف فى النوع . وحينما يذهب الـكفيف الناجح فى تكييف نفسه فلعله لا ينسى هذه الاعتبارات . وكثيراً ما لاحظنا رد فعل متشابه بين المـكفوفين واليهود والزنوج مع أن كلا منهم له ظروفه الخاصة ، إذ تجد روح الأشياء متشابهة إذا وجد الباب موصداً من الناحية الاجتماعية بينما المفروض فيه أن يكون مفتوحا من الوجهة النظرية .

إن مجتمعنا الديموقراطى يرحب نظريا بانضمام اليهودى أو الزنجى [1] إليه كما يرحب بالـكفيف كذلك ، ومحاولة قبول الدعوة تبنى على أساس الموقف الاجتماعى المحير . فاليهودى يمكنه أن يحل مشكلته الاجتماعية

(١) يقصد المؤلفان المجتمع الأمريكي .

بالرجوع إلى القسم الخاص بسكنى اليهود فى مدينته ، والزنجى كذلك بعودته إلى كوخ جده (العم توم) الخشبي ، والكفيف برجوعه إلى معهد المكفوفين . ومعاملة الزنجى فى حضارتنا الأمريكية تمثل تماما كيف تعامل فئة ما على أساسين : الأول مكانتها فى الكيان الأدبى للمجتمع ، والثانى نظرة المسئولين عن هذا الكيان .

إن الأمة لتحتاج إلى زمن طويل حتى تعيش وفق مثلها العليا . ويبدو أنها تجعل هذه المثل من العلو بحيث يوجد أمامنا دائما شيء نسعى للوصول إليه . وهكذا الحال مع الكفيف الذى يريد الاندماج فى المجتمع . إنه يجد أن كل استعداده فى المدرسة وفى الهيئات التى تعنى به وفيما يقرأ من كتب لا تعده إعداداً صحيحاً لما يواجهه . إن حالة المكفوفين الاقتصادية فى مجتمعنا معقدة وسنعالجها بالتفصيل فيما بعد .

ويكفى أن نذكر هنا بكل بساطة أن الحل الراهن للمشكلة يتجه بعيداً عن مبدأ التكيف ولا يقربنا منه . إن الحل يقوم على أساس اندماجهم فى المجتمع ، وهذا ولاشك عود إلى فكرة عزل المكفوفين .

لقد تصور المربون فى الماضى أن المكفوفين يمكنهم أن يكسبوا عيشهم عن طريق الموسيقى . فالمولودون مكفوفين فى كثير من الحالات يتاح لهم تنمية الذوق الموسيقى بدرجة لا تتوفر للمبصرين .

وأغلب الأطفال المكفوفين مولعون بالموسيقى لأن الاستمتاع بها يأتى عن طريق السمع والمجال أمامهم فى هذا الميدان فسيح . إلا أن المراقبين الموثوق بهم يقولون إن أقل من واحد فى كل خمسة مكفوفين يعتمد فى معيشته على الموسيقي . إن ما يتصوره معظمنا من رغبة الناس الشديدة فى تشجيع الكفيف القادر جسمياً غير صحيحة . وتتبين صحة هذا القول مما يلى :

لما كثر الطلب على الأيدى العاملة أثناء الحرب . استخدم كثيرون من المكفوفين فى صناعات كثيرة بدرجة لم يسبق لها مثيل . وفى سنة ١٩٤٢ زار أحد المؤلفين مصنعاً للطائرات الكبيرة . وكان فى المصنع عدد من المكفوفين صاحب توظيفهم به كثير من الدعاية . وكان هؤلاء يقومون بعمل معقد يتطلب دقة عظيمة فى اللمس . وعلت الدهشة المؤلف عندما لاحظهم يقومون بعملهم دون خوف وبلامبالاة ويروحون ويجيئون بحثاً عن العدد والآلات التى يستخدمونها بلا مشقة . وكان تقرير مدير المصنع أن إنتاجهم فوق المعدل ، وأما عن المواظبة فهم فى المقدمة . ثم أضاف المدير أن المكفوفين وغيرهم من ذوى العاهات برهنوا على أنهم أكفاء ويقظون على وجه العموم . وعند ذلك أعرب المؤلف عن أمله فى أن يستمر هؤلاء المكفوفون فى عملهم بعد انتهاء الحرب . فأجاب المدير : لا أظن ذلك . ولما سئل عن

السبب أجاب : إن الجميع قلقون عليهم ، ومع أنه لم يصب منهم أحـد بأذى ، إلا أن كل شخص يخشى عليهم من الخطر . ثم قال : وهناك سبب آخر هو أننا لو أبقينا على هؤلاء بعد انتهاء الحرب لاشتكى سليمو الجسم .. على أنه لم يبين لماذا يهتم المصنع بمثل هذه الشكاوى . وعلم المحرر فيما بعد أن المكفوفين استغنى عنهم قبل انتهاء الحرب بقليل كما ذكر المدير مع أن المصنع استمر فى إنتاجه الضخم مدة أربع سنوات بعد ذلك . وكل الإحصاءات التى عملت عن ذوى العاهات تثبت الحقائق المتقدمة . فالمكفوفون بنوع خاص أقل العمال تغيباً عن العمل وتعرضا للإصابات كما أنهم أكثرهم إنتاجاً . ومنذ نهاية الحرب ، بالرغم من إجادة المكفوفين للعمل الذى يكلفون به ، قل تشغيلهم فى المصانع المختلفة بدرجة ملحوظة .

ولسنا نجد صعوبة كبرى فى الوصول إلى الأسباب الحقيقية الداعية إلى هذه التفرقة فى المعاملة . فالزنجى واليهودى يجدان أنهما فى نفس الموقف . والمبدأ واحد فى كل الحالات وإن اختلفت الدرجات .

ويترتب على هـذا ولاشك شعور بالألم والمرارة . ويظهر هذا الشعور فى تكتل المتألمين . فالعميان يكونون من أنفسهم مجموعات اجتماعية ومهنية إذا لم يجدوا سبيلا آخر للتغلب على الموقف الاقتصادى .

منذ عام طلب إلى كبير المؤلفين أن يُراجع « مسودة »

رواية لكاتب يهودى لامع . ومع أن كاتب الرواية كان كفيفاً إلا أنه حصل على درجة عالية فى التربية ولكنه عجز عن الحصول على وظيفة تتناسب مع درجته العلمية أو معلوماته . وكان هذا الكاتب على درجة عالية من التكيف ملما بالرياضة البدنية وقادراً على الانتقال وحده فى سهولة ويسر ، هذا علاوة على أنه كان حسن المنظر . أما الرواية فكانت تشيع فيها روح المرارة . ولما سئل عما إذا كان قد مر بنفس التجارب التى نسبها إلى بطل روايته أجاب بالإيجاب . وسئل أيضاً عما إذا كان قد خلط بين اختباراته كيهودى وككفيف معاً . ومع أنه ذهل من السؤال إلا أنه بعد قليل من التفكير أجاب بأن ما قيل قد يكون صحيحاً .

وفى الواقع لم يكن من السهل عليه أن يميز بين تأثير انفعالاته النفسية على كتابه كيهودى وككفيف . فالصعوبة التى واجهها فى الحصول على الوظيفة التى كان يريدها كانت إما نتيجة لكونه كفيفاً وإما لكونه يهودياً .

مطابقة بالجملة

وهناك ظاهرة غريبة فى الموقف ، وهى أن اللغة التى يستعملها المكفوفون فى الكلام عن أحوالهم تطابق تلك التى يستخدمها العالم

المبصر ، ولم تفلح كتابات الأولين فى تصحيح أى من الآراء الثابتة عنهم عند الآخرين ، بل على العكس ، إن معظمها ازداد رسوخاً عن طريق التكرار .

يتحدث الكفيفون منذ الولادة عن الشجاعة الأدبية كأنهم يعرفون أن ماقادهم إلى النجاح كان خلقاً يختلف عن كل ما عداه ، فلا يرددون الألفاظ ترديداً أجوف . وعندما يخاطب الكفيف أمثاله يتحدث عن القوة الكامنة والعزيمة الصادقة اللازمتين للنجاح . أما أهم مثل عن تشابه اللغة من الناحية الموضوعية فهو ما يسود كتابات المكفوفين من مسحة سوداء . فالمؤلفون منهم يختتمون كتبهم كما يفعل المبصرون بذكر مؤلفاتهم تحت عناوين كهذه : «من الظلام» أو «إلى النور» ويظهر أنه لايخطر ببالهم ألبتة أنهم بعملهم هذا يبثون الآراء القديمة. فهناك خمس عشرة لشرة تحمل عناوين كهذه : «الشعاع» أو« شعاع الشمس » أو « الضوء » إلى غير ذلك . والواقع أن كل ما يكتب لأجل المكفوفين يوضع بصورة تنم على أنه آت لهم بالبصر .

وفى إحدى المناسبات الهامة خطب أحد قادة المكفوفين المعروفين ، وهو شخصياً يتمتع بنعمة البصر جزئياً ، فبدأ خطابه للمكفوفين الذين كانوا يصغون باهتمام واحترام بقوله : « إننا نحن الذين نعيش فى ظلام دامس أبدى . . . . . » .

دليل الاضطراب العصبي والنفسي

يجمع الكل على أن اضطراب الشخصية شائع بين المكفوفين . وفى الواقع يدور فى الوقت الحاضر بحث عما إذا كان المحلل النفسى يمكنه أن يقوم بدور أولى هام فى تكييف المكفوفين . وهناك قلة تتفق على نوع هذه الاضطرابات الخاصة ، ولكنه قد يكون من الأيسر التثبت مما هو غير خاص بهم من اضطرابات الشخصية .

فى عام ١٩٣٩ قدم كتسفورث (Cutsforth) بحثاً أمام الجمعية الأمريكية للعاملين بين المكفوفين ذكر فيه نتيجة علمية توصل إليها وهى أن المكفوفين أقل تعرضاً لبعض الأمراض النفسية العضوية مثل القرحة المعدية . ومع أن الباحث لم يقدم إحصاءات لتأييد نظريته وكذلك نحن لم نحاول القيام بهذا العمل الشاق لأنه يخرج عن نطاق هذا الكتاب ، إلا أننا حاولنا دراسة ملاحظات تجريبية قام بها بعض المراقبين للكفيفين .

قبل كتابة هذا القسم من الكتاب ببضعة أشهر سألنا كثيرين من العاملين بين المكفوفين والأطباء وعلماء النفس فى هذا الموضوع ، فكان جواب طبيب فحص الالآف من حالات القرحة المعدية فى سنوات

كثيرة أنه لا يذكر حالة واحدة كان فيها المريض ، بين الآلاف الذين عالجهم ، كفيفا . وهو يثق فى أنه لو راجع ملفات مرضاه لتأيد قوله هذا .

يظهر أن المكفوفين على وجه العموم لا يستخدمون جهاز الهروب من بعض المواقف كما يفعل المبصرون . لقد ذكرنا فعلا نسبة المنتحرين الضئيلة بين المكفوفين . أما عن السكر فهناك خلاف فى الرأى ، يقول كامبل (Campbell) وإروين (Irwin) ولوينفلد (Lowen Feld) وتاولسند (Townsend) وأربعة آخرون إن تعاطى الخمر ليس شراً خاصاً بالمكفوفين ، وإن كان الملاحظ أن من فقدوا بصرهم بسبب الحرب أميل إلى الإدمان .

واختلف محللان نفسيان أحدهما يهودى والآخر كاثوليكى ، يعملان فى هيئتين خاصتين بالمكفوفين ويتناولان الحالات النفسية المعقدة . قال الأول إن الاضطراب الناشىء عن تعاطى الخمر لا يكاد يذكر . أما الثانى فقال إن خمسين فى المائة من حالات الاضطراب كانت بسبب الخمر .

إن مقاومتنا للآراء الخاصة بالقرحة المعدية تؤيد رأى كتسفورث (Cutsforth) وقل أن تحصل فى هذا العدد على شىء ذى قيمة من العاملين بين المكفوفين . والطريف أن الدكتور روبرت إروين (Dr . Robert Irwin) لم يذكر إلا حالة واحدة لكفيف

مصاب بالقرحة المعدية مع أنه قضى أكثر من عشرين سنة رئيساً للجمعية الأمريكية للمكفوفين . وقد سألنا المديرين والمحاضرين لأكبر مستشفيين فى نيويورك عن هذه النقطة فكان جوابهم إنهم لايذكرون حالة واحدة بين آلاف الحالات التى مرت بهم لكفيف مصاب بالقرحة المعدية . ويؤيد نفس الرأى الدكتور كوتوى العالمى المشهور بأبحاثه فى الاضطرابات المعدية بالقول إنه لم ير حالة واحدة لكفيف مصاب بالقرحة المعدية طوال حياته ولم يسمع قط عن واحدة .

وبالبحث عن نسبة المصابين بالجنون بين المكفوفين وجدنا نفس النتيجة السابقة فالأطباء الذين عالجوا عشرات الألوف من المصابين بالجنون صعب عليهم تذكر حالة كان صاحبها كفيفاً . وفى أحد مستشفيات نيويورك الحكومية الكبرى لم توجد إلا حالة واحدة لمكفوف مصاب باضطراب العقل ، وفى هذه الحالة بالذات ظهرت أعراض المرض قبل فقدان البصر فى حادث ما .

ومحاولة التحقق من صحة هذه المعلومات عن طريق الإحصاءات تؤدى بالطبع إلى إعادة التقدير على نطاق واسع لاستجابة الكفيف لنوع الصراع الداخلى الذى يشتهر بتعرضه له . ومع أن من الخطأ التعميم إلا أنه يمكن أن نقول مطمئنين إن المكفوفين لا يبدون

اضطراباً عقلياً أكثر من المبصرين . ويصبح السؤال الهام ، إذن لماذا يظهرون أقل اضطراباً ؟ للإجابة على هذا السؤال ، يذهب البعض إلى حد القول إن المكفوفين كغيرهم من الأقليات ، لهم خاصية جسمية توجد فيهم ما يشبه « الرف » يضعون فوقه أسباب كل فشل اجتماعى يصيبهم . ويترتب على هذا أن حاجتهم إلى الجهاز الخاص بالاضطرابات العصبية قليلة . ومما لاشك فيه أنه لايمكن أن يوجد سبب أدعى للفشل الشخصى على نطاق واسع من فقدان البصر ، فكل كفيف منى بفشل اجتماعى يعذر إذا ما تساءل عما إذا كان فشله هذا بسبب عدم البصر أو لشىء آخر .

وإذا كان لهذا التساؤل ما يبرره كان يجب منطقيا أن ينتظر أن تكون درجة الإصابة بالقرحة المعدية بين اليهود منخفضة ، فإنهم لابد كذلك يتساءلون عند فشلهم اجتماعياً عما إذا كان السبب فيهم كأفراد أو لأنهم يهود . إلا أننا من سوء الحظ لا نجد أن المنطق يتمشى مع النتيجة المنتظرة ، إذ أن درجة الإصابة بالقرحة بين اليهود عالية جداً . ويبدو لنا أن التعليل الوحيد هو ما يشعر به الكفيف من ضمان ضد الموت جوعا ومن شعوره بأنه ليس مضطرا إلى أن يتحمل مسئولية لايرغب فيها . ومع أن اليهودى يمكن أن يكون له « رف » نفسى يحمل عنه أسباب الفشل الاجتماعى إلا أن عليه أن يستمر فى الكد

والكفاح وإلا تعرض للموت جوعا .

ومن الممكن جداً أن ما يظهر من قلة تعرض المكفوفين للجنون لا يبين الحقائق كاملة عن الموقف . فليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن فقدان البصر يجب أن يؤدى عضوياً إلى الاضطراب النفسى ولا مايدعو إلى الاعتقاد بأنه يشفى منه . وكل ما يحدث هو أن الفرصة المتاحة للكفيف للاعتماد على غيره تحول دون حدوث الثورات النفسية علنا وتجعلها غير ضرورية للفرد .

لقد وضع فاقدو البصر فى أثناء الحرب تحت رقابة دقيقة لمعرفة ما إذا كانت حالتهم الجديدة تؤدى إلى انحطاط فى قواهم العقلية ، وجاءت النتيجة وفق ما كان يلاحظ دائما وهو أن انحطاط القوى العقلية لا ينتشر بين المكفوفين بقدر ما ينتشر بين الصم ، وقد يكون السبب المباشر لهذا الفرق هو اختلاف الحالة الاجتماعية لكل من المكفوفين والصم . فهؤلاء الأخيرون يجابهون دائما سوء فهم الناس لهم وعدم تقديرهم لمشكلتهم . وهذه صعوبات لا تواجه المكفوفين .

وبعد أن بحثنا هذه الموضوعات مع المختصين نشعر بوجه عام أن الناس كثيراً ما يخلطون بين المرض العصبي حقا والمرض النفسى . فكثيراً مايبدو الغضب والغل على المكفوفين ولا يجد المختصون لهذا سببا إلا فقدان البصر نفسه . وكذلك ما يصيبهم من خيبة أمل

سببه حالتهم الاجتماعية . وحتى المكفوفون الذين بلغوا درجة عالية من التكيف من المحتمل كثيراً أن تظهر عليهم علائم الغضب وخيبة الأمل مع أنهم فى عرف الأخصائيين لا يمكن أن يقال عن كثير منهم إنهم تكيفوا ، فهم يخصون بهذا الوصف فقط أولئك الأفراد الذين يظهرون فعلا ميلا واضحاً للتواكل وعدم الاعتماد على النفس .

والنتيجة الواضحة التى نستخلصها من هذا البحث هى أن الحاجة ماسة فى هذا الميدان إلى التدريب فى علم النفس التحليلى .

العمل أو التصرف مصدر قلق

المفروض فى المكفوفين أنهم يتصرفون على حساب قدر كبير من طاقتهم ـ ولهذا يقال إنهم يصابون بالإعياء بسهولة ، وخاصة إذا كان ما يقومون به محفوفاً بالخطر كالمشى فى الشوارع المزدحمة حتى بمساعدة الكلاب المرشدة ، فإن هذا يتطلب تركيزاً لكل القوى . وقد يكون أن أى انفعال نفسى يتطلبه الموقف لا تثيره عوامل البيئة فقط ، مع أن لها أعظم الأثر فيه ، بغض النظر عن القدر التى تعطاه من الاعتبار عند تقدير المشكلة .

ومما يزيد من توتر أعصاب الكفيف خوفه من ألا تبدو الرشاقة على حركاته . ويختلف مقدار تأثير هـذا العامل باختلاف الشخصية.

ولكن مما يدل على أنه عامل ذو أثر كبير أن بعض المكفوفين يرفضون رفضاً باتاً أن يقوموا بأى عمل علنا . وهذا يدل كذلك على أن البيئة عامل له أثره فى خفة القلق أو التوتر فى الفرد إذا وفق فى أن يكون تدريبه على إيدى أناس يثق فى رأيهم عما يؤديه . ويجب أن نذكر أن الكفيف لا يثق فى أنه يظهر دائماً بالمظهر الذى يريده . وهذا بالطبع نقص متأصل فى حقيقة فقدان البصر ذاتها . وعلاج هذا النقص وإعادة الثقة بالنفس إليه يولدان فيه راحة البال من هذه الناحية .

وقد اتجه بعض المحللين النفسيين فى تفكيرهم إلى اعتبار خوف الكفيف من الظهور بمظهر العجز أو بشكل غير مناسب ، إنكارا لكف البصر . إلا أن الأمرين مختلفان جداً . فإنكار فقدان البصر رفض لقبول الواقع كلية ، بينما الخوف من المظهر غير اللائق فيه إعراب عن رغبة فى تجنب نسبة النقص إليه ، ولكل منهما جهازه الخاص . ولعل الاختبار الذى اجتازه أحد مؤلفى هذا الكتاب يلقى ضوءاً على هذا البحث .

عندما غادر المؤلف المستشفى على أثر اعتبار علته ، انفصال شبكية العينين ، لا علاج لها ، توجه لتوه إلى مدرسة الكلاب المرشدة للتدريب . وكانت مرحلة انتقاله من حالة التمتع بالبصر إلى الحالة الثانية مقصورة على المدة التى قضاها فى المستشفى فقط . ولهذا عانى

كثيراً فى بادىء الأمر من حالة التوتر التى وجد نفسه فيها ، إذ كان من الصعب عليه معرفة ما إذا كان هذا التوتر التى وجد نفسه فيه ناشئاً عن خوفه من التعرض لحادث ما أو من جهله بالطرق التى يواجه بها المواقف المختلفة التى طرأت على حياته . فالكفيف السائر فى الشارع ، حتى ولو كان مستعينا بكلب مرشد ، تتوالى عليه الأسئلة من المارة إذا كان فى حاجة إلى مساعدة . وكثيراً ما توضع الأيدى على كتفه أو حول ذراعه بقصد مساعدته على عبور الشارع ، وكثيرون منهم كانوا يصرون على ألا يدعوه يعبر الشارع وحده . وكان المؤلف يفهم الدافع إلى تقديم هذه المساعدة على وجهه الصحيح . إلا أنه فى الواقع كان يحس فى دخيلة نفسه بإحساس قوى غريب سبب له قلقاً . لأنه كان يظن فى نفسه أنه شخص ودود محب للجميع ، ولكن ثورته الداخلية التى كان يحس بها ويحاول بكل قوته أن يقمعها جعلته يتساءل عما إذا كان فقدان البصر قد أثر على جهازه العصبى بطريقة ما . ومحاولته تجنب هذه المواقف زاد من مشقة التنقل عليه .

والقليلون بين المكفوفين يقبلون مناقشة المشكلة ، أما المكفوف العادى فلا يعرب إلا عن فزعه عند المناقشة . وعندما ناقش المؤلف مشكلته مع أحد الباحثين الاجتماعيين قال له : يبدو أنك لم تقبل وضعك الحالى . هذه العبارة جعلته يفكر لأنه كان يعتقد أنه استخدم تفكيره السليم عندما لجأ إلى مدرسة الكلاب المرشدة فى الحال .

وكانت لديه فكرة أخذت تتزايد وقتئذ بخصوص الحاجة إلى تغيير اللغة المستخدمة تغييراً أساسياً . ولما تعقد معه الموقف لجأ إلى محلل نفسى أعانه كثيراً باستقصاء سبب العلة وهو أن كل لمسة لذراعه أو كتفه كانت تؤخذ على أنها إيحاء بالنقص . وقد تحسنت الحالة ولكن المؤلف يصعب عليه التحقق من سبب التحسن إذ ربما كان سببه التحسن الذى طرأ على وسائل السفر .

ومنذ ذلك الوقت تعلم المؤلف أن هذه المشاعر ليست مقصورة عليه وحده لأن كثيرين من قدامي المحاربين كانوا يشعرون بها . ومصداقا لهذا الكلام قال أحد الشبان من رجال البحرية: إنى أخشى أن أصيب شخصاً ما يوما ما .

وهناك البعض الذين يذهب بهم الضيق من محاولة الناس تقديم العون لهم إلى حد بعيد . يقال إن أمثال هؤلاء يستسلمون لمشاعرهم فيشتمون الواقفين بالقرب منهم أو أحياناً يضربونهم بعصيهم . وهنالك شخص أو اثنان معروفان جيداً فى عالم المكفوفين بميلهما إلى صب جام غضبهما على الجمهور . ومن حسن الحظ أن الجمهور على الدوام يعزو غضبهما وسخطهما إلى حرمانهما من نعمة البصر .

فقد البصر علاج للأمراض العصبية

لقد كنا نحاول جاهدين أن نثبت حقيقة بيئة الكفيف وأن نلقى ضوءا فى هذا الفصل بالذات على الأعراض التى يمكن إرجاعها اليها . وما كان ما نفعل لأننا مقتنعون بأن كل الأعراض سببها البيئة ، بل لأن هناك حاجة ماسة إلى هدم الفكرة القديمة التى تقول إن كل شىء يمكن إرجاعه إلى حالة فقد البصر نفسها . ذلك لأن كثيراً من الصعاب التى تواجه الكفيف يمكن تذليلها عن طريق التدريب على التصرف فى المواقف الاجتماعية المختلفة وعلى ثقة الإنسان بنفسه ومقدرته الاجتماعية .

إن الأبحاث التى قام بها هارت (Hart) وغيره التى أشرنا إليها فى الفصل الثانى ترينا كيف أنه كثيراً ما يحدث أن جهاز البصر يستعمل فى قلب الصراع على الحقيقة . وأبسط مثل على هذا هو كف البصر النفسى وأعنى به رفض كل الحقائق غير المرغوب فيها وإغلاق النفس دونها ، وبطريق أكثر تعقيداً تستخدم النفس انحراف العين فتقويه وتزيد من شدته بخلق عدم رغبة حقيقية فى الشفاء .

ووجد هارت (Hart) المرضى النفسيين المصابين بأمراض العين يبدون مقاومة غير عادية لتفهم مشاكلهم بخاصة . ويقول فى هذا الصدد إن اختبارى المصابين بأمراض فى عيونهم يدل على أنهم يقاومون مقاومة شديدة أى شعاع من نور يلقى على سبب شعورهم بالجرم . فإن العين ليست فقط العضو الذى ينزل به العقاب لرؤية الجرم ولكنها ترمز أيضاً إلى رفض الوصول إلى أى ضوء يلقى على المشكلة .

إن المرضى الذين تساوى لديهم فقدان البصر مع العقاب (الذى تحررهم من الشعور بالذنب ، حقيقيا كان أم وهمياً ، الذى هو أصل الداء) قد يجدون عند فقدان البصر خلاصاً من صعوباتهم الشخصية المربكة . ومع أن الأبحاث التى أجريت فى هذا الميدان الهام جداً قليلة ، إلا أن فينيتشل (Fenichel) يسمى هذه الظاهرة العلاج بالمرض ، وهو فى الواقع التخلص من مرض بوساطة جهاز مرضى .

وقد أوردنا قرب ختام هذا الفصل حالة يظهر أن العامل فيها هو هذا الجهاز المشار إليه . ولعل قراءنا الواقفين على أحوال المكفوفين يذكرون حالات أخرى ظهر فيها أن فقدان البصر لم يولد فحسب شعوراً بالرضى عن الاعتماد على الغير بل أوجد دافعاً قوياً لبذل مجهود لم يكن له قبلا ما يبرره . وإن هذه الحالات سببت حيرة كثيرة ، ودفعت المؤلفين إلى الكتابة مراراً فى هذا المجال فأناروا السبيل إلى إنشاء مدارس فلسفية فيه كما دفعت المحللين النفسيين إلى تفكير غير سليم .

وهذه الاعتبارات تلقى ضوءاً جديداً على حالة ميلتون (milton) التى تناولتها الأقلام بإفاضة . وفى الواقع أن التفكير السائد عن العلاقة بين العجز والحافز على العمل يحتاج إلى إعادة النظر من جديد .

فالحافز على التحصيل نتيجة للتحرز من صراع داخلى سببه عجز جسمى يعتبر قصاصا عن ذنب ، هذا الحافز يختلف كل الاختلاف عن رد الفعل الناشىء عن الشعور بالنقص . قد يلتقى هذان العاملان اعتباطا ،

وقد يؤثران معاً ، إلا أنه يجب التمييز بينهما . فرفض الكفيف لنسبة النقص إليه هو أصلح أساس يبنى عليه العلاج . أما ما يبدو أنه مصدر للقوة عقب الإصابة بعجز جسمى وينسب دون روية إلى أثر العجز على الشخصية فأساس غير مأمون لبره دائم ، ذلك لأن الاعتقاد بعدالة القصاص قد يتزعزع فى أية لحظة ، وفى هذه الحالة يتداعى كل أمل فى الشفاء .

تواريخ حالات ثلاث

وللتمثيل لما ذكر آنفا نذكر ثلاث حالات مأخوذة من صميم الحياة . وأصحاب هذه الحالات ذكور أصيبوا بفقدان البصر وهم كبار لا عن طريق المرض بل الحوادث . وفى الحالات الثلاث كان لابد من استئصال العين كلها ، الأمر الذى يزيد من شدة الهزة العصبية الناشئة عن فقدان البصر ، وبالتالى يؤيد فكرة المساواة بين فقد البصر والخصاء .

(١) السيد (ب) : فقد بصره فى الثالثة والثلاثين من عمره . وكان سباكاً ومتزوجاً وله طفلان عمرهما على التوالى خمس سنوات وثلاث. أصيب بحادث فى العمل دعا إلى استئصال العينين . كان قوى الجسم وحواسه سليمة ، وأخذ الطبيب يمهد السبيل للنبأ القاسى ، إلا أن المريض كان ذا آمال عريضة . فما إن وقع النبأ على سمعه حتى أصبح فى شبه غيبوبة لمدة أربع وعشرين ساعة . عندئذ أمره الطبيب أن يغادر

الفراش والمستشفى بأقرب فرصة ممكنة . ثم وقعت عائلته فى ضائقة مالية لأن التعويض الذى حصل عليه صرف فى العلاج . ولما لم يكن له معاش اعتمدت العائلة فى معاشها مؤقتاً على إعانة من محل عمله . وكان من الصعب إقناعه بضرورة تحركه من مكان إلى مكان إذ كانت كل توسلات زوجته تذهب أدراج الرياح . واستولى عليه اليأس فأصبح يعتقد أنه لا فائدة ترجى منه ، وفكر فى الانتحار فى أول فرصة تسنح له . ولما تدخل قس صديق للعائلة بدأ يتحرك ، ولكنه كان يتحدث بمرارة عن الأطباء وفشلهم فى علاجه ، ويلقى اللوم على نوع العمل الذى كان يقوم به وعلى صاحب العمل الذى لم يتخذ إجراءات تكفل أمنا أكثر للعمال . ولم يحاول قط أن يتحرك من مكانه فى البيت لمدة طويلة . وقبل، بعد إلحاح شديد، أن يستشير الهيئة الاجتماعية التى اقترحها طبيبه . وأخيراً قبل أن يذهب بعد أن علم أن ذهابه قد يساعده فى أمور معاشه . وقد تعذر عليه تعلم طريقة برايل بسبب سمك جلد أطراف أصابعه التى لم تحس بالنقط . أما زوجته فلجأت مضطرة إلى جهات الخير بالمدينة تطلب المعونة وبعد ذلك بحثت عن عمل فشغلت وظيفة عاملة تليفون . وعاد زوجها إلى الهيئة الاجتماعية يحضر بعض أجزاء برنامجها . فالتحق بالمصنع ليتعلم ضفر الجلد وعمل السلال وأخيراً طلب أن يلتحق بعمل دائم فوكل إليه إدارة آلة فى المصنع حيث عمل لمدة سبع سنين ولا يزال حتى الآن :

وأصبحت له شخصية تختلف كل الاختلاف عن شخصيته الأولى .

فصار قليل الاختلاط بالغير نسبياً وقلما تحـدث عن تجربته القاسية . وإذا لم يستطع تجنب الحـديث عنها قال إنه من الصعب التحدث إلى الغير بشأنها . وهـو يصغى لبرنامج الراديو ساعات طويلة مفضلا البرامج الفكاهية مع أنه لا يضحك لها . وهو ليس ممن ينفرون من الناس، علاوة على أنه مؤدب فى تصرفه ويراعى شعور الغير، وهو كذلك يتحرك فى البيت ويقوم ببعض الأعمال . وتعلم أن يذهب إلى عمله دون مساعدة ، بالسيارة العامة كل صباح، ويساعده فى الصعود والنزول غيره من الركاب أو السائق . وبعد النزول من السيـارة يسير باقى المسافة على قدميه مستعينا بعصاه . ويثير تصرفه هكذا إعجاب أصدقائه وجيرانه ، فهم يشعرون أنه استطاع أن يصيب كثيراً من النجاح إذ الواقع أنه لم يتغلب على الصعوبة تماماً .

ويدل سجله على أن قدرته على التكيف قدرة استثنائية ، وقد سـاعده على ذلك سنه ، وحواسه السليمة باستثناء البصر ، وقوته البدنية وجهازه العصبي الممتاز . وفى هذا السجل يرى القارىء أيضاً تشخيصاً للأسباب التى حالت دون إحرازه نجاحاً أعظم . إذ يقول : لقـد كان للعوامل النفسية أثرها . وقال باحث اجتماعى عن نفس الحالة : إنه لم يكن لديه موارد عقلية يمكنه أن يلجأ إليها .

الحالة الثانية : السيد (س) : فقد بصره وهو فى العقد الخامس . وكان مزارعاً متزوجاً وله ستة أولاد، اثنان منهم بالغان . وكانت مزرعته تبعد بضعة أميال عن أقرب مدينة . أصيب فى حادث بسبب إحدى

الالآت الزراعية ونقل إلى طبيب محلى قرر استئصال كرتى العينين .
وكان المصاب معتادا على الجد فى العمل ، ذا صحة جيدة وجهاز عصبي
سليم . ولم يكن من رأيه الاستمتاع بالحياة قبل أن تدركه الشيخوخة ،
ونشأ أولاده على شاكلته فى الجد والكفاح ، وكانت زوجه كذلك
تشاطره الفخر بحب العمل والإنتاج . وبالاجمال كانوا ناجحين إلى
حد ما . ومن الناحيه الدينية كانوا مدققين فى مراعاة الشعائر ، وإن
كانت تنقصهم الغيرة والحماس . ولما كان السيد (س) يقضى دور
النقاهة فى المستشفى زاره قس إنجيلى وصلى معه ثم حثه على الاعتراف
بخطيئته . ولما عاد المريض إلى بيته بدا عليه أنه كان لا يزال تحت تأثير
الهزة العصبية التى انتابته بسبب الحادث . فالتف حوله أهل بيته
وجيرانه ليساعدوه . فحاول فى بادىء الأمر أن يقول إنه قادر على
قضاء بعض حاجاته بنفسه ولكنه بسبب ما لقى من تدليل بقى جالساً
فى مكانه لا يحاول أن يعمل شيئاً . وكل من حوله يكررون على سمعه
ألا يهتم بشىء ، فكان يقبل مساعدتهم . فإذا ما جلس إلى مائدة
الطعام وضعت الشوكة والملعقة فى يده . وبعد تناول الطعام أعيد إلى
حيث اعتاد الجلوس ، مع أنه قضى فى هذه البيت معظم حياته . وداوم
القس على زيارته والصلاة معه . ولم يفكر السيد (س) فى شىء يقوله
إلا أن يسأل أصدقاءه : لماذا يحل بى كل هذا مع أنى كنت رجلا صالحا
على الدوام . وفى فترات عديدة كان يبدو عليه الانفعال الشديد فيبكى .

وكان يسكن بجوار السيد (س) رجل أعمال تربطه بالعائلة رابطة صداقة . لاحظ هذا الرجل أن المساعدة التي تقدم للسيد (س) أكثر مما ينبغي ، ومع أن هذه الملاحظة لم تقابل بالرضا من أفراد العائلة إلا أن السيد (س) اهتم بها . وكان مما أشار به هذا الصديق أن يستعين السيد (س) بكلب مرشد فذهب إلى المدرسة للتدريب فطالت مدته أكثر من المعتاد ، ولكنه عاد أخيراً إلى المزرعة بالكلب وقد تغيرت حالته تغيراً كلياً . فلم يعد يكرر شكواه على الناس ، وبدأ يمزح ويقول بعض النكات . وأخذ يشترك في العمل بالمزرعة بجمع الدريس وحلب الأبقار . وكان الكلب رفيقه الذي لا يفارقه . والمعتقد إجمالا أن الكلب عاونه على التغلب على محنته وأرغمه على الحركة ، وقد قيل الشيء الكثير في هذه الحالة عن العزاء الذي حصل عليه الرجل عن طريق مرافقة الكلب له وعن العلاقة الجميلة التي تكونت بين الكلب وسيده .

الحالة الثالثة : كان السيد (م) : في الخامسة والثلاثين عندما أصيب بفقد البصر . وكان مطلقاً ويشغل وظيفة كاتب حسابات ، وكان ماضيه يدل على بعض الاضطراب في شخصيته . وفي حداثته وضع في إصلاحية الأحداث . ويعزى معظم السبب في انتهاء حياته الزوجية إليه هو . وكان لا يبقى طويلا في أية وظيفة يشغلها . وذهب مرة إلى محلل نفسي ليساعده ولكنه لم يستمر في العلاج . وكان صغيراً في الجسم ناقص التغذية . أما حواسه فكانت سليمة باستثناء إصابته بقصر النظر .

وفى حادث انفجار لمادة كيميائية فقد بصره واستؤصلت إحدى عينيه . وقد قابل النهاية التى وصل إليها بهدوء غريب . وبدأ يختبر البيئة الجديدة بنفسه ويطلب أن يترك ليمشى وحده فى ممرات المستشفى. وقد أبدى رجل الدين الذى كان يزوره بالمستشفى دهشته مما كان يبديه من شجاعة ومرح وقد كان من أثر إعجاب إحدى الممرضات به وتصرفه تجاه محنته أن تزوجت منه . والمرة الوحيدة التى أبدى فيها رد فعل مغاير كانت عندما اقترح عليه الطبيب أن يستشير فى أمره إحدى الهيئات الاجتماعية . ولكنه قبل فيما بعد عندما علم أنه يستطيع أن يتعلم هناك طريقة برايل فى القراءة وكذا الكتابة على الآلة الكاتبة . ولما كان مؤمنا على نفسه ضد الحوادث فقد دفعت له شركة التأمين مبلغاً غطى على نفقات العلاج فى المستشفى ولم يتبق لديه إلا مبلغ بسيط يأتيه عن طريق التعويض الصناعي . فكان عليه إذن أن يسعى للحصول على عمل ليعيش . وكان اعتراضه الوحيد على الذهاب إلى الهيئة الاجتماعية أنه لم يرد أن يقابل كل المكفوفين هناك . ولكنه ذهب وتعلم ما أراد فى سرعة مدهشة ولم يعد إلى الهيئة بعد ذلك . وإلمامه بعملية مسك الدفاتر أعطاه فكرة عن عمل شركات التأمين فالتحق بإحداها وعمل بكل نشاطه للإتيان بمشتركين جدد . وكانت له طريقة فذة فى تدوين بياناته . وقد انقضى

عليه فى هذا العمل خمس سنوات ويقول إنه يكسب فى العام ١٥٫٠٠٠ دولار ويستخدم معه فى العمل مساعدين . وقد تغيرت حالته تماماً . فبعد أن كان عصبى المزاج سريع الغضب أصبح هادىء الطبع مالكا لزمام نفسه . ويقول معارفه إن فقدانه للبصر غير كل مجرى حياته وكثيراً ما يتحدث هو عن هذا التغير فى اجتماعات تعقد بالأندية المختلفة . وإذ يذكر أحاديثه مع المحلل النفسى منذ سنوات مضت يقول إن كف البصر كان له بمثابة التحرر . وكثيراً ما يتندر بميزة عدم رؤية الشر الموجود فى العالم فيقول : إن ما لا تستطيع رؤيته لا يزعجك . إن تشخيص ما حدث فى هذه الحالة هو أن ما أخفاه من إمكانيات أظهرته المحنة . وبالعزم وبالشجاعة استطاع التغلب على العقبات التى جاءت فى طريقه . وأجمع الكل على أن تكيفه بلغ حد الروعة . أما حركاته البدنية فناسبة فهى سريعة وتدل على الثقة . ومع أنه يعتبر أن الكلب المرشد لا لزوم له فإنه لا يمشى وحده أبدا .

هذه الحالات الثلاث تعرض صوراً من الحياة مألوفة لدى كل الذين يعملون بين المكفوفين فى أمريكا ، وإن تكن الثالثة أقلها شيوعاً . أما الحالة الأولى فمعروفة للغالبية وفيها نرى الدليل الواضح على أن العجز عن التكيف يرجع إلى الاستمرار فى غمر النفس بالانفعال والجزع . أما الحالة الثانية فإنها وإن كانت تشبه الأولى إلا أن البيئة كانت العائق فى سبيل البرء السريع إلى أن جد على الموقف

عامل خارجى له أثره المعروف ألا وهو الكلب المرشد . أما فى الحالة الثالثة فليست هناك مشكلة نفسية تذكر . فإذا شعر المصاب بالانفعال النفسى يغمره فإن ذلك لا يكون عقبة فى طريقه ، ولذا لم يصادف صعوبة كبرى فى تكيفه الاجتماعى أو الجسمى .

وحقيقة الأمر أن صاحب الحالة الأولى كيف نفسه حسب الموقف تماما . أما فى الحالة الثانية فتم التكيف بعد صراع استلزم قدراً كبيراً من التعديل . أما فى الحالة الثالثة فهناك عامل يناقض تماماً فكرة الشجاعة الأدبية اللازمة فى مثل هذه المواقف . وهذا العامل هو أن فقدان البصر خلص المصاب فعلا من صعوباته السابقة .

لنعد مرة أخرى إلى هذه الحالات الثلاث لنرى ما يمكن الوقوف على انفعال طويل المدى من النوع الذى يحول دون التكيف حقاً . إن صاحب الحالة الأولى أصابته هزة عنيفة ولكنه تغلب عليها . فالصورة التى تستخلصها ليست صورة رجل مهموم كما يبدو عليه لأنه كيف نفسه اجتماعياً على قدر فهمه لما ينتظر من رجل كفيف . فكان تكيفه محدوداً أى بالقدر الذى رآه ضرورياً . فهو لم يتعرض لخطر الموت جوعاً . والضغط الاجتماعى الذى كان يحمله على بذل الجهد لم يعد له وجود . وبعد فقد بصره نزل بمجهوده إلى المستوى المنتظر منه من الناحية الاقتصادية والبدنية . وهو بالطبع لم يفعل ذلك عن

محمد ، ولا شك أنه ستعلوه الدهشة إذا سمع أن أحد القراء يتهمه بادعاء المرض تخلصاً من العمل ، لأنه ليس كـذلك . لقد كان دائماً رجلا حسن الطوية يساير التقاليد . لقـــد كان ولا يزال يعيش على نظام معين ، فلا شك أنه منذ الطفولة اعتاد عند دخول بيت الله مثلا أن يتخذ مظهراً معيناً . وأما التغييرات التى طرأت عليه فيما بعد فـكلها سطحية ومنتظرة من الـكفيف . والرجل ناضج من الناحية النفسية فاستطاع أن يعيد تنظيم حياتهعلى قدر إدراكه وبالقدر الذى قضت به الضرورة . إنه يعمل وإن يكن تحت ظروف سهلة ، وينتج سلعة نافعة . وقد تخلص من لذع الشعور بالنقص بالاعتقاد السائد عنه فى بيئته أنه مع مراعاة ظروفه قد أحسن التصرف بطريقة تدعو إلى الإعجاب . أما عن الحالة الثانية واحتمالاتها فعلينا أن نتبع الرجل إلى مدرسة الكلاب المرشدة، لقدكان أكبرسناًمن كل التلاميذفى فرقته.هؤلاء التلاميذ كانوا غالباً أطول اختبارا منه بحياة الـكفيف وإن كانوا أصغر سناً . وكثيرون منهم تخرجوا من مدراس المكفوفين الداخلية فلم يكن يتسع صدرهم لشكواه عند التحاقه بالمدرسة . ولنذكر مثلا أن فلسفته التى كان يتمسك بها هى أن كل شخص يجب أن يعمل . وفى مزرعته كان كل فرد من أفراد العائلة يعمل . لم يكن منهم واحد يعيش عالة على غيره . وكان يقدر بالطبع أن أمامه عدة سنين للعمل

المنتج . لقد كان فى استطاعته أن يكف عن العمل ، ولكن ذلك لوحدث يكون على حساب غيره . وقصارى القول إن الضرورة كانت تقضى بالعمل . ولكن جد فى الموقف عاملان أولهما أنه منع من العمل ولم تعط له الفرصة ليحاول أن يتكيف ، فالملاعق والشوك كانت توضع فى يديه . وثانيهما أن الناس حاولوا أن يقنعوه بأن فقد البصر كان عقاباً من الله له لأجل خطيئته ، وكان هذا عكس اعتقاده في نفسه إذ كان يكرر القول إنه كان دائماً رجلا صالحاً مجداً ومن عائلة كريمة .

وكان زملاؤه فى الفرقة يسخرون من فكرة القصاص هذه . ولاحظ المراقبون دهشته من أنهم لا يشاطرون الغير هذا الرأى . وكان يصغى إليهم بشغف ليتأكد من صحة مايسمع .

وفى أثناء وجوده فى المدرسة أزيلت من طريقه العقبات التى كانت تحول دون تكيفه ، والواقع أن التدريب العنيف على استخدام الكلب المرشد فى الشوارع لا يقدم الفرصة لاستعمال قدرات كثيرة فحسب بل يتطلب الاستعانه بكل الحواس إلى أقصى حد ، وكل هذا يحدث بالطبع تحت إرشاد رجال قادرين على أن يعينوا الفرد على العادات الخاصة بالمشى والمظهر العام . وأثناء التدريب كان تقدمه بطيئاً . ولم يكن السبب فى ذلك أنه لم يستطع فهم المبادىء المطلوبة

بل لأن فكرة السماح له بالحركة وحده لم يتقبلها هو إلا ببطء . وبعد أن رسخت فى ذهنه كان تقدمه مطرداً فى جميع النواحى . فاستعار موسى من صديق له وحلق لحيته لأول مرة منذ فقد بصره . وفى بلدته التى عاد إليها يعزى كل التحسن والتغيير الذى بدا عليه إلى الكلب الذى يرشده .

أما عن الحالة الثالثة فنرى من مظاهر السجل تخلص شخصية بها اضطراب عصبي من متاعبها بمجرد فقد البصر . إننا نستطيع فقط أن نعرف بالحدس والتخمين مصدر الشعور الداخلى بالذنب الذى أعاق تقدم هذا الشخص قبل فقد البصر . أما ما يبدو جلياً فهو أنه تخلص من هذا الشعور بسبب كف البصر . أما الهزة الخفيفة التى انتابته عند معرفته أنه سيعيش بلا بصر بعد استئصال إحدى عينيه فكانت حقيقة غير مرغوب فيها أكثر منها هزة . وأى منطق هذا الذى يقول إن العجز الجسمى فى حد ذاته يدفع الشخص بأى حال إلى بذل الجهد والعمل . إننا لا نسمع عن هذا إلا فى روايات الحب والغرام . وما استطاع الرجل أن يقوم به بعد فقد البصر لم يكن الدافع إليه من الخارج ولكن كل الإمكانيات المؤهلة له كانت موجودة قبل فقد البصر ولكن عاقه من استخدامها ارتباك شخصيته .

إن القدر الذى يعين به الطب النفسى المريض على التكيف كان موضوع بحث شامل مؤخراً . وقد يظن أكثر الناس فى الوقت الحاضر أن الحالة الأولى التى تناولناها كانت تحتاج إلى خبرة الطبيب النفسى ، ولكنها أقل الحالات الثلاث حاجة إلى المعونه أما الحالة الثالثة فهى أشد الحالات الثلاث حاجة إليه . على أننا يجب ألا نخلط بين الطب النفسى وبين التكيف . فالمريض فى الحالة الأولى لم تدل استجابته على اضطراب عصبى بأى حال بل كانت دائماً فى حدود إدراكه للموقف . وليس هناك دليل على أنه عالج مشكلته بتفكير غير ناضج . وإذا حاولنا سبر غور شخصيته فربما وصلنا إلى مؤثرات البيئة التى أوصلته إلى تكوين آرائه الحالية . لقد كان محدود الذكاء بلا شك ، ولكن المحلل النفسى لا حيلة له فى هذا .

أما الحالة الثانية فالمريض لاقى فيها وسيطاً له قدرة على أن يعترض على معتقدات بيئته المنزلية . وقد أعانه على التكيف شعوره بحاجته إليه .

وفى الحالة الثالثة نرى أن أسلوب تفكير المريض ليس مبنيا على أساس سليم . فلو أن اقتناعه الداخلى بأن فقد البصر جاء جزاء وفاقاً على ما اقترف ، وتخلص بذلك من الشعور بالذنب ـ فإن تزعزع هذا الاقتناع فى أى وقت من الأوقات يؤدى إلى عواقب وخيمة .

فمن المحتمل أن تعود إليه كل مخاوفه واضطراباته ، التى كان عليه أن يحاربها ، بالإضافة إلى المتاعب الأخرى التى تصادف المكفوف . وقد صرح طبيب من معارفنا بأن المصابين بأمراض عصبية والذين يجدون الخلاص عن طريق جهاز كفقدان البصر ، فى الغالب ، يعودون إلى حالتهم الأولى إن عاجلا أو آجلا . إلا أن هناك أملا فى أن فقد البصر يقدر أيضاً أن يكف البصيرة عن رؤية الحقيقة من غير أن يدرك المكفوف أنه يفعل ذلك .

وعلاجه على يدى محلل نفسى كفء يقوى الحالة النفسية التى وصل إليها المكفوف ، وقد يخلصه إلى النهاية من مشكلاته .

الفصل الثامن

العناية بالمكفيف قبل وبعد فقد البصر

الموقف

لم يكن بين رواد المربين للمكفوفين سوى كلين (Klein) النمساوى الذى بدا عليه أنه كان يدرك حاجتهم إلى نوع خاص من التربية البدنية تلائم بيئتهم الخاصة . ففى مؤتمر المربين الأوربيين للمكفوفين الذى عقد فى سنة ١٨٧٣ عرضت نماذج مما يتعلمه المكفوفون فيما يتصل بأبدانهم فى المعهد الذى شيده كلين ، مما أثار دهشة المجتمعين، ولكن الأمر وقف عند حد إثارة الدهشة فقط ولم ينتج أثراً التطور فى المستقبل. ومع أنه كان هناك مربون آخرون مثل كامبل (Campbell) ممن أكدوا أهمية التربية البدنية وحاجة المكفوف إليها، فالقليلون منهم هم الذين فكروا فيها تفكيراً محدداً . ويقول فرنش (French) فى هذا الصدد « إنه من الصعب أن يدرك الإنسان كيف أن عاملا أساسياً كهذا أهمل كل هذا الإهمال الشنيع » .

ويظهر أن هاوى (Hauy) كان يعتقد أن إلمام المكفوف

بما فى الفن والأدب من جمال يحل مشكلته . ولو لم يتخذ تفكيره هذا الاتجاه لبقيت تربية المكفوفين قاصرة على تعليمهم بعض الحرف والأشغال البسيطة . ويجدر أن نشير إلى أننا فى هذا المقام لا نهدف إلى النقد وإنما نقصد فقط الإشارة إلى عدم إدراك حاجة المكفوفين إلى تربية بدنية خاصة، وقد ظلت فكرة هاوى التى يفهم فيها أن أساس النفع الاجتماعى والبدنى هو استقامة الخلق ، مسيطرة على التفكير لمدة طويلة .

لقد رأينا فى الفصل الأول من هذا الكتاب كيف أنه حتى العقد الحالى لم يكن فى أمريكا أى مركز لتدريب المكفوفين . وقد أنشىء أول مركز لهذا الغرض فى أفون (Avon) تحت رعاية عسكرية . ثم تبع هذا إنشاء مركزين بدنيين تحت إشراف السلطات فى ولايتى فلوريدا وكارولينا الشمالية ، إلا أن برامجها لم تتسع دائرتها كثيراً. وحدث فى اجتماع مجلس نيويورك للهيئات العاملة بين المكفوفين الذى عقد فى سنة ١٩٤٧ أن أحد الخطباء بعد أن حاول أن يبين النقص الغريب فى برامج تدريب المكفوفين سئل بشىء من التهكم عما يمكن أن يقترحه ليصبح أساساً لمثل هذا البرنامج الذى يشير إليه . فأجاب إن هذا الأساس يمكن أن يكون بإعداد اختبار لحاسة السمع ، لأنه دون الوقوف على حالة السمع لا يستطيع أحد من المشتغلين بهذه الهيئات أن يعمل شيئاً أكثر من أن يلجأ إلى الحدس والتخمين عن

قدرة التكيف البدنية ، وتكون النتيجة أن مايقدم من نصح وإرشاد يصبح على غير أساس مناسب . ولم يستطع أحد ممن كانوا حاضرين فى اجتماع المجلس أن يبين بطريقة مرضية السبب فى عدم اختبار السمع وبخاصة لمن يصابون بفقد البصر لطارئ ما ، ويأتون للهيئة طلباً للنصح والإرشاد . ذلك لأن مثل هذا الاختبار، على الأقل، يبين أن اعتلال هذه الحاسة قد يؤدى إلى تعطيل التكيف، وأنه إذا وجد مثل هذا الاعتلال فيجب علاجه إذا أمكن ذلك . وذكر الخطيب بعد ذلك أنه يعرف عدة حالات بها نقص فى حاسة السمع لم تعن الهيئات الاجتماعية بها . إن الفلسفة التى تقوم عليها وجهة النظر هذه هي أن الخلق هو العامل الحاسم فيما يفعله الفرد بنفسه ، فالتكيف البدنى على مستوى عال يسير جنباً إلى جنب مع التكيف الاجتماعى الذى هو فى جوهره المعيشة فى تفاهم ووفاق مع المجتمع ، وهذه حالة يكون الخلق عاملا حاسماً فيها ولا شك . وعلى هذا الأساس يفترض أن الخلق أيضاً هو الحكم الأول والأخير فى الميدان المادى . لقد فهم المسبب خطأ على أنه السبب ، ولقد كان هناك إخفاق فى التمييز بين التكيف البدنى والتكيف الاجتماعى .

فى سنة ١٩٤٧ عقد مؤتمر جامعة متشجان لبحث المشكلات المهنية للمكفوفين . ومع أن نتائج مؤتمر أفون كانت أمام المجتمعين إلا أنهم توصلوا إلى توصيات قليلة واضحة، وقال أحد المعقبين على المؤتمر إن

نتيجته الوحيدة هى التقليل من شأن عدم وجود معلومات منظمة عن هذا الموضوع بالذات .

دراسة حالة نينا . ر . (Nina.R.)

إن حالة نينا . ر . (Nina.R.) تبين بأجلى وضوح عدم صلاحية كثيرين ممن يعملون بين المكفوفين .

تبلغ نينا.ر. من العمر الآن خمساً وثلاثين سنة . وبعد سن الطفولة قضت معظم حياتها تعمل فى إحدى الهيئات الأمريكية فى ظروف خالية من كل منافسة . وكانت قد فقدت بصرها فى طفولتها ، وهجرتها أمها وهى صغيرة جداً فكفلتها هيئات المكفوفين، وتقرر بشأنها أنها لا تصلح للعمل إطلاقاً إلا تحت ظروف تخلو من المنافسة تماماً. وكانت سيئة العادات، لا تعرف كيف تلبس ولا كيف تأكل برشاقة . وهى وإن كانت تبدو باشة إلا أن أحد التقارير يذكر عنها أنها ساذجة . ومنذ عدة سنوات حاولوا أن يدربوها على الاستعانة بإحدى الكلاب المرشدة ففشلت فشلا ذريعاً . ولم تستطع ألبتة أن تكون فكرة عن الجهات الأصلية ، مع أنه كان فى استطاعتها أن تصف الطريق إلى أية بقعة تعرفها فى المدينة لأى إنسان ، فإنها هى شخصياً كانت تضل الطريق إذا حاولت ، ولذا

كانت تسير دائماً فى رفقة شخص يقودها . وإذا ما سئلت عن اتجاه الطريق عن بعد خطوات منها ضحكت وقالت لست أدرى . ومن الناحية العاطفية كانت تعتبر غير ناضجة ولم يكن من المنتظر أن تتحسن . ولكنها بالرغم من المعارضة الشديدة من جانب المسئولين فى الهيئة تزوجت مكفوفاً كان على العكس منها ماهراً فى الاستعانة بالكلب المرشد ، وعلى درجة عالية من الذكاء واللياقة البدنية .

وكان الاثنان يستعينان بكلب مرشد واحد على عكس ما ينصح به المختصون،فكان هذا أول اختبار لها فى الخروج بغير مرشدمبصر . ثم طلبت الالتحاق بمدرسة التدريب على استخدام الكلاب المرشدة فرفض طلبها ، لالأن الأمل فى نجاحها كان قليلا فحسب، بل أيضاً لأن المدرسة خشيت أن يعود عليها فشلها مرة أخرى بضرر بالغ نفسياً .

عنى أحد طلاب علم النفس بهذه الحالة . فقد لاحظ أن زواجها كان موفقاً وأن الزعم بعدم نضجها عاطفياً غير صحيح. ثم اختبرحاسة السمع عندها ليتأكد من أنها ليست سبب مشكلتها فوجدها سليمة . عندئذ ألح على المسئولين فى مدرسة الكلاب المرشدة أن يعيدوا النظر فى طلبها فقبلت تحت تأثير إلحاحه ، والشك فى نجاحها يساورهم . ولكن نينا .ر. نجحت هذه المرة . وكان أول عمل قامت به بعد عودتها إلى المنزل بالكلب أن ذهبت بمفردها إلى حفل غنائى فى حى قريب.

كيف حدث هذا ؟ يمكن للباحث أن يقول إن نينا.ر. شجعها على

هذا ما رأته فى زوجها من روح استقلالية . ولكن ليس هذا كل ماهناك فإن نينا.ر. عرفت ولاشك مكفوفين كثيرين مستقلين ولكنها لم تتأثر بهم . إن زوجها كان يضيق بعدم قدرتها على التنقل وحدها ، وشعوره هذا ولد فيها أول اختبار من نوعه عرفته فى حياتها . لقد كان المعروف عنها وما تسمعه هى شخصياً أنها لا تستطيع أن تعمل شيئاً وحدها فهى لذلك لم تنتج ، أما وقد أشعرها زوجها أنها تستطيع الاعتماد على نفسها فقد تغير اعتقادها فى نفسها وصارت قادرة على التنقل بمساعدة كلبها وأن تذهب إلى عملها متخللة عدة سيارات عامة كل يوم . صحيح أنها لا تزال تظهر بلباس غير لائق إذا ماقورنت بالمبصرات ، ولا تزال تنقصها الرشاقة فى المأكل، كما أنه من المشكوك فيه أن يعلو مقياس قدرتها على العمل فى هذه السن المتأخرة . إلا أنه من الواضح الجلى أيضاً أنها قد تخلصت من نقطة الضعف فيها . ويلاحظ من يهمهم أمرها من المبصرين أنها تغضب ممن يسألها عما إذا كانت فى حاجة إلى مساعدة . وقدسألت فى ذلك صديقها طالب علم النفس قائلة : هل تظن أن هذا السؤال يقدم لى لأنى أصبحت أعتمد على نفسى أكثر من اللازم ؟

العناية قبل فقد البصر — طبيب العيون

دعنا الآن نحاول متابعة العوامل التى يتعرض لها من يفقد البصر

كبيراً ، حسب ترتيبها الزمنى . وبالطبع سنجد أن أول عامل فى البيئة يتحكم فى الموقف مباشرة هو الطبيب .

والأثر الذى يتركه طبيب العيون يقاس بنجاحه أو فشله فى إعادة البصر إلى المريض. فنى حالة فقد البصر تماماً يختفى الطبيب من الميدان، وأثره يكون فى هـذه الحالة عرضياً فى الظاهر مع أنه فى الواقع أثر بالغ الخطر فى حالات كثيرة . فنى المدن الكبرى مثل نيويورك يحيل أطباء العيون الحالات التى يفشلون فيها إلى الهيئات الاجتماعية فى الحال ، ولذلك يبدو أنهم لا يجدون ما يدعوهم إلى الإلمام بالوسائل التى بها يحتوى المرضى على ضرورة التكيف الاجتماعى والبدنى . أما فى الأنحاء التى تبلغ فيها الهيئات الاجتماعية درجة عالية من التنظيم فيظل الطبيب المصدر الوحيد فى الغالب لتقديم النصح والإرشاد . وفى معظم المدن يضطر المرضى إلى الاعتماد على الطبيب ليرشدهم أين يمكنهم تعلم القراءة على طريقة برايل أو الكتابة على الآلة الكاتبة بطريقة اللمس أو كيف يستخدمون العصا إلى غير ذلك . إلا أننا نعلم أن منهاج طب العيون لا يشمل دراسات منظمة فى هذا الشأن . ويظهر القدر الضئيل الذى يلم به أطباء العيون عن المعلومات التى يحتاج إليها المكفوف من أن اثنين فقط ، من ستين أخصائياً حضروا اجتماعاً دعت إليه جمعية الرمد بنيويورك ، عرفوا ثمن الكلب المرشد .

على أن هـذه الاعتبارات أقل أهمية من الوجهة النظرية من

غيرها . فالطبيب مسئول أيضاً عن حالة المريض العقلية والنفسية فى إحدى مراحل حياته الدقيقة . وتصرفه كطبيب يخضع خضوعاً تاماً للدستور الأدبى الذى يتمسك به كل الفضلاء، والذى يجعله مطلق التصرف فى معالجة العوامل النفسية الخاصة بالموقف . وقصارى القول إن الطبيب لا مسيطر عليه إلا ضميره : فهو حر فى أن يصرح بكل الحقيقة للمريض عن حالته أو بجزء منها أو أن يكتمها عنه ، كما أنه حر فى أن يطلع المريض على نوع الجراحة التى سيجريها له أو يمتنع عن ذكر أى شىء من ذلك .

ومنذ خمس سنوات اجتمع فردريك بنتلى Frederick Bentley باثنين وثلاثين طبيباً للعيون ليعرف منهم ما إذا كان هناك شبه اتفاق على ما يطلعون المرضى عليه . فأخبره سبعة عشر منهم (أى أكثر من النصف) أنهم يتبعون سياسة عدم التكهن بشىء عما يحتمل حدوثه إلا بعد أن يتبين لهم أن الحالة ميئوس منها . وقال أحد عشر طبيباً آخرون إنهم يعلنون الحقائق السيئة لمرضاهم إذا وجدوهم قادرين على تحملها ليعدوهم للنتائج المنتظرة . وقال الأربعة الباقون إنهم يذكرون الحقائق صريحة لمرضاهم عندما تبرر الحالة ذلك بغض النظر عما يرونه فى المريض من استعداد . ويبرر نحو عشرة من السبعة عشر الأولين موقفهم بقولهم إن الصراحة قد تدفع المريض إلى محاولة الانتحار . إلا أن بنتلى (Bentley) بما له من خبرة طوال ثلاثين عاماً لا يوافق

على هذا الرأى الأخير ويقول إنه فى كل هذه المدة الطويلة كان يقول الحق مجرداً للكل ولايذكر إلا حالتين اثنتين حاول المريض فى كل منها الانتحار .

وإذا كان لنا أن نخرج من هذا البحث المحدود بنتيجة عامة حق لنا أن نقول إن شخصية الطبيب هى التى تقرر مايجب أن يعرفه المريض. وقد أبدى أحد الأطباء ملاحظة في هذا الصدد فقال إن أطباء العيون هم أسوأ الأطباء عامة تطبيقاً لعلم النفس . فهم يعالجون عضواً تتحكم فيه قوانين الطبيعة والميكانيكا أكثر من أى عضو آخر فى الجسم . فعامل شخصية المريض لايدخلونها فى حسابهم كما يفعل أطباء الأمراض الباطنية مثلا. وزيادة على ذلك فإن أطباء العيون متخصصون تخصصاً تاماً ، فلا يعودون إلا المرضى بعيونهم لا غير ، بعكس الأطباء العموميين الذين تتاح لهم الفرصة لدراسة المريض دراسة أعم مما تتطلب حالته الخاصة . وقل من الأمراض ما يسبب القلق والخوف اللذين تسببهما أمراض العين وبخاصة إذا كان المرض مصحوباً بألم. وقد لاحظ فيرنيزى Ferenczi أن الألم يولد فى المريض حالة خاصة ينزل فيها إلى مستوى الطفولة ، فالأجهزة العصبية التى يسيطر عليها الإنسان فى الظروف العادية، يفقد السيطرة عليهـا تحت ضغط الألم فتطفو على السطح وتبدو آثارها . والألم الذى يصحب أمراض العين بنوع خاص قد يؤدى إلى تصرفات عصبية . ولما كانت العين عضواً له أهميته العظمى

فمعظم المرضى به يأتون إلى الطبيب فى حالة نفسية يظهر منها أنهم غير قادرين على تحمل الحقائق السيئة التى تتعلق بحالتهم .

والمعتقد أن الامتناع عن الإفضاء للمريض بالتطور السيىء للمرض ضئيل يخفف من حدة قلقه، وأن ذكر الحقائق للمريض قد يثير صعوبات تؤثر فيما تبقى للمريض من حظ يعتمد عليه الطبيب . إنما الواقع هو أن عدم الإفضاء بحقيقة الحالة للمريض يعمل على تأييد قلقه وخوفه . ففى أكثر الأحيان يذهب الإنسان فى تخيلاته إلى مدى أبعد فى التشاؤم مما لو ذكرت له الحقيقة . فبعدما يستشير المريض طبيب العيون فى مرض خطير انتابه يصعب الافتراض أنه لا يدرك أن شيئاً ما حدث بعينه ، وليس من الصواب ما قاله أحد الأطباء الاثنين والثلاثين من أن ما لا يعرفه الإنسان لايزعجه بل إن الصواب الذى يؤدى إليه الاختبار هو أن مالا يعرفه الإنسان يزعجه أكثر .

الصدمـــة

إن هذه الاعتبارات تقابل بمقاومة ملحوظة من الأطباء لأنها تتناول موضوعاً يعتبرونه من صميم اختصاصهم . على أن هذا الموضوع من الأهمية بمكان عظيم لأنه يتعلق بمستقبل كل كفيف يفقد بصره بعد تركه لعناية الطبيب . تقول مارى كامبل Mary Campbell إن خمسة أو ثمانية فى المائة ممن يفقدون بصرهم بسبب المرض يواجهون

صعوبات فى التكيف فيما بعد بسبب المعاملة غير الحكيمة التى يعاملهم بها الأطباء من الناحية النفسية . وتدل الإحصاءات التى حصل عليها بست Best على أن ٥٤٫٤٪ من المكفوفين يفقدون بصرهم بسبب المرض ، و١٦٫٥٪ بسبب الحوادث، والباقين لأسباب غير معروفة تماماً . وأولئك الذين يفقدون البصر بسبب الأمراض يتصلون بالأطباء لمدة تتراوح بين بضعة أسابيع وبضع سنوات . وإذا كان الأمر كذلك كان من المهم أن نلاحظ أن الذين يفقدون البصر بسبب الحوادث يظهرون ميلا ملحوظاً للتكيف اجتماعياً وبدنياً أكثر من الأولين مع أن الصدمة التى تصيبهم يجب أن تكون أعنف لأنها لم تكن متوقعة.

يقول بعض أطباء العيون إنهم يريدون أن يجنبوا مرضاهم الصدمة أطول مدة ممكنة . فلا فائدة من التعجيل إلا إذا كان لا مفر منها . وفى هذه الحالة يمكن ذكر الحقيقة بالتدريج أو حتى الامتناع بتاتاً ؟ . ولربما يصعب على البعض تصديق ما ذكرنا ، لذلك نورد تقريرين عن حالتين لفتتا نظرنا لمريضين مصابين بالمياه الزرقاء Cataracts التى فات أوان علاجها . ويقول الطبيب الذى يعالجها إنه لن يخبرها بحقيقة الحال . فهما يعتقدان أنهما سيستعيدان البصر يوماً ما . وبسبب هذا الأمل الذى يعيشان فيه ، يبدوان أسعد حالا ومن الخير لهما ألا يقفا على الحقيقة . ونتيجة ذلك على المريضين أنهما لم يحاولا قط أن يتكيفا

بأى صورة من الصور . فهما يجلسان بلا حراك ولا نفع منهما وتسوء حالتهما يوما بعد يوم .

وقد يكون من الأفضل أن نفهم الصدمة على حقيقتها وما سوف يحدث فى الجسم فى المواقف المفاجئة . وفى هذا يقول كانون Cannon إنه عندما يسمع الانسان أخباراً تحمل معهـا حقائق سيئة فوق قدرة احتماله، يقفل العقل حتى يحدث توازن فى القوى العقلية ويصبح العقل مستعداً لقبول الخبر أو الرأى الجديد . وبمعنى آخر إن القنوات أو المجارى التى تمر بها الحوافز الجديدة تقفل مؤقتاً .

ويصف فينيتشل Fenichel الذى ظـل حتى وفاته سنة ١٩٤٦ أحد الأخصائيين المبرزين فى الصدمات النفسية ما يحدث كما يلى :

« إن إقفال العقل يمـكن توضيحه على أنه تركيز لـكل الطاقة الذهنية الموجودة على أمر واحد وهـو تجنيد كل الطاقات المضادة للسيطرة على العامل الدخيل الجارف . والضرورة الملحة فى مثل هـذا الموقف تجعل كل الطاقات الذهنية الأخرى قليلة الأهمية نسبياً فتتنحى هـذه عن تأدية وظيفتها مراعاة لهذا العامل المفاجىء الذى يسيطر على الإنسان بكليته . وإذ يقع الإنسان تحت تأثير مثير جارف لا سيطرة له عليه، يتولد فيه داخلياً شعور بألم مثير يشبه إلى حد كبير الشعور بالقلق . ويحدث هذا نتيجة لسببين ، أولهما التوتر الداخلى

الذى لا يسيطر عليه الإنسان ، والثانى إفرازت لا إرادية تسببها الحالة المفاجئة » .

ويقول فينيتشل (Fenichel) أيضاً : إن الصدمة العصبية يزيدها تعقيداً التكوين العصبي للفرد ولكن مقدارها وعمق أثرها يتوقفان على السبب الخارجى لها .

وهناك نقص كمّى فى العقل المفكر للشخص العصبي يسمح للحوافز أن تثير مواقف عصبية ، علاوة على الحساسية فى نواح معينة من العقد النفسية التى تؤدى إلى نتائج عصبية . فإذا خضع الإنسان لقدر معين من القلق ، واستطاع أن يتغلب عليه بدوافع داخلية تولد الطمأنينة فى النفس ، فإن الصدمة العصبية تهدم دوافع الطمأنينة وتحرك الشعور بالقلق القديم .

وقياسا على هذا نقول إنه إذا تزعزعت ثقة إنسان بآخر (كالطبيب مثلا) كان يضع فيه ثقته الكاملة، فإن هذا يمكن أن يولد فى الإنسان شعوراً مفزعاً بأنه فقد حماية شخص قوى له صفات العقل . وتختلف حدة هذا الشعور تبعاً للدرجة التى وصل إليها المريض فى شعوره بالاستسلام قبل تعرضه للصدمة .

ثم يستطرد فنيتشل فيقول إن الإجهاد إذا طال قد يكون له نفس الآثار المترتبة على الصدمة . على أن هناك نوعا خاصاً من الإجهاد الطويل

له نتائج معينه . فالقنوط الشديد الذى يجعل المرء يشعر أنه قد ترك وحيداً دون عناية من أحد ، يدفع بالبالغين إلى حالات من عدم المبالاة تشبه حالات الغم والكآبة التى تنتاب الأطفال . ويظهر أثر القلق المتصل بالجنس واضحاً بنوع خاص فى الحالات التى سببت فيها الصدمة إلحاق الأذى بالجسم . (على أنه من المعروف جيداً أن الأمراض العصبية التى تسببها الصدمة تحدث أكثر فى الحالات التى لم يصبها أذى جسمى) .

ويؤكد فينيتشل أن إعداد المريض إعداداً مناسباً لسماع النبأ السيىء يمكن أن يمنع الصدمة أو يخفف من حدتها .

وعلى شخصية الإنسان نفسه يتوقف ما إذا كان التدفق المفاجىء لعامل استفزازى غير منتظر له آثار الصدمة العصبية أم لا ، لأن هذا يتعلق بحقيقة الموقف فى وقت حدوث الصدمة وبكل فترة دور الطفولة . وأما عن الموقف الفعلى فأول كل شىء أن حالة الإعداد لها أثر حاسم ، بمعنى أنه كلما ازداد الإعداد قل احتمال حدوث الصدمة . والأمراض العصبية تعقب الصدمة والعقل منهك من طول الإجهاد (هذا مع الافتراض مقدما أن الإجهاد لم يكن ناتجاً عن انتظار الحادث ، وهى حالة توجد ظرفاً ملائماً وليس العكس)

يظهر أن هذا واضح وضوحاً كافياً . فإننا لم نجد فيما كتب عن علم النفس ما يؤدى إليه قول أولئك الأطباء الذين يتمسكون بسياسة عدم

الإفضاء بالحقائق أو الإفضاء بالقليل منها ما لم يرغموا على ذلك إرغاماً .
وملاحظة فينيتشل تقول إن الصدمة تزداد كعقدة نفسية تلمس فى الشخص.
وهذه الملاحظة لها أهمية خاصة فى الصدمة التى تعقب النبأ الخاص بفقد البصر . وبالنظر إلى المعلومات الواردة عن العقد النفسية فى الفصل الثانى ، توضح ملاحظة فينيتشل شدة الصدمة عند فقد البصر . على أن هناك قليلين لا يبالغون قليلا أو كثيراً فى تقدير أهمية البصر وخاصة من حيث علاقته بالناحية الجنسية . واستئصال كرة العين على التخصيص تثير من الخوف المتصل بالجنس ما لا يثيره مجرد فقد البصر .

لذلك يجب أن تعد أذهان المرضى بالعيون لما ينتظر أن يحدث لهم أكثر من غيرهم . ويجب لذلك أن يكون طبيب العيون من أحسن علماء النفس بين المشتغلين بالمهن الطبية وليس العكس . ويظهر لذلك أيضاً أنه لا مفر من أن يتصرف حسب ما يملى عليه دستوره الأدبى عندما يأتى دور المبضع الذى يجب أن يستخدم عندما تقضى الضرورة.
كذلك يجب الإفضاء بالحقيقة عندما تعرف ، لأن هذا هو السبيل الوحيد الذى يمكن الجراح من الوصول إلى أفضل احتمال لسلامة المريض.

البرء من الصدمة

عندما أتقن المختصون طريقة معاملة حديثى العهد بفقد البصر فى مستشفى قدامى المحاربين ، أقلعوا عما اعتادوا أن يتبعوه من قبل مع المريض

الذي كان يترك وشأنه حتى يتغلب على مشكلته . فبدلا من ذلك كان على المريض أن يفهم بأسرع ما فى الإمكان ، أن الحركة أمر ميسور وأنه يستطيع أن يقوم بأعمال لم يكن يحلم بها . وليس الغرض من ذلك أن يعهد إلى المريض بشيء يعمله فحسب ، بل أيضاً لأن الصدمة كما يقول فينيتشل ، تجد منفذاً عن طريق الاستجابة التى تتطلب الحركة . إلا أنه وجد فى نفس الوقت أن المريض لا يجب أن ينتظر منه الكثير لأن المساعدة التى تسلكها الحوافز تنفتح ببطء فى بعض الحالات . فمثلا محاولة القراءة على طريقة بريل بأسرع مما ينبغى ، كثيراً ما تولد الاعتقاد بأنه من المستحيل إتقانها . وهناك بعض المرضى ممن تنقصهم الحساسية تماماً فى أطراف الأصابع .

وقد أدت ملاحظة من فقدوا البصر فى أثناء الحرب إلى نتائج قيمة لأنهم كانوا يكونون جماعة قائمة بذاتها من حيث صغر السن والقدرة القائمة على التكيف ، كما أنهم فى الأغلب فقدوا البصر بسبب الحوادث ، وهذه حالات يسقط فيها عامل تأثير القلق الطويل من الحساب . ولكن لأن كثيرين منهم كانوا فى حالة إعياء من الحرب ، ولأن تهيئة أجهزة الدفاع العصبية كانت لأسباب أخرى غير فقد البصر ، لم تعتبر هذه الجماعة ممثلة للمكفوفين بالمعنى الصحيح . إلا أن هناك نتيجة هامة برزت واضحة تضاف إلى الاختبار العام ، ألا وهى أنه

بالقدر الذى به تقدموا فى الحركة بدنيا ، بهذا القدر عينه سهل تغلبهم على مشكلاتهم النفسية .

ولأن الصدمة فى الواقع وسيلة سليمة تستخدمها الطبيعة لتجنب انهيار قوى الإنسان ، لذلك يجب أن تكون وقتية . فالحزن مثلا، إذا لم يصحبه مرض، لا يمكن أن يدوم فى الشخص السليم . لأن غريزة حب البقاء تتدخل تدخلا مباشراً . وإذا بدا أنها لا تتدخل فيجب البحث عن عوامل أخرى غير استمرار الصدمة نفسها ، وهنا يأتى دور المحلل النفسى الذى يرى أن الحنق الذى يملأ صدور حديثى العهد بفقد البصر يزيد الصدمة تعقيداً. فكثيراً ما نسمع منهم مثل هذه الأسئلة : لماذا يحدث لى ذلك ؟ لماذا اختصصت أنا بهذه المصيبة ؟ وكانت صدور من فقدوا البصر فى أثناء الحرب ملأى بالحقد على السياسيين وقواد الجيش، وحتى على زملائهم الجنود الذين كانوا ء على شعورهم ، بطريقة ما، سبب بلائهم. ولقد علمنا أن هـذا الشعور كان من أقوى العوامل التى كان يجب مقاومتها. وكان البعض يحتاجون إلى وقت طويل قبل أن يقتنعوا بمتابعة دراسات التكيف المعدة لهم فى المستشفيات وغيرها . إلا أن عدداً منهم ظلوا فى عنادهم ومقاومتهم . وهناك أيضاً من عادوا للاستزادة من من دراساتهم عندما اختبروا فائدة التدريب ونفعه .

الخـــوف

إن الخوف هو أول عقبة يصادفها الإنسان بعد أن يخطو أولى

خطواته وهو كفيف . والخوف له أساس منطقى عند حديثى العهد بفقد البصر الذين يحتاجون إلى بعض الوقت حتى يعرفوا ما يستطيعون وما لا يستطيعون . ولنتأمل قليلا فيما يواجههم فى ممرات المستشفى مثلا أو فى البيت حيث العون قريب .

إن الناس ينظرون إلى اختبارات المكفوف الأولى بكثير من الخوف والقلق . وأبسط أذى يصيبه يولد فيهم شعوراً عميقاً بالأسى والإشفاق . ولنقلها كلمة خالية من كل تزويق : إن هذا الجو النفسى الذى يحيط بالكفيف هو عينه الذى يجعل أولى محاولات التكيف صعبة عليه . فهناك كثيرون ممن فقدوا بصرهم بسبب الحوادث يقررون فيما بعد أن ما أصابهم فى محاولاتهم الأولى وهم مكفوفون من أذى لا يعتبر شيئاً إذا ما قيس بما كان يصيبهم فى ملاعب الكرة وغيرها وهم مبصرون ، وإن أكبر المؤلفين لهذا الكتاب ليشهد بذلك . إن تلاميذ المدارس الثانوية، إلى أن يصبحوا أعضاء فى فريق كرة القدم، يصابون بجروح ونزيف من الأنف وكسور فى الأطراف وحتى بارتجاج فى المخ . بينما قل أن تجد بين المكفوفين من يصاب بمثل هذه الإصابات . إن كل الفرق بين الاثنين هو فى الاختلاف بين الظروف التى يقوم فيها المكفوف بمحاولاته الأولى نحو التكيف والظروف التى تحيط بالتلميذ عند محاولته إثبات جدارته ليكون ضمن فريق الكرة . ففى حالة

الكفيف تجد الناس على استعداد لأن يفزعوا ويهرعوا إليه إذا ما رأوه وهو يتلمس طريقه فى بادئ الأمر ويلمس حافة كرسى بقصبة ساقه .

فى الواقع أن محاولة إيجاد طريقة للتكيف تتبع فوراً اختبار الصدمة ، لأن الصدمة يصحبها عود إلى مستوى الطفولة الذى ينفع فيه الإيحاء بدرجة كبيرة . إلا أن تأثير الخوف على موقف الإنسان حيال محنة مقبلة يرى بكل وضوح فى مؤلف لتومز (Thoms) وجودريش (Goodrich) عن الولادة ، حيث يستخدمان لظريات جرانتلى ريد (Grantly Read) . إن من آراء ريد أن كل الكلام الذى يدور حول موضوع الولادة حديثاً هو نفسه الذى خلق الصعوبات التى تصحب ولادة الطفل . إن المرأة منذ القدم أعدت لتنتظر آلام المخاض . إلا أن ريد يقول إن الولادة عملية طبيعية ولا يجب أن يصحبها أى ألم، ولكن تبعاً للمبدأ المعروف بأن الخوف يسبب التوتر فإن عضلات الرحم تعمل ضد بعضها البعض، وهذا هو ما يسبب الألم فعلا .

ولا يزال الأطباء المولدون يثيرون الجدل حول أكثر من أربعمائة حالة ذكرها المؤلفان فى كتابهما . لقد اتبع تومز (Thoms) وجودريش (Goodrich) مع مرضاهما طريقة تخالف المألوف .

فاللغة التي يستخدمها الموظفون جميعاً استبعدت منها التعبيرات القديمة مثل ألم المخاض وغيرها ، واستعيض عنها بقولهم « تقلص العضلات وما إليه » وأوقفت الحوامل على كل التفصيلات الخاصة بالوضع ، وألقيت عليهن المحاضرات الخاصة بعلم الصحة والحمل ، وسمح لهن بمشاهدة مايحدث فى أثناء الولادة . وألفت منهن فرق ليتعلمن كيف يسترخين. وكان من نتيجة ذلك أن الحوامل اللواتى عوملن هكذا خفت آلامهن كثيراً عن غيرهن . وقالت أغلبهن إنهن كن على استعداد لأن يتحملن أى أذى، فى سبيل الشعور بالسعادة التى تصحب الولادة، وهن فى حالة الوعى . ويمكن استخدام العقاقير إذا دعت الحاجة ، ولكن ٣٥ ٪ لم يحتجن إليها . ونصف الباقيات استعملن جرعات صغيرة من ديميرول (Demerol)أو استنشقن قليلا من أوكسيد النيتروز (nitrous oxide) و٨٨ ٪ منهن كن فى حالة وعيهن التام .

على أن ما يثير دهشة المتحضر ما كان ولا يزال قائماً من عدم بذل المرأة المتوحشة أى مجهود عند الوضع . وهناك نظريات لاعدد لها تعلل الفرق بين التحضر والبدائية فيما يتصل بهذا الموضوع وكثير منها شبه سيكلوجي ومعظمها فسيولوجي . ويظهر أنه لم يخطر ببال أحد قبل ريد (Read) أن السبب كامن فى الثقافة واللغة والتعبيرات التى نستخدمها . والتحليل البسيط الذى يذكره ريد « يقضى » على كل

التعقيـدات السيكلوجية المطولة التى تحيط بالموضـوع . وإذا ما حللنا وضع شخص تشـبع بنصيبه من المعتقدات عن محنة فقد البصر عندما يبدأ القيام بمحاولاته الأولى وهو كفيف . إن حالة التوتر تـكون شديدة جداً . ووراء آرائه الخاصه تأثير المعتقدات والأقوال التى ألفها الناس خلال الأجيال الطويلة الماضية وتبدو هذه كلها كأنها حقيقية ، وبخاصة خرافة الفراغ ، إذ يبدو أنه ليس من السهل على الـكفيف أن يدرك العلاقات الفضائية بغير حاسة البصر التى كان يعتمد عليها . ولذلك تـكون انطباعاته الأولى خاصة بالحدود الضيقة الجديدة لعالمه ، وتبدو فى أول الأمر أضيق مما ستـكون فيما بعد . إلا أن الانطباع الأول قد يستمر إذا كان الشخص لا تتاح له الفرصة لتتسع دائرة حركاته ، وأهم من كل هذا إذا لم يشعر بالحاجة إلى التوسع فى هذه الحركات .

على أن التغلب على الخوف يرتـكز على كشف ما يخشى منه يقينا .

ملاحظات أخرى

على نظرية التـكيف

لقد قلنا فيما سبق إن التـكيف هو قبول الفرد لما يعرف أنه حقيقة

ورضاؤه به . ويستطيع الإنسان أن يدخل فى جدل فلسفى لا نهاية له بخصوص طبيعة هذه الحقيقة ودرجة إدراكها من الناحية الموضوعية أو الواقعية . فمثلا العقبة التى تعترض سبيل الإنسان الذى تمكن منه الخوف وهو يتلمس طريقه فى أيامه الأولى بعد فقد البصر لم تكن كذلك وهو يرى الطريق . أما الآن فقد يصيبه منها ضرر أكثر من الحالة الأولى ! ليس لأنها اكتسبت قوة إضافية للأذى ، بل لأن المكفوف أصبح يعتقد فى دخيلة نفسه أنها مصدر ضرر أكثر . ونظراً لأن على الكفيف أن يعيد تقدير حقيقة الأشياء وكذلك لأنه فى حالة يعتمد فيها على غيره ويرغب فى تجنب مواجهة هذه الحقيقة ، فقد أصبح من الناحية النفسية كالطفل تماماً يتلمس طريقه ليدرك حقيقة الحوائط والكراسى . وهو لذلك أكثر استعدادا للتأثر بالإيحاء كما نراه يبحث بجد عن كل مايحسن حالته . وإذا لم تكن هناك ضرورة ملحة . فسرعان ما يقرر أن يكيف نفسه حسب الموقف الراهن عن طريق رفض التكيف عامة . والتكيف على نوعين فهناك تكيف بدنى تدفع إليه الحاجة ، وتكيف لعدم الحاجة ، ومع هذا وذاك قد تكون هناك حاجة إلى تكيف اجتماعى أو لا تكون . وكل هذه أمور تمليها الضرورة الملحة فى الموقف .

ولقد تسائل كثيرون ، لماذا يبدو على من فقدوا البصر تماما تكيف

أحسن ممن بقي لهم جزء من البصر ، ولماذا يكون المكفوفون بسبب الحوادث أكثر استعداداً لقبول الموقف الجديد . إن السبب فى ذلك أن من بقي لهم جزء من البصر يحدوهم الأمل أن يزيد هذا الجزء ، أو أنهم سوف يستعيدون البصر كاملا في النهاية . وكذلك فقد البصر بسبب حادث يصحبه عادة أذى جسمي للعين بعكس المرض ، وهذا معناه قطع الرجاء من البصر . ومع أنه من أصعب الأمور أن يفهم الإنسان أن فقد الأمل فى البصر قد يعين على التكيف السعيد ، إلا أن هذا هو الواقع تماما . فقد لاحظ مراقبو السجون أن المحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة يكيفون أنفسهم حسب الحياة الجديدة أحسن من غيرهم ، فإن النفس البشرية مكونة بطريقة تجعلها لا تنطح صخر المستحيل إلى الأبد ، ولكنها عندما تدرك الحقيقة التى لا مفر منها تعود فتقدر الموقف الجديد بإجهاد فيه عما يفيد . ومن المحتمل أن السجين مدى الحياة قد يجد فى النافذة الواحدة الموجودة فى زنزانته سبباً أدعى إلى التعاسة من الحقيقة الواقعة أنه سجين بين جدران أربعة .

هذه الاعتبارات تعود بنا لحظة أخرى إلى الحديث عن الأطباء والإفضاء بالحقيقة ، فإنه يحدث كثيراً أن الطبيب حتى بعد أن يتأكد تماماً من أن البصر لن يعود يقرر أن يخبر المريض بالحقيقة تدريجيا ، وقد يكون المريض قد غادر المستشفى وطلب منه أن يعود بعد أسابيع

قليلة ليراه الطبيب،وقد تتكرر هذه الزيارة وفى كل مرة يفضى إليه الطبيب بجزء من الحقيقة . وهناك حالة نعرفها حيث بقى المريض منتظراً تقرير الطبيب تسعة أسابيع بعد أن تأكد الطبيب أن الحالة ميئوس منها . والغرض من ذلك تخفيف وقع الخبر على المريض .والفلسفة التى تقوم عليها هـذه السياسة هى أن المريض وهو يتمثل كل جزء من الحقيقة يفضى به إليه تباعاً ، يجب أن يتخذ الخطوات المماثلة ليتعلم أنه مكفوف ، ولكننا نجافى المنطق فى هذه الحالة ، لأنه ما من إنسان يبذل جهداً عظيما فى مواجهة الخوف أو التهديد بالأذى ما لم يدرك أن الأمر لا مفر منه . وبعبارة أبسط نقول :

لماذا يبدأ إنسان ما تعلم الدرس القاسى عن فقد البصر إذا كان هناك ما يدعوه إلى الاعتقاد بأنه قد لا يكون ضرورياً .

فالأطباء الذين يتبعون طريقة الإفضاء بالحقيقة تدريجاً يخاطرون بتكييف مرضاهم فى المستقبل لأنهم ، فى انتظار الوقوف على الحقيقة ، لا يتكيفون بل يعتادون الحياة دون تكيف .

التكيف والجهاز العضلى

كان كتسفورث (Cutsforth) ينظر إلى التكيف فى حالة فقدان البصر على أنه تلقائى ، ولأنه كان قد لاحظه هكذا فى الحيوان استنتج أنه لا بد أن يكون كذلك فى الإنسان المتحضر . وكان يجب

أن يتضح له أن الأمر ليس كذلك من عدد الذين أصابهم عجز جسمى ويرفضون أن يتكيفوا أو يحال بينهم وبين التكيف .

لقد ذكرنا أن عملية التكيف ليست مسألة تعلم الاعتماد بطريقة جديدة كاملة على جزء من الجهاز العصبى كان يلقى اهتماماً قليلا فى السابق فحسب ، ولكنها أيضاً تنطوى على حدوث بعض التغير فى الجهاز العضلى . فما يحدث من تحول فى الجهاز العضلى لشخص يفقد ساقه يحدث أيضاً ما يشبهه من تحول التوتر والإجهاد فى كيان المكفوف . والمكفوف الذى يتقن التكيف لا يصطدم بالعوائق كما يصطدم بها المبصر ، مالم يكن الأخير لسبب ما اضطر أن يتعلم كيف يعالج عقبات غير متوقعة . فإذا لمس الكفيف زاوية كرسى أو منضدة تبع اللمسة على الفور انحناء تلقائى يمتص الصدمة . وإذا تكررت هذه العملية نجد أن من يفقد بصره بسبب حادث تتغير مشيته ويعتاد طريقة تجنبه قلقلة لاداعى لها بين فقرات العمود الفقرى مثل تلك التى تحدث للإنسان إذا ما سقط فى حفرة لم يتوقعها فى طريقه .

وإذ يلاحظ المبصر مكفوفا مجربا يدهش لما يبدو عليه من شجاعة وإصرار ، فهو يرفض أن يحس تطوراً ليس غريباً ألبتة على شىء فى اختياره الخاص . إلا أن ما يثير دهشة المبصر أكثر من غيره هو

تطور ماسمي بحق «ذاكرة العضل» فالمكفوف الذى وصل إلى درجة مناسبة من التنسيق، حين يجلس إلى مائدة الطعام، يلتقط سكينه وشوكته من نفس المكان الذى وضعهما فيه، ويعيد فنجان الشاى إلى طبقه الذى أخذه منه بعد أن يكون قد أبقـــاه في يده دقائق عدة، وتفكيره مركز فى شىء آخر. وهذا يمثل التحول، فى أثناء تقدمه فى التكيف، من حالة التنبه الواعى الكلى إلى حالة توازن مع القوى اللاإرادية. فالمبصر ينسى كل الأعمال التى كان دائماً يؤديها دون استخدام العين، وهذه تشمل أموراً لا تقع تحت الحصر قد تعودها وأخضعها لنظام لا إرادى لا تتدخل فيه العين.

ومن الأمور التى تدخل ضمن ذاكرة العضل ولا تخضع لسيطرة العين إدراك المسافات والفضاء. ففى حالة الكفيف الذى كان قبل مبصراً يبنى تقدير المسافة على أساس النظر، أما فى حالة المولودين مكفوفين فيمكن وصولهم إلى تنظيم فى الجسم إذا أتيحت لهم الفرصة لتنميته.

إلا أن كل هذه التطورات يمكن كبتها بطرق وأساليب خداعة لا تثير أية مقاومة لأن الكفيف قد لا يشعر حتى بوجـود ما يمنع تطوره. وقد لا يدرك الإنسان أن محاولات تجرى لتنمية ذاكرة العضل. وقد يبدو تلمسه فى بادىء الأمر لارشاقة فيه بحيث يدعو إلى الرثاء ولذلك يعالج بطريق التدخل المباشر. وهذا النوع من المساعدة

المستمرة يمكن أن يصبح بعد وقت عند الكفيف حقيقة واقعة لحالته وعندئذ يقف التكيف عند هذا الحد . وكذلك يمكن أن تبعد من طريق الكفيف كل العقبات كالكراسى والمناضد وغيرها، وقد يحدث تسلخ فى ساقه بسبب اصطدامه بشىء فى طريقه ، ولكنه قد لا يحدث مع ذلك أى تحول فى جهازه العضلى يحول دون وقوع مثل هذا الأذى على أن الضرر الناتج عن إزالة العقبات من طريق الكفيف يتعدى منع التنسيق العضلى إلى الفشل فى تعلم الاعتماد على السمع واللمس .

فالتدخل إذن من جانب المبصرين يزيل الحاجة أو الضرورة . والحاجة فى هذه الحالة ليست ما إذا كان الكفيف سيبقى حياً أم سيموت . فهناك نوعان من الحاجة : الأول هو الحاجة إلي الحركة والثانى يتعلق بظروف البيئة الاجتماعية . وليس من الضرورى أن يتوقف أحدهما على الآخر . فالمتسول ، الذى هو فى الأغلب الأعم على درجة عالية من التكيف، تفرض عليه حياته الشاقة ضرورة التطور البدنى . فقسمات وجهه ولباسه وهيئته ما هى إلا برقع يخفى وراءه حقيقة هامة وهى أن حاجته إلى أن يذرع الشوارع كونت فيه إدراكاً رائعاً للصوت وقوة على الحركة معتمداً على نفسه فقط. ويمكن أن نرى أيضاً الكفيف المتزن الظريف الذى أمكنه أن يتكيف تكيفاً اجتماعياً عظيما وقد هبط دون قدرته من ناحية التنسيق البدنى .

خواص التكيف

يبدأ الناس أحياناً تعلم الكمان دون معلم رسمى أو بمساعدة يسيرة . وهؤلاء إن لم يتمثلوا بلاعبين مهرة ، يمسكون بالقوس وهى متجهة إلى أسفل بدلا من أن تكون أفقية . ومعلمو الكمان يتوقعون هذا من تلاميذهم ويقولون لهم إنه وإن كان مسك القوس فى وضع أفقي يبدو عسيراً فى بادىء الأمر، إلا أنه مع مضى الزمن يصبح سهلا بالإضافة إلى أنه الطريقة الصحيحة . والذين يحاولون تعلم المبارزة عن طريق المشاهدة فقط دون الاستعانة بأستاذ كفء يعتادون موقفاً يظهر لهم أنه أسهل وأصح من غيره ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك ، والملاكم غير المدرب يتخذ عادة موقف دفاع يعتقد أنه آمن من غيره ولكن خصمه المدرب يفاجئه بلكمة من حيث لا يدرى .

إن الطبيعة تتبع أيسر منفذ من أية مشكلة وتختار ما يبدو أنه الأفضل مباشرة . وتعلم الكمان أو المبارزة أو الملاكمة بطريقة خطأ ليس خطأ لأنه يبدو خطأ فى الظاهر فحسب بل لأنه يعيق التقدم الصحيح والكفاية الفنية فى النهاية .

وقس على هذا التكيف الذى يترك وحده فى أثناء التكيف دون إرشاد ، إنه ينمى عادات فى المشى والمظهر العام تحت تأثير الشعور بالقلق . فيحدث أحياناً أن من يفقد بصره حديثاً يخفض رأسه فى أثناء السير ، وقد يتخذ البعض من هذا المظهر دلالة .

على استسلام الكفيف للشعور بالكآبة والحزن مع أنه فى الواقع محاولة منه ليسمع وقع الأقدام بصورة أوضح .

إن بعض عادات كثير من المكفوفين المتعلقة بالمشى والقوام والمظهر العام ينظر إليها عادة على أنها مرض ناشىء مباشرة عن فقد البصر . وهذه العادات لا يمكن أن تتكون إلا لأن الجهاز العضلى يحاول أن يكيف نفسه وفق ظروف غير عادية . غير أن هناك عنصراً واحداً فى الموقف له علاقة بفقد البصر ، ذلك أن الكفيف لا يستطيع أن يرى نفسه فى المرآة أو يلاحظ حركاته في أثناء السير ولذلك يكون بعض العادات المخالفة للمألوف.وقليلون منا فقط يدركون مدى تأثرنا نحن فى أساليب تصرفنا الظاهرية بمحاكاة مانراه .

على أن السبيل إلى مجاراة هذه العادات يصبح واضحاً إذا نظرنا إليها على أنها ناتجة عن استجابة طبيعية سليمة لموقف خاص ليس غريباً أيضاً عن الاختيار العام . وسبيل الكفيف إلى ذلك أيسر كثيرا فى بيئته الصعبة إذا لم يبد فى مظهره ما يدل على وجود مركب النقص عنده . وقد لا ينجح فى إقناع أحد بأن غيره من المكفوفين يمكنهم أن يصلوا ظاهريا إلى مثل درجته من التكيف . ولكنه إذا حسن مظهره الخارجى كان نجاحة فى التكيف أعظم .

إن المبادئ التي يتطلبها تدريب المكفوف بسيطة ويجب أن يتفهمها كل ملم بالتربية البدنية . وإذا كان نظام إعادة تدريب

المكفوفين لا يستأهل المجهود المبذول فيه من وجهة نظر المجتمع ، فكذلك حال الجهاز المعد لحل مشكلتهم الاقتصادية وما يتطلبه من نفقات كثيرة .

تأثير التدريب

يقال إن الشبان الذين يتدربون فى مستشفيات قدامى المحاربين وفى أفون (Avon) لا يصلحون لأن يعتبروا مقياساً لتأثير التدريب لأنهم لا يمثلون المكفوفين تمثيلا صحيحاً . وهذا النقد يقوم على أساس ، ذلك لأن سنهم وقدرتهم البدنية تضمن أحسن النتائج . فنظرا لهذا العامل وللفارق الكبير بين الطرق المستخدمة فى المستشفيات المذكورة وتلك التى تستخدم فى المراكز البدنية المنشأة حديثاً يتعذر الحكم ، إلا على أساس نظرى فقط ، بأن تدريب المكفوفين له تأثير دائم . على أن هناك نتائج مبنية على مشاهدات لأكثر من عشرين سنة فى مدارس الكلاب المرشدة يمكن الاستفادة من دراستها .

لقد قلنا إن أفون (Avon) كانت أول محاولة منظمة للتدريب فى أمريكا . إلا أن هذا القول ليس صحيحاً تماماً من الناحية الفنية ، ذلك لأن (العين المبصرة Seeing Eye) وهى أول مدرسة أنشئت فى أمريكا للكلاب المرشدة قد وجدت فى سنيها الأولى أن تدريب الكلاب على إرشاد المكفوفين كان أقل من نصف مهمتها

إذ كانت تأمل أن تحقق نجاحاً حقيقياً . فمعظم المكفوفين محتاجون إلى أكثر من تعلم العناية بالكلاب والانتفاع بها . فعجز الكفيف عن معرفة الجهات ، وبطؤه في مشيته ، وتكوين العادات السيئة الخاصة بقوامه ومظهره العام ، كل هذه تجعل منظره مع كلبه خالياً من الرشاقة والكفاية . ومنذ سنة ١٩٢٩ اتبعت «العين المبصرة» والمدارس الأخرى التي أنشئت على غرارها نظاماً محدد المعالم لتدريب المكفوفين. ولأن هذا التدريب قائم مبدئياً على استخدام الكلاب ، لا تعتبر هذه المدارس نفسها مراكز تدريب بالمعنى الذى يفهم عن المعاهد التي لها غرض أعم من هذا .

إن التلاميذ الذين يؤمون مدارس الكلاب المرشدة يمثلون المكفوفين القادرين بدنياً أحسن تمثيل . فالصغار جداً والمسنون جداً لا مكان لهم بين طلاب هذه المدارس إلا فى حالات قليلة . ومع أن المسئولية المالية شرط من شروط القبول، لأن الطالب عليه أن يبين أنه قادر على الانتفاع بالكلب ، إلا أن حالتهم المالية تتدرج من بائع الجرائد إلى مدير الشركة .

وهناك شرط أساسى أيضاً وهو توافر حد معين من القدرة على السمع باعتباره من الصفات البدنية القليلة التي تعمل على التجانس بين الطلاب . وإذا استثنينا حديثى العهد بفقد البصر ، الذين، لقصر الوقت، لا يبدو عليهم أى انحراف عن المألوف ، يندر أن تجد بينهم من ليس

به انحراف بدنى لدرجة ما . كما أن الدليل على صعوبة التكيف البدنى متوفر ، فبعضهم لم يستطع منذ فقد البصر أن يمشى بسرعة ، وغير قليل منهم لم يسيروا بمفردهم قط . وعندما يرى الإنسان جماعة من الطلبة يقصدون مدرسة الكلاب المرشدة ليبدءوا دراستهم ، فإنه لا يتردد فى أن يؤيد الاعتقاد بأن فقد البصر له تأثير خاص على الشخصية . ولكنه لو عاد بعد شهر ليرى هؤلاء التلاميذ وهم يغادرون المدرسة إلى بيوتهم المنتشرة فى كل أنحاء أمريكا ومعهم كلابهم لغير اعتقاده على الفور ، ذلك لأن سرعتهم فى المشى وصلت إلى المستوى العادى بين التلاميذ ، وقوامهم يبدو رشيقاً لدرجة ملحوظة وقدرتهم على إدراك الجهات تزداد كثيراً .

وعلاوة على ذلك فإن معظم المستعينين منهم بالكلاب المرشدة بعد أن يعتادوا عليها يبحثون عن كلب آخر إذا فقدوا الأول ، وإن كان بعضهم يرون أنهم ، بعد التدريب الذى حصلوا عليه والسنوات التى قضوها مستعينين بالكلب الأول ، يستطيعون الاستغناء عنه ، وهناك حالة من هذه الحالات تخرج صاحبها من مدرسة المكفوفين الحكومية وكان خلال إقامته بها قليل الاعتماد على نفسه ، وبمجرد التحاقه بمدرسة الكلاب المرشدة حدث تغير جوهرى فى شخصيته :

إزالة العوائق

إنه وإن كانت ملاحظتنا على الأساليب المستخدمة فعلا فى التدريب تجب أن تكون مختصرة، لأن غرض هذا الكتاب قاصر على الناحية النظرية . إلا أن هناك عنصراً واحداً يتعلق بالتدريب فى مدارس الكلاب المرشدة تجب الإشارة إليه لأنه يكون الركن الأساسى فى التدريب ، فمن اللحظة التى تطأ فيها قدما المكفوف مدرسة العين المبصرة لا يستعين بمرشدين آدميين . فالطالب يقاد إلى غرفته مرة واحدة ثم يزور الأبهاء المختلفة بالمدرسة ويعرف بمواقع السلم والأبواب وبعدئذ يترك وشأنه ليعتمد كل الاعتماد على وسائله الشخصية. وبذلك تتم إزالة العوائق التى تحول دون نمو إحساسه بتقدير المسافات والعلو والعمق . وحتى يصبح هذا الجزء من البرنامج ذا أثر فعال، تضطر المدرسة أن تمنع الجمهور من الاتصال بالطلبة . وقانون المدرسة يقضى بأن الأقرباء والأصدقاء يمكنهم أن يزوروا المكفوفين مدة ساعات قليلة فى نهاية الأسبوع . وقد يبدو فى هذه القوانين كثير من التعسف ولكن هناك مايبررها. فوجود الأقرباء كالأمهات والزوجات والأزواج ومايظهرون من إشفاق على المكفيفين إذا مااصطدموا بعقبات فى أثناء سيرهم يعطل تكيفهم. أما إذا تركوا وشأنهم فإنهم يتعلمون حقيقة وجود الحوائط والكراسى وغيرها عن طريق الممارسة الشخصية . فقد وجد

أن الطلبة الذين لم يظهروا مهارة تذكر فى محاولة الإلمام ببيئتهم قبل التحاقهم بالمدرسة سرعان ما تتفتق أذهانهم عن وسائل تعينهم على حل مشكلاتهم . ولا ينسى أكبر المؤلفين ، عند التحاقه بإحدى هذه المدارس بعد شهر من فقده البصر، أنه اكتشف أن المسافة بين أسفل السلم العام والباب الخارجى مفروش عليها غطاء من المطاط . وإذا تعلم أن يحس بها بنعليه لم يضل الطريق فى ذلك الجزء من البناء بعد ذلك .

ومن المفيد أن نذكر هنا التجارب التى كانت تقوم بها جامعة كورنل (Cornell) فى الرؤية عن طريق الوجه مع طلبة معصوبى العيون ، فقد كان يطلب إلى هؤلاء الطلبة أن يحددوا أماكن أجسام معينة عن طريق السمع فقط . ولم يمض عليهم بعد بدء التجربة إلا أيام قليلة حتى كيفوا أنفسهم لطبيعة الموقف وزال عنهم التردد فى الحركة وقاموا بالتجربة بثقة ورباطة جأش .

نظريات خاصة بإعادة التدريب

لقد قام بعض الأخصائيين ببحث نقطة لانحتاج إلى أكثر من من مجرد ذكرها ، وكانت نقطة البحث هى ما إذا كان التدريب الذى يتاح لقدامى المحاربين فى المستشفيات قبل ذهابهم لآفون (Avon) لمدة ثمانية عشر أسبوعاً أخرى ، أقوى أثراً من العمل الذى كانوا يكلفون به فى مركز كونكتكت (Connecitcnt) . إن أفون (Avou)

لم تستعن فى التدريب بالوسائل المألوفة كالعصا مثلا ، ولكنها كانت تعتمد اعتماداً كلياً على القدرة على التميز بين أصوات الأجسام المرتدة بعد الاصطدام بالحوائط والعوائق الأخرى .

إلا أن ما يمكن أن يسمى نظرية أفون (Avon) ونظرية مدربى المستشفيات تختلف اختلافاً كلياً عن نظرية أنصار مدارس الكلاب المرشدة أو العين المبصرة الذين يقولون إن طريقة أفون (Avon) وطريقة استخدام العصا تتطلبان قدرة على التكيف لا تتوفر لمعظم المكفوفين بعدمدة معينة . وإذا كان الأمر كذلك فإن أسلم ملاحظة يمكن إبداؤها هى أن مجال إجراء البحث والتجارب لا تزال فسيحا بعد ، وأن الاستعانة بالكلاب المرشدة بالنسبة لهؤلاء المكفوفين الذين لم تبلغ قدرتهم البدنية مستوى عاليا هى أضمن وسيلة لتنقلهم وحدهم .

ومما تجدر ملاحظته أن الجميع قد أفادوا من كل وسائل التدريب المستعملة حتى أولئك الذين لم ينجحوا فى الاعتماد على أنفسهم ازدادت قابليتهم للتعليم .

وهناك مسألة أخرى كانت ولا تزال موضع نقاش : أيهما أصلح لتدريب المكفوفين ، المبصرون أم المكفوفون . يصر المكفوفون على أنهم دون غيرهم يستطيعون القيام بهذه المهنة . ولا شك أن

المكفوفين على مر الأجيال هم الذين يرشدون أمثالهم إلى عالمهم . وحديثو العهد بفقد البصر أميل إلى قبول الارشاد من المكفوفين منهم إلى قبوله من المبصرين . وعندما يحتدم الجدل على هذه النقطة بالذات يصر المكفوفون على أن يكون المعلمون بالمنازل من المكفوفين أيضاً . والجواب عن هذه النقطة من غير اشتراك في الجدل نفسه هو أن الكفيف عديم النفع كالمبصر أو أقل نفعاً منه إذا كان لا يعرف كيف يدرب زميله ، وقبل أن يمكن الاستفادة من طرق التدريب يجب أن يكون هناك مرشدون مدربون .

إن الذين أصيبوا بفقد البصر بسبب حوادث الحرب يمكنهم الآن أن ينضموا إلى وحدة خاصة بتدريبهم فى مستشفى هاينز Hines بولاية إلينوى (Illinois) إن هذه الوحدة يشرف عليها قسم الطب والجراحة التابع لإدارة قدامى المحاربين بالولايات المتحدة الأمريكية ، والمدير النشيط لهذا القسم هو راسل وليمز (Russel Williames) الذى مر بدور التدريب فى المستشفيات فى أثناء الحرب وفى أفون Avon أيضاً . إن الطالب يتابع منهج تدريب يستغرق ثمانية عشر أسبوعاً وعدد الطلاب يندر أن يزيد على عشرة . والمنهج فى حد ذاته صعب يتركز فى تدريب الكفيف على الانتقال والسفر بمفرده ، على العكس مما كان يحدث فى أثناء الحرب حين كان لا يعطى المنهج إلا بناء على طلب الطالب . ويشترط أن يجتاز الطالب مبدئياً امتحاناً صعباً من

الناحية البدنية والتحليل النفسى ، ومع أننا لم نشاهد هذا المعهد بأنفسنا إلا أن المراقبين الأكفاء يعتقدون أنه سيخرج للناس أوضح فكرة عن تدريب المكفوفين نظريا وعمليا مالم تنجح الهيئات الأخرى فى الإصرار على أن تتولى هى القيام بهذا العمل عوضاً عنه .

أما المراكز المدنية التى تسمى عادة مراكز التكيف، والتى بلغ عددها منذ سنة ١٩٤٥ حتى الآن اثنى عشر مركزاً ، فهى تحت رعاية هيئات عامة وخاصة . وعلماء النفس المتصلون بها يعملون بجد لوضع اختبارات جديدة الغرض منها التمييز بين من يصلح ومن لا يصلح للتدريب ، إلا أن الاختلاف على الطريقة مع الأسف كبير ، فالمدة التى يقضيها الطالب فى المراكز المختلفة تتراوح بين ستة أسابيع وأحد عشر شهراً .

وكل المراكز تعمل على تنمية الإحساس بالاتجاهات المكانية وهذا أوضح أثر للعمل بين مكفوفى الحرب ، وكلها تضع أيضاً ضمن برامجها تعليم الحرف المختلفة . وقد لاحظ أحد المراقبين المهتمين بهذا الموضوع أن الاختلاف الكبير فى الطرق والميل إلى الاعتماد على التجربة الشخصية للحكم على مقدار تأثير هذه الطرق يؤكد الحاجة إلى مزيد من المعلومات المنظمة .

على أن أحد التقارير التى تضعها لجنة ولاية كارولينا الشمالية كل

عامين عن العمل بين المكفوفين يصف ما يقوم به مركز التدريب فى باتنر (Butner) ويبرز عامل الأمل الكبير فى الموقف ، جاء فى هذا التقرير ما يلى :

إن المجلس التشريعى المنعقد فى سنة ١٩٤٥ قد وافق على ما يأتى :

لقد خولت اللجنة الحكومية سلطة إنشاء وإدارة مركز المكفوفين بقصد مساعدتهم على التكيف عقليا وبدنيا وعاطفياً عن طريق تطبيق اختبارات مناسبة وتدريب كثير يكسبهم مهارة يدوية وإدراكاً للجهات والعوائق ، وعادات تعينهم على العمل ، وأقصى حد من المهارة فى النظم الصناعية والتجارية .

ومنحت اللجنة تصريحاً لتجديد إيجار المركز فى باتنر Butner بكارولينا الشمالية حيث ينقسم التدريب إلى قسمين : قسم خاص بالتكيف وقسم بالإعداد المهنى ومدة التدريب أحد عشر شهراً . ويبقى الطالب فى القسم المدة التى تقررها لجنة الإدارة . والتدريب يقوم على أساس قدرة الطالب على الحركة والتنقل .

من المعلوم أن كثيراً من المكفوفين الذين يفيدون من التدريب لا يمكنهم أبدا أن يعتمدوا على أنفسهم فى معاشهم ، وبما أن المركز يكون جزءاً من برنامج التأهيل فالأشخاص الذين يلتحقون به يجب أن يبدو عليهم ما يدل على قدرتهم على هذا التأهيل ... وتشمل خطة الدراسة ما يلى :

إلمام بالمكان الذى يعيش فيه الكفيف ، وإدراك للعوائق التى تصادفه ، والقدرة على التنقل والسفر . . . . وهناك دراسة أخرى تسير جنباً إلى جنب مع هذه وتكملها وتتناول التكيف . وتتوقف مدة الدراسة على قدرة الطالب نفسه . . . وينتهى واجب المرشدين بتخرج الطالب من المركز .

ويقدم المركز دراسات أخرى منها علم الصحة الشخصية والعناية بالحيوان لأن الإلمام بها يعين على إيجاد مصدر للكسب . وتقدم للسيدات الكفيفات دراسات فى التغذية . ومن المنتظر أن يشترك الطلبة فى هذه الدراسة فيما بعد . وأما المواد المدرسية فتشمل اللغة الإنجليزية والرياضة وطريقة بريل والكتابة على الآلة الكاتبة . يضاف إلى هذا دراسات فى الأشغال اليدوية والحرف المختلفة . فيبدأ الطالب بالمبادئ الأولية ثم يتدرج منها إلى الصعب فيما تؤهله له مواهبه .

وهناك أيضاً دراسات فى أشغال الخشب والزراعة . والأخيرة تنقسم إلى قسمين : قسم خاص بزراعة الحدائق والأخرى عام . ويشمل المنهج أيضاً غسل الملابس وكيها سواء أكان من الأعمال المنزلية أو من قبيل الحرفة للكسب . ويهتم المركز كذلك بالناحية الترويحية إذ يشجع الطالب على تعلم هواية يميل إليها . ويدير المركز مجلس من الطلبة ، وهذا من شأنه أن ينمى فى الطالب شعوراً بالثقة بالنفس ويختار رئيس المجلس وأعضاؤه بالاقتراع العام . وكانت النتيجة على

التدريب على هذا النوع من الحكم أدعى إلى الارتياح وظهرت عن طريقها مواهب للقيادة كانت كامنة .

واستطاع مركز كارولينا الشمالية فى سنيه الثلاث الأولى من سنة ١٩٤٥ — ١٩٤٨ أن يدرب ٢٤٦ شخصاً ، كثيرون منهم كانوا من الريف . وفى تلك السنة استطاع المركز أيضا أن يجد عملا لعدد من المكفوفين لم تبلغه أية ولاية أخرى .

وقد يكون من الصعب تقييم طريق تدريب المكفوفين إلى أن يتسع نطاق البرامج بدرجة تسمح بالانتهاء من تدريب الجيل القديم والبدء بالتركيز على المستجد . وقد يمكن الافتراض بأن نسبة العودة إلى العادات القديمة بدنية كانت أو عقلية أعلى من بين من يفقدون البصر وهم أصغر سناً ، ويؤيد هذا اختبار العاملين بين المفلوجين ، كما يؤيده تجربة مدرسة الكلاب المرشدة التى تنصح بشدة أن من يفقدون البصر حديثاً ويريدون الاستعانة بالكلب المرشد يجب أن يمكنوا من ذلك بأقرب فرصة ممكنة . والمدرسة تفسح المجال أمام حديثى العهد بفقد البصر، لأن التدريب أيسر جداً من إعادة التدريب. وبين قدامى المحاربين يبلغ عدد من يعودون إلى القديم رقماً يبرر الاعتقاد السائد بين البعض بأن إعادة التدريب بين المكفوفين لا تأثير له . ويبدو لنا أن هذه الأرقام على أحسن حالاتها غير دقيقة ويجب أيضا أن ينظر إليها على أساس أن قدامى المحاربين لا يمثلون المكفوفين

تمثيلا صحيحاً ، وذلك لسببين : أولهما أن إعادة تدريبهم في أثناء الحرب لم يكن اختياريا ، وكثيرون منهم كانوا يفضلون أن يسرحوا ، وينظرون إلى مدة إقامتهم فى أفون (Avon) كأنها امتداد للخدمة العسكرية . وثانيهما أنهم عند عودتهم إلى بيوتهم لم تكن الظروف عادية بالنسبة لهم ، لأنهم كانوا فى نظر الجمهور أبطالا كما كان لديهم من الإغراء ما يدفعهم إلى أن يلعبوا هذا الدور الذى نسب إليهم . ومن المفيد أن نشير إلى الملاحظة التى أبداها قائد أفون (Avon) ذات مرة إذ قال إنه بالرغم من أن التدريب كان إلزامياً وبالرغم من وجود عوامل أخرى ، فقد أدرك عدد من الشبان بعد عودتهم إلى بيوتهم ، المزايا التى حرموا منها نتيجة رفضهم ، فعادوا وطلبوا المزيد من التدريب بمحض اختيارهم . وعلى أية حال فإن درجة عود الكفيف إلى عاداته الأولى لا تصلح أن تكون سبباً للعدول عن فكرة سليمة نظرياً كإعادة تدريب المكفوف ، كما أن كون بعض الناس لا يهتمون بقراءة الكتب إطلاقا بعد ترك المدرسة لا تصلح أساساً لإغفال الثقافة العامة .

دور المحلل النفسى

إن مايوصف بالرأى التقدمى فى هذا الميدان لا يتجه إلى المطالبة بإضافة المدرب إلى هيئة التدريس ووضع برنامج يسير على هداه فحسب، بل أيضاً إلى الاستعانة بخدمات المحلل النفسى الذى قد تكون خدماته ضرورية لمساعدة المكفوفين حديثاً على التكيف .

وإنا لنرجو أن يفهم ما نقوله هنا بكل جلاء . إننا نرحب بإضافة خدمة المحلل النفسى والعامل الاجتماعى النفسى إلى المساعدة المنظمة التى تقدم للمكفوفين . إلا أن المحلل النفسى لا هو بالمدرب ولا هو ولا بالمربى . فهو لا يعلم الكفيف كيف يأكل أو كيف يهتم بملابسه أو كيف يمشى فى الشارع معتمداً على عصاه فقط . إن عمله ينحصر فى تشخيص المشكلة ويساعد إذا أمكن حين يعجز الشخص الذى له القدرة على القيام بالأشياء المذكورة ، عن اكتساب المهارة اللازمة لعوامل خارجة عن إرادته . ولكن إذا وصل الفرد إلى إدراك الهدف الحقيقى من استيائه وأعين على مواجهة حقيقة موقفه إذا كان منكراً لها فإن تكيفه البدنى والاجتماعى ، ابتداء من تلك النقطة ، لن يأتى عرضاً .

إن الهيئات التى تقوم بخدمات نفسية بجانب براج خدمتها العامة لا تطبق على العموم النظرية العامة بأن المكفوفين يحتاجون إلى

تدريب للحصول على الرزق ويظهر من هذا أنه مفروض أن رد الفعل البدنى إذا كان من النوع المقبول اجتماعياً ، يقوم تلقائيا على حل مشكلات الشخصية . وإن الفشل فى إيجاد العلاقة بين التفكير عند المكفوفين والتفكير الذى لا يزيد على أن يكون معقولا عند المبصرين يضعنا أمام المشكلة القديمة مرة أخرى . إن النقص الأساسى فى الفلسفة الخاصة بهـذا الميدان هو اعتبار السلوك الشخصى الفيصل فى هذا الموضوع . فإذا وضعنا المحلل النفسى فى المكان الأول فإن هذا يمثل التفكير المبنى على هذا النقص مع ما للخدمة المحلل من قيمة وفائدة لا تنكر. هذا والنقص يختفى إلى حد كبير وراء اللغة التى تتطلب أن يتكلم بها الإنسان عن التكيف البدنى ، كأن الصلاحية البدنية فى التكفيف تمثل النوع الوحيد لرد الفعل السليم للموقف الناشىء عن كف البصر. على أن المحلل النفسى ربما يساعد المبصرين منا على فهم السر الذى نصر على أن نخلف به حقيقة مشكلة المكفوفين الأساسية .

الفصل التاسع

حيرة

اقترح فى سنة ١٩٣٥ أن يعاد إسكان المكفوفين فى مستعمرات خاصة . ومما جعل للاقتراح أهمية أنه تقدم به عميد مدرسة من أقدم المدارس فى البلاد إلى مؤتمر الجمعية الأمريكية للعمال من المكفوفين . وقال العميد عندما بدأ فى عرض اقتراحه إن فكرة ملاجىء المكفوفين ليست كلها خطأ كما يريدنا كثير من المرشدين الاجتماعيين العصريين أن نعتقد . إذ فيها بعض المبادئ الاجتماعية والتعليمية السليمة ، كما أن منها جوانب من ناحيتها الفلسفية والاجتماعية أيضاً. ثم مضى العميد يقول : بما أن فكرة الملاجىء هذه نبتت فى القرن التاسع عشر فهى تستحق ما يوجه إليها من نقد . على أن الرأى القائل بأن على المجتمع أن يستوعب المكفوفين دون أى تحفظ رأى له قيمته مع ما يوجه إليه من نقد شديد هدام . واقترح أن يكون منهم جماعات تكتفي اكتفاء ذاتياً ، فيها ينافس بعضهم البعض بدلا من منافستهم للمبصرين، وبهذا يغلب على الظن أن يتيسر لهم أن يجدوا مستوى مناسباً من المعيشة بحسب مواهب كل منهم على أساس تتوفر فيه العدالة والإنصاف

بدرجة أعظم . وأضاف أن لديه مشروعاً معيناً مبنياً على أن رأس المال الخاص يستطيع بل يرغب فى بادئ الأمر فى المخاطرة بتنفيذ هذا البرنامج ، فتتكون شركة ذات ربح محدود لبناء مساكن لهذه الجماعات . ومن حديثه مع الماليين أيقن أن مشروعاً كهذا مضمون من الناحية الاقتصادية .

ولربما قدم هذا الاقتراح على أنه شيء جديد أو ربما قصد منه إثارة مؤتمر المشرفين الاجتماعيين . فإن كانت الثانية فقد نجح ، أما معارضته فإنها ما زالت قائمة ولم تمت بعد .

على أنه مهما قيل فى هذا الاقتراح فما لاشك فيه أنه مواجهة جريئة للمشكلة ، وتنفيس صريح عن الورطة التى وقع فيها العمل لأجل المكفوفين فى أمريكا . أما عن الورطة فقد كان صاحب الاقتراح صريحاً كل الصراحة . فالنظام الخيرى العظيم الخاص بالمكفوفين والذى نما خلال القرن الحالى يبدو أنه لا يمكن أن يؤيد تأييداً كاملا المبدأ القائل بأن المجتمع يجب أن يستوعب المكفوفين أو أن ينفى عدم قدرة كثير من المكفوفين على انتهاز الفرصة للاستفادة من حقوق الفرد أو تقرير مصيره الاجتماعى الذى يعتبر جوهر فلسفتنا الاجتماعية .

على أن حياة معظم المكفوفين فى أوربا أو بريطانيا وأمريكا

مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا النظام الخيرى الاجتماعى لدرجة أن من يريد بحث طبيعة بيئة المكفوفين لا يمكنه إغفال النظر فى هذا النظام الذى له مبادئه الخاصة به فى هـذا القرن كما كان له فى الماضى مبادئه سواء بسواء . ولكن بحث النظام نفسه المنتشر فى جميع أنحـاء العالم إذا تعدى الجانب الوصفى منه ، يتطلب مؤلفاً أضخم من هذا الكتاب . فمدارس المكفوفين منتشرة فى كل مكان الآن ، وطريقة الكتابة الخاصة بهم قد طبقت حتى فى اللغة الصينية . ولهذا السبب سنقصر بحثنا على الجزء الأمريكى من النظام العـام لنضمن الدقة فى البحث . وأما عن تطبيق النظام فى باقى أجزاء العالم فيكفينا أن نلاحظ من وجهة عامة أن تطبيقه يتناسب تناسباً طردياً مع درجة ديموقراطية الأوساط التى يستخدم فيها ، على أنه يمكن القول أيضاً أن الأوساط التى يطبق فيها بدقة هى أقل الأوساط ثقة فى الأغراض التى يرقى إليها ، وهنا منشأ الحيرة والورطة .

القرن التاسع عشر

كانت مشكلة المكفوفين فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٩٠٧ تتحمل مسئوليتها إما الحكومات المحلية للبلديات والمقاطعات . وإما الهيئات التطوعية التى قامت وليس لديها عن دورها فى هذه المهمة

إلا فكرة عارضة، الدافع إليها الرغبة فى فعل الخير ـ هذه الهيئات لم توجد فى مراكز كبيرة يتوافر فيها من المكفوفين عدد كاف يجعل لخدمتها أثراً يذكر . فقبل مطلع القرن العشرين لم يوجد إلا ثلاث ولايات سنت تشريعات تنظم العمل بين المكفوفين، وحتى هذه ألغيت جميعها فيما بعد . ولأن معظم المدن والمقاطعات الأمريكية كانت صغيرة وقليلة السكان ، ولأن المكفوفين بكل منها كانوا يعدون على أصابع اليدين . كانت المساعدة التى تقدم لهم بسيطة . وبالرغم من انتشار المدارس ظل ملجأ المكفوفين وقتاً طويلا أحد مظاهر الخدمة الاجتماعية .

إن الجزء الأكبر من مشكلة المكفوفين كان يتمثل فى أولئك الذين فقدوا البصر عرضاً . ففكرة التعويض كانت لا تزال فى المهد والخدمة الطبية لم تكن لتتناسب مع الزيادة فى عدد السكان . والذين فقدوا البصر وهم كبار لم تكن لهم فرصة التعود على الحياة الجديدة عن طريق المدرسة فإذا واتاهم الحظ فإنما كان ذلك عن طريق مكفوفين مجربين فى الحياة يدلونهم إلى بعض أبواب الرزق الممكنه، وإلا تركوا وشأنهم فى السعى لبدء حياة جديدة . فإذا فشلوا فى الحصول على مصدر للرزق أصبحوا عالة على ذويهم أو على السلطات المحلية .

والأمر الهام فى هذا كله أن فكرة قدرة المكفوفين على العمل قد تقررت وثبتت فى الأذهان . وأولئك الذين كانوا فى المدارس منهم كانوا يتمتعون بحياة اقتصادية أفضل نسبياً من وقت إنشاء المدارس

حتى سنة ١٨٩٠ . وقد جعلت الحرب الأهلية، وما ترتب عليها من نتائج، الحاجة ماسة إلى المهنيين من كل نوع . فأصبحت حرفة إصلاح البيانو قاصرة على المكفوفين الذين كانوا يتلقون دراسات خاصة بها فى المدارس . وقد أشارت دائرة المعارف البريطانية الصادرة فى سنة ١٨٧٨ إلى أن غير قليل من المكفوفين المثقفين وصلوا إلى مراكز سامية وأن حالة الصناع المكفوفين فى الولايات المتحدة كانت أحسن كثيراً منها فى أى مكان آخر فى العالم .

على أن هناك ظاهرة طيبة تدل على درجة طموح المكفوفين المتعلمين وهى أنهم عندما وجدوا أن معظم الكليات ترفض قبولهم بها ثاروا وأصروا على أن تبنى لهم كلية خاصة بهم . وتقول لادى كامبل فى ذكرياتها عن السر فرانسس إنه من الأسباب التى دعته إلى البقاء فى بريطانيا ليشارك الدكتور ازمتاج فى تأسيس الكلية الملكية هوخيبة أمله بسبب تقصير بلاده فى بناء كلية كهذه . وتقريره البقاء فى انجلترا سنة ١٨٧٢ يبين لنا كيف قويت الرغبة بسرعة عند المكفوفين فى التعليم العالى .

وفى داخل نطاق نظام تعليم المكفوفين نفسه كان هناك عنصر عمل على توجيه وتحديد نوع العمل الذى يؤديه المكفوف فى المجتمع العامل . فيشير فرنش إلى نظريتين متعارضتين فى النظام نفسه . فهناك نظرية هاوى (Hauy.) التى تصر على تقديم فرصة التعليم كاملة

للمكفوف ، ويقابلها ما يمكن أن يسمى بالنظرية البريطانية الأولى وبجملها أنه لا فائدة من إعداد المكفوف لما لا يمكنه الوصول إليه واقترحت عوضاً عن ذلك أن يعلم الطفل حرفة يكسب منها عيشه طوال حياته . وبما أن الحرف التى يمكن أن يتعلمها الطفل الكفيف تحت هذا النظام جميعها حرف صناعية، والمواد التى تستخدم فى هذه الصناعات تختار على أساس تجنب المنافسة مع الصناعات العامة المماثلة ، أمكن القيام بهذه الصناعات فى مصانع تقام لهذا الغرض وتيسر للأطفال الالتحاق مباشرة بهذه المصانع بعد مرحلة تعليمهم . ولقد حاول هاوى (Hauy) التوفيق بين النظريتين فى مدرسته فأقام أول مصنع فى سنة ١٨٤٠ .

والمؤسسات الخيرية التى أرادت أن تحاول معالجة مشكلة المكفوفين كانت بلا استثناء تقيم مصانع لهم . ويبدو أنها قلما حاولت أن توجد للمكفوفين عملا مبنيا على التنافس . وفى نظر عامة الناس كان المصنع أمثل عمل للتوفيق بين ما تبقى من شعورهم القديم نحو تشغيل المكفوفين وبين تسليمهم ، لا بقدرة المكفوفين على العمل فحسب ، بل بوجوب إعدادهم للعمل . ومع هذا فكم من صبى كان يمنى النفس بأن يصبح معلما أو خادماً للدين أو موسيقارا فإذا به يجد نفسه فى آخر المطاف عاملا بسيطاً كأحد زملائه ممن كانوا فى المؤخرة فى أثناء الدراسة . لمثل هذا الصبى أصبح مبدأ النمو الكامل أضحوكة وسخرية .

وقد كانت السنوات ما بين ١٨٩٣، ١٩٠٠ قاسية حقاً على الكفيف الأمريكى . فنى هذه الفترات التى أثبتت للأمة الأمريكية بكل جلاء أن اقتصادها عرضة للمد والجزر ، أظهرت أيضاً أن أول من يتأثر بأوقات الكساد الاقتصادى هم المكفوفون العاملون . ذلك أن المتسولين المكفوفين أصبحوا فجأة يملئون شوارع نيويورك وبوسطن كما كان الحال فى مدن أوربا . وخلال هذه الفترة أيضاً احتدم النزاع بين قادة المكفوفين والمجتمع ، فتكونت فى سنة ١٨٩٦ الجمعية الأمريكية للتعليم العالى والتحسين العام للمكفوفين بدافع من السخط المرير الذى حدا بمؤسسيها إلى قصر العضوية فيها على المكفوفين دون غيرهم ولإثارة حرب لا هوادة فيها للوصول بمشكلة التعليم العالى للمكفوفين إلى حل ما .

تشارلز كامبل واللجان الحكومية

لم يكن بين المكفوفين فى نهاية القرن التاسع عشر فى كل البلاد الناطقة بالانجليزية شخص أعظم أثراً من كامبل . فالأمريكيون يفخرون بالمجد الذى ناله السير فرانسس (Francis) الذى كان يوما ما عضوا بهيئة جامعة تنيسى والذى طلب إليه الإنجليز أن يسهم فى تأسيس أعلى معهد لتعليم المكفوفين فى العالم. وتعلم تشارلز (Charles)، أحد أبنائه، فى الولايات المتحدة ثم ذهب إلى بريطانيا لفترة وجيزة . وفى سنة ١٩٠٣

عاد تشـــارلز إلى مدينة بوسطن ليلقى محاضرة فألح عليه كثير من المـكفوفين أن يبقى هناك إذ وجدوا فيه القائد الذى هم فى مسيس الحاجة إليه .

وقبل كامبل العمل لأجل المـكفوفين الأمريـكيين ، وكان ذلك فى فترة احتدم فيها اتصال مرير بين المـكفوفين أنفسهم من ناحية والمربين من ناحية أخرى،ولمن من الفئتين يـكون الرأى الأعلى فى تقرير المسائل الثقافية المـكفوفين . ومن المرجح أنه لم يـكن فى مقدور أحد غير كامبل أن يقنع المـكفوفين بالوصول إلى حل فى المؤتمر الذي عقد فى ساجينو (Saginaw) فى سنة ١٩٠٥ وهو الوقت الذى تـكونت فيه جمعية العمال بين المـكفوفين (وهي لا تزال قائمة حتى الآن) من أعضاء مـكفوفين ومبصرين . وعمل كامبل مدة أربع عشرة سنة سكرتيراً للجمعية دون أجر .

أراد كامبل أن ينشىء ما سماه « بالمصنع التجريبي» لا بقصد جمع عدد من المـكفوفين معاً ، بل بقصد تدريب الأفراد على أعمال خاصة على أساس قدرة الفرد وموهبته . وتذكر أرملة كامبل عنه أنه ذهب لمقابلة مدير شركة صناعية بقصد إيجاد عمل لشخص فقد بصره حديثاً فما كان من المدير إلا أن قال له : إننا هنا لسنا مدرسة تدرس الـكتاب المقدس . أما رد كامبل على هذا القول فقد استصدر إذنا

بزيارة المصنع عله يجد عملا يمكن المكفوف أن يقوم به . ثم أخذ في تدريب المكفوف على العمل الذى وجده له وألحق به . وحدث بعد بضعة شهور أن تحدث المدير إلى كامبل تليفونيا وسأله عما إذا كان لديه مكفوف آخر يريد أن يشغل وظيفة أخرى. ويستدل من التقارير أن هذا أول عمل ألحق به مكفوف بين المبصرين فى أمريكا.

وعلى أساس نجاح نظرية كامبل استطاع أن ينظم فى مدينة بوسطن جمعية لرعاية مصالح المكفوفين الكبار . وكان هذا أول مجهود منظم لمعالجة مشكلة الذين يصابون بفقد البصر وهم كبار على أساس صحيح . وكانت هذه الجمعية تقوم بمساعدة المكفوفين عن طريق الإرشاد والتدريب . وقبل ذلك ببضع سنين كان قد أدخل نظام تعليم المكفوفين فى منازلهم فى مدينة فيلادلفيا ، حيث كانت مهمة المعلم قاصرة على تعليم القراءة فقط . وكان من بين الآراء التى أدخلها كامبل على نظامه توصيل العمل إلى المكفوفين الكبار فى منازلهم .

ولما كان لكامبل ميزة ملاحظة تطور العمل فى انجلترا ، فقد عرف عن طريق الاختبار أن المجهود التطوعى لا يؤدى إلا إلى نتائج ضئيلة محلية وأن الاهتمام الحكومى لا يكون له أثر مادامت المسئولية على مستوى سلطات المقاطعات ، فلابد لتبرير إنشاء

مكتب خاص بالمكفوفين من وجود عدد كاف من الناس فى نطاق مسئوليته يتطلب خدمات أخصائيين مدربين يعملون كل الوقت ويقومون بالأبحاث اللازمة ووضع الخطط الصالحة للعمل . وكانت الحاجة ملحة إلى رفع مستوى المسئولية إلى مستوى حكومى عام . وفى سنة ١٩٠٧ تكونت لجنة ولاية ماساتشوستس الحكومية للعمل بين المكفوفين كنتيجة مباشرة لجهود كامبل وتوسلاته .

وبالرغم من فزع الأمريكيين من تركيز السلطة ، انتشرت فكرة اللجان الحكومية بسرعة ، وحذا حذو ولاية ماستشوستس ولايات كثيرة أخرى . على أن البعض لم يخط هذه الخطوة حتى سنة ١٩٣٠ ، ولا تزال ولايتان تلقيان مسئولية المكفوفين على عاتق السلطات المحلية .

ووجه كامبل همه إلى التنبيه إلى الحاجة إلى التعاون فى هذا الميدان ، مثله فى ذلك مثل هاو ، Hauy محارباً فكرة تجزئة العمل وانعزال كل هيئة عن غيرها . على أن ميدان التربية وميدان العمل بين الكبار كانا يسيران فى اتجاهين متباعدين . فاحتفظ المدرسون بجمعيتهم المسماة بالجمعية الأمريكية لمعلمى المكفوفين كما هى ولا تزال حتى الآن . وفى سنة ١٩٠٧ أسس كامبل أول مجلة خاصة بالعمال سعياً منه فى نشر التعاون والتآزر . وكان ، ولا شك ، بعض الناس ينفرون منه . وإلى جانب ذلك كان هناك بعض متاعبه الشخصية

التى ظهرت فى جو حياته فأثارت بعض النقاد عليه وأدت إلى فقدانه مركز الرعاية فى هذا المضمار. وألقيت المسئولية بعده على غيره وبخاصة راندولف لاتمر (Randolph latimer) من ولاية ماريلاند لينشىء الهيئة التى تصلح أن تكون محوراً يدور حوله نظام الخدمة الاجتماعية فأسس الهيئة الأمريكية للمكفوفين وكان أول مدير لها روبرت أورين (Robert Irwin) أحد زعماء الأمة المكفوفين الذى ظل يشغل هذا المركز حتى سنة ١٩٤٩

وينفرد والفنار

(Winifred)

ظل المجهود الاجتماعي فى نماء ، إلى أن طرأ عليه عنصر غريب منحرف الاتجاه ولكنه عميق الأثر تمثل فى العمل الذى كانت تقوم به وينفرد هولت (Wnifred Holti) ويقول عنها أصدقاؤها إنها رحيمة القلب ، مندفعة ، عاطفية ، شديدة التمسك برأيها . ولدت فى أسرة ذات ثراء فى مدينة نيويورك ، وفى نهاية القرن الماضى كانت تدرس النحت فى إيطاليا . وفى إحدى الحفلات رأت بعض الشبان المكفوفين يجلسون منفردين . وفى حديث لها عن هؤلاء المكفوفين قالت : إنهم كانوا يجلسون وكل يداه مشتبكتان ، فى سعادة لاحد لها

ووجوههم التى ينقصها البصر كانت تشرق عندما تنساب إلى أدمغتهم نغمات موسيقى فردى (Verdi) وينسجمون معها انسجاماً غريباً . وكان العرف وقتئذ أن الشابات اللواتى فى مثل مركزها ينقطعن لأعمال البر والرحمة . فبعد عودتها لمدينة نيويورك افتتحت مكتباً يقوم بتوزيع تذاكر الملاهى التى لم تبع على المكفوفين . وشاركتها أختها إيدث (Edith) فى هذه الحماسة ، وكان بيتها ملتقى المكفوفين المعوزين الذين كانتا تتصيدانهم من جميع أنحاء المدينة . وأنشأت لهم أندية لتحسين حالهم ، وأسست جمعية أسمتها جمعية نيويورك للمكفوفين فى سنة ١٩٠٧. وكانت آراؤها مزيجاً من القديم والحديث. فالمعهد الذى أقامته كان فى نظرها ملجأ يلجأ إليه المكفوفون هرباً من دنيا المبصرين ويستمتعون بوسائل الترفيه الخاصة بهم . وبمعنى آخر كان المعهد نوعاً من المسكن للمكفوفين . إلا أنها رأت بكل وضوح أيضاً أن عنصر العمل كان لب المشكلة الاقتصادية الخاصة بالمكفوفين فى مدينة نيويورك وفى غيرها من المدن . فأخذت تبحث عن عمل لهم وفكرت فى وسائل تدريبهم على العمل . ومن الممكن أنها تكون قد أخذت هذه الفكرة عن كامبل (campbell) الذى كانت تلح عليه للوقوف على آرائه . ومن المحتمل أن تكون قد تأثرت بما عملته كارمن سلفا (carmen Sylva) ملكة رومانيا الجميلة التى أسست ما سمته «الموقد المضىء» للمكفوفين . فى سنة ١٩١١

وضع الرئيس تافت حجر الأساس للمبنى الذى تحققت به أحلام وينفرد هولت والذى لايزال قائماً حتى الآن فى الشارع التاسع والخمسين . وفى ذلك الحفل أمسك الرئيس تافت بيدها وسمى المبنى « بالفنار » وأما هى فنحها لقب « حارسة النور » .

ومع أن أحلام وينفرد كانت عريضة إلا أن المرء ليتساءل إذا كانت تحلم بالفنار القائم اليوم ويعمل فيه مائة موظف ويؤدى خدمات عددها ثمان وعشرون لنحو من أربعة آلاف مكفوف،هم نصف العدد الموجود بالمدينة الكبيرة منهم . وهذا الفنار أكبر معهد من نوعه فى العالم . ويقدم للمكفوفين دراسات تتدرج من القراءة البسيطة إلى الاختزال حسب طريقة (برايل) ،كما يعلم مهارات خاصة كثيرة . وهو هيئة رسمية لاستقبال من أصيبوا بفقدان البصر وهم كبار ويسدى إليهم النصح والإرشاد . وبالمبنى حمامات سباحة وملاعب،ويقيم الحفلات وينظم الرحلات الصيفية. وبين أقسامه الكثيرة مصنع كبير . ويشرف على نظام ينشر الأخبار بين المكفوفين بعينهم على إيجاد عمل.

ولمشروع الفنار من التأثير فى هذا العصر ما ليس لغيره . فمن ناحية التنظيم يعتبر مثالا يحتذى فى تنظيم الخدمة الاجتماعية بين المكفوفين. وانتشرت فكرة الفنارات فى طول البلاد وعرضها وتأثرت بها إيطاليا وفرنسا . ومن الملاحظ أنها محت إلى حد كبير الفروق

المذهبية . فالمعاهد التى تشرف عليها الكنائس تؤدى خدماتها للجميع دون نظر إلى مذهب أو دين . وبعض المعاهد التى قامت ضمن النظام الخاص بالكبار تقربها حجماً وبخاصة المعهد اليهودى للمكفوفين بمدينة نيويورك الذى أسس ١٩١٤ .

إن الهيئات الخيرية والمكاتب الحكومية تشترك معاً فى هذه المجهودات . فاللجان الحكومية وماشا كلها من تنظيمات تكون الأساس الذى يقوم عليه نظام الخدمة بين الكبار من المكفوفين أما الجمعيات الخيرية فتمهد الطريق لهذه الخدمة وتنفث فيها من روحها .

خواص تنظيمية

ساير ازدياد عدد هيئات الخدمة التطوعية ونموها حجماً وتقسيماً انتشار فكرة مسئولية الدولة ، لدرجة أنه فى السنوات العشرين السابقة على سنة ١٩٢٧ كان فى كل الأجزاء الأكثر ازدحاماً بالسكان ، كما فى البعض الآخر ، جهاز كامل للعمل بين المكفوفين من الناحية التنظيمية . وفى الواقع كان كل كفيف فى الولايات الشرقية على الأخص تحت رعاية هيئة من هذه الهيئات . على أنه كان ومازال يوجد بعض الاختلاف فى التنظيم بين هذه الجهات . وكان منشأ هذا اختلاف القوانين والحالة الاقتصادية وما إلى ذلك . فالهيئة التى تعمل فى بيئة صناعية كانت ظروف العمل فيها تختلف عن ظروف الهيئة التى تعمل فى الريف مثلا

كما أن كثافة السكان لها تأثير على طابع الهيئة التى تعمل بها . وبالرغم من هذه الاختلافات فإن هناك عوامل تعمل على إيجاد نقط تشابه .

وأبرز نقطة تشابه بين هذه الهيئات جميعاً هى أنها منذ بدئها حتى الآن لم توسع نطاق عملها ليشمل أى طائفة أخرى غير المكفوفين، وقل أن تجد إحدى الهيئات الخاصة أو العامة تقوم ببرنامج شامل لمساعدة ذوى العاهات عامة . وإن حدث ووجدت هذه الهيئة فإن المكتب الخاص بالعمل بين المكفوفين يعمل كوحدة قائمة بذاتها منفصلة عن غيرها ، وهذا يدل على تأصل الفكرة القديمة التى انبنى عليها عزل المكفوفين عن المجتمع ، وقد تمكن هذا الشعور من ممثلى المكفوفين لدرجة أنهم فى حالة صدور أى تشريع خاص بالأعمال الخيرية كانوا يصرون على ذكر المكفوفين على انفراد . ولربما كان منشأ هذا الشعور بالخوف من ضعف مركزهم فى حالة إدماج المكفوفين مع غيرهم ، مع أنه لم يكن هناك محل لهذا الخوف لأن مركز العاملين لأجل العمال تشريعياً كان دائماً قوياً . والعذر الذى كان يقدم عادة هو أنهم لا يريدون أن يضيع المكفوفون بين غيرهم .

على أن هناك عوامل تدعو إلى التجانس بين العمال فى هذا الميدان، منها أن العمل بين المكفوفين يتطلب استعداداً فنياً خاصاً فهناك عمال كثيرون تطوعوا للعمل فى هذه الهيئات لإعداد كتب للقراءة وغير ذلك ، كما أن فى كل هيئة نواة من الموظفين الذين يعملون كل

الوقت لكسب عيشهم . أضف إلى ذلك أن خطة العمل فى هذا الميدان لا تختلف كثيراً باختلاف المدن أو الاقليم .

ولعل الخلاف يكون أظهر بين اللجان الحكومية التى يختلف عملها فى ولاية تكساس مثلا عنه فى ولاية بنسلفانيا من ناحية التنظيم بسبب اختلاف توزيع السكان فيهما . أما الهيئات التطوعية فتوجد عادة فى المدن الهامة فى الولايات ، ولذا يقل الاختلاف بينها من ناحية التنظيم . ولا يجب أن نفهم من كلمة « تطوعى » أن إعانات هذه الهيئات تأتى كلها من مصادر خاصة أهلية فقط . صحيح أن كل هذه الهيئات تصلها تبرعات من الأهالى ولكن كثيراً منها يصلها إعانات من مصادر حكومية ومن بلديات ومن الحكومة المركزية كذلك . والأمر الوحيد الذى يميز الهيئة التطوعية من الحكومية تميزاً واضحاً هو طريقة الإدارة العليا . فكل هيئة تطوعية يديرها مجلس مكون من مواطنين فيهم روح الخدمة العامة ، أكفاء للقيام بواجبهم، ذوى مكانة فى الهيئة . ومدير الملجأ مسئول أمام مجلس من المبصرين لا من المكفوفين ، مع أن الأخيرين يشغلون مراكز كثيرة منها الكبيرة ومنها الصغيرة . وكل الهيئات التطوعية تخضع للقوانين سواء أكانت مكتوبة أم عرفية من ناحية الإدارة .

الانفصال والانعزال

ويمتد الشعور بالعزلة الذى لايزال يتميز بهالعمل لأجل المكفوفين فى الوقت الحاضر بطريقة عجيبة إلىمناطق داخل الميدان نفسه . وكان هاو Howe بين أولئك الذين لاحظوا إلى أية درجة يميل العمال من المكفوفين إلي العزلة . ولقد كان قاسياً فى نقده لعزلة بعض المدارس الأوربية أيضاً،وكان ذلك دليلا علىموقف أدهش العالم منه . والحرب التى أثيرت على بعض المسائل الشكلية تمثل بوضوح نوع الانفجار الذى يحدث عندما يرتاب الناس فى احتكار بعض الهيئات للأساليب دون البعض الآخر . وهذا الانفجار يكشف عن شعور داخلى بعدم الثقة فى الغرض ، كما يدل على الخوف من افتضاح أو اكتشاف عدم الثقة هذه،وكذلك عن موقف القائمين علىالعمل بالنسبة لحقائق العلم ، الأمر الذى سنتحدث عنه الآن .

شاهدت دوروثى يوستس (Dorothy Eustis) فى ألمانيا تدريب الكلاب على قيادةالمكفوفين فأسست النهضة الحديثة لتدريب الكلاب على هذا العمل ، ولكنها اكتشفت أن الهيئات الأوربية التى تعمل بين الكبار من المكفوفين لا تتعاون إلا قليلا ولا تتحمس لآراء لم تكن هى مصدرها . وبعد أن أخضعت تربية الكلاب لأسلوب علمى

فى ضيعتها بسويسرة حاولت أن تثير اهتمام السلطات فى فرنسا وفى غيرها من البلاد الأوربية بمشروعها الذى كان ، إلى ذلك الوقت، الحل الوحيد لتأسيس نزعة استقلالية للعمل بين المكفوفين . ولما لم تصادف نجاحاً يذكر فى إيطاليا وبريطانيا قررت أن تنقل مشروعها كما هو إلى الولايات المتحدة بأمريكا ولكنها لم تكن أحسن حظا ، لأن المشروع كان لابد أن توافق عليه هيئات عدة قبل أن يمكن نشره عن طريق النظام السائد وقتئذ . ووجدت دوروثى أن هذا أمر بعيد المنال ، لأنها قوبلت بفتور حتى من الجمعية الأمريكية . ولذلك استخدمت ثروتها الخاصة فى تأسيس معهدها الخاص . ولهذا السبب أيضاً ظلت نهضة تربية كلاب القيادة بمعزل عن الإطار العام .

وليست العزلة أمراً جديداً فى ميدان عمل تام ، فيه الجزء النظرى بحاجة للاستقرار ، كما أن الطريقة ما زالت غير موثوق فيها . ومن وجهة نظر عامة يمكن القول إنه بالبحث عن الدوافع إلى العزلة نجد أنها لكسب المال أو السطوة ، أما فى هذا الميدان بالذات فهذه البواعث منعدمة . فنى هذا العمل لم يكن أحد يخسر شيئاً وإنما الكل يربح عن طريق فض النزاع ، ولكن الضرر كان واقعاً على أولئك الذين كان النزاع قائماً بسببهم . فكثيرون ممن عملوا فى هذا الميدان نمت فيهم فكرة غامضة عنه كمن كرسوا حياتهم بشىء خفى

لا يستطيع غيرهم فهمه . وقد تكون هذه الفكرة الغامضة نتيجة لشيء أبعد غوراً .

على أن النظام العام لا يطبق النقد بشكل ملحوظ . فكل من يقرأ المنشورات أو المطبوعات الخاصة به يشعر أن هناك محاولة تجنب النزاع بأى ثمن مع أن العوامل التى تدعو إليه ظاهرة لكل ذى عينين . فهناك هيئات خاصة وحكومية بينها النزاع مستمر بسبب التنافس على «الزبائن» وفى بعض المناطق التى يشتد فيها نفوذ الهيئات التطوعية لاتجد اللجان الحكومية مجـــالا للعمل . ففى ولاية فيلادلفيا التى تضاعف فيها عدد الهيئات العاملة مع تشابه مجهوداتها كانت نتيجة المساعى الجبارة التى بذلت للجمع بينها أن عقد اجتماع واحد لها خلال عشرين سنة . ومع أن الجمعية الأمريكية التى لا تعمل كهيئة عادية ، وغرضها إنماء البحث من الوجهة النظرية والعملية ، وأن تكون مصدراً رئيسياً لجمع المعلومات ، فإن بعض المناطق ترفض أن تكون لها علاقة بها وتقف منها موقف المنافس ، مكتفية بما تقوم به من أبحاث .

وتأسس مجلس نيويورك الأعظم للهيئات العاملة بين المكفوفين فى سنة ١٩٣٧ . ولم يكن من السهل تكوين هذا المجلس الذى انسحبت منه المدرسة الرئيسية فى الإقليم بعد تمشيها فيه مباشرة . ومما عمله المجلس تحسين القوانين الخاصة بالمكفوفين وتكوين ندوات

عامة لبحث مشكلاتهم . وقد كانت له أعظم إمكانية لوضع وتنفيذ برنامج للبحث يمكن بوساطته معرفة مقدار ما ينتظر من ميدان الصناعة أن يستوعب من المكفوفين وفى أى أنواع الصناعة يقدر لهم النجاح . وفى العقد الرابع من القرن العشرين طلب البرلمان الأمريكى بعض الحقائق والأرقام قبل إصدار قانون الضمان الاجتماعى فلم يمكن مده بمعلومات عن عدد المكفوفين المشتغلين بالصناعة . وإلى سنة ١٩٤٣ عندما كان تعديل باردن — لافوليت Barden La Follette يناقش فى البرلمان ، لم يمكن الحصول إلا على آراء شخصية لإحصاءات دقيقة معروفة عن هذه النقطة الحيوية .

الموقف حيال العلم

فى سنة ١٩٣٤ أصدر كتسفورث (Cutsforth) ، عالم النفس الكفيف نشرة عن « المكفوفين فى المدرسة والمجتمع » فقوبل بشىء من الهلع ، وفى بعض الأوساط بالسخط . ولم يعره البعض أية التفاتة كأنه كان يعبر عن رأى شخصى ، مع أن الكاتب تؤهله خبرته واستعداده لمعالجة مثل هذا الموضوع .

ومن عجب أن يجد المرء فى ميدان الخدمة بين المكفوفين أن التجربة والدليل الاكلينكى لايقام لهما وزن ، والتخمين الشخصى

عليه المعمول . ولقد كان من الصعوبة بمكان عظيم أن تعوض هذا الميدان لقوة الآراء الجديدة . يقول فرنش (French) إن كل اختراع أو كشف هام جعل التقدم ممكناً ، كان فى بادئ أمره شيئاً جديداً .... إن التقدم الصحيح كان يفرض على النظم من الخارج أو يتسلل إليها خفية ولا يجيء عن طريق تطورها الطبيعى .

وليس هناك دليل أوضح على موقف أى منظمة حيال العلم من من نشراتها . ففى هذه الأيام ينتشر النشاط ومعالجة مشكلات الإنسان عن طريق المجلات والصحف . والمبتدئون فى العمل فى هذه الميادين يلجئون إلى النشر عند أول فرصة تسنح لهم .

إلا أن الحال يختلف عن هذا تماما فى ميدان العمل بين المكفوفين فالنشرات الخاصة به قليلة إذا استثنينا منهـــا المكفوفين أنفسهم أو الموعز بها لغرض معين . وليس هناك تبادل يذكر بيننا وبين البلاد الأجنبية ففي كل الولايات المتحـدة لايوجد أكثر من ست مكتبات بها مجلات أجنبية دورية . فالموقف حيال الكتابة فى هذا الموضوع هو موقف الجمود إذا بينا حكمنا على مقدار ما ينشر عنه. ولسنا نعرف ما إذا كان السبب فى ذلك هو الميل التقليدى فى هذا الميدان إلى عدم الرغبة فى نشر المعلومات أو هي السياسة التى تتبعها الهيئات القائمة بالعمل فيه والتى تمنع العاملين من الإعراب عن آرائهم، فمعظم المقالات تميل إلى تجنب الجدل ، وإن المرء ليخامره الشعور

بأن قليلا من هذه المقالات فقط يقدم للمشتغلين بين المكفوفين معلومات جديدة ، فمثلا موضوع تعليم المكفوفين إصلاح البيانو كحرفة يتكسبون منها ، كثيراً ما تتكرر الكتابة فيه ، وأما الموضوعات التى تثير الجدل فتجد طريقها إلى النشر خارج هذا الميدان . والمثل على ذلك نجده فى التقرير الذى وضع عن تجربة كورنل (cornell) والذى صحح بطريقة قاطعة كثيراً من الأخطاء التى كانت شائعة عن التغير الذى يطرأ على جسم الإنسان عقب فقدان البصر — هذا التقرير نشر فى مجلة علم النفس العام ، ولهذا السبب لم يعرف المشتغلون بين المكفوفين عن هذا التقرير شيئاً . أما المجلات الخاصة بالمكفوفين فتزخر فقط بالمعلومات التاريخية عن هذه الحركة .

وفى المراكز الإدارية الكبرى يشعر المرء بوجود مايشبه الاحتقار للآراء الجديدة أو لنتائج الأبحاث التى تجرى خارج ميدان المكفوفين وقد يكون هذا نتيجة الاضطرار إلى إيجاد وسيلة للحماية مما ينهال على الإدارة من مقترحات سخيفة من الجمهور ، ولكننا نجد فى نفس الوقت أن بعض الاقتراحات تأتى من مصادر مثقفة لها احترافها. ولقد أنشأت المؤسسة الأمريكية مؤخراً مكتباً لتنسيق الآراء التى كانت ترد إليها . ونذكر منها مثلا واحداً : أرسلت شركة لصناعة الصلب عينات من ألواح رقيقة جداً بفكرة أنها قد تصلح للكتابة عليها بطريقة برايل بعد وضعها فى شكل مجلدات وفى هذه الحالة

لا تتأثر الكتابة عليها مهما طال استعمالها . هـذا المشروع الجديد بالاهتمام لم يثر إلا قليلا من الحماسة .

وعندما استطلعنا آراء مراقبين أكفاء عن مستوى العاملين بين المكفوفين كانت الإجابات مع دقة الموضوع وصعوبة الإجابة عنه ، مجمعة على أن الأمريكيين منهم ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء ، على قدر كبير من التعليم ومن الذكاء وجميعهم ممن خصصوا أنفسهم لهذا العمل بدافع من حب الخير فى أنفسهم، لأن الذى يتقاضونه لا يمكن أن يكون كبيراً . وفى السنوات الأخيرة استغنى عن خدمات المعينين منهم من السياسيين وخدام الدين الذين كانوا يرأسون بعض هذه المعاهد بعد تقاعدهم عن عملهم . على أن المراقبين يتفقون على أن التدريب الخاص للعاملين الدائمين بين المكفوفين ليس كثيراً باستثناء من يشتغلون فى التدريس منهم ، فقد دربوا التدريب الكافى وخاصة خلال ربع القرن الأخير . وأما فى القسم الخاص برعاية الكبار من المكفوفين فقليلون من العاملين بينهم تركزت دراستهم فى الكلية فى علم النفس أو التربية البدنية أو علوم الاجتماع .

ولقد كان هناك معارضة واضحة لاستخدام موظفين جدد من بين من أعدوا للعمل فى الميادين الأخرى ، إذ يبدو أن هناك اعتقاداً بأن العمل فى تلك الميادين لا يؤهل المرء لفهم مشكلات المكفوفين ، كما أن هناك ما يدل أيضاً على أن دراسة علم النفس والعلوم الاجتماعية

لا يساعد كثيراً . ولم تنشأ الأقسام الخاصة بدراسة الحالات النفسية إلا حديثا ، ومع ذلك فقد اشتد العداء ضد هذه الدراسات فى بعض الأوساط . ويتضح ذلك من تصريح أدلى به أحد الإداريين فى اجتماع عقد فى مدينة كبيرة إذ قال إن ضرر من يعدون هذا الإعداد أكثر من نفعهم . ويبدو أنه عندما أنشئت هذه الأقسام كانت تنتقد طريقة العمل فى الأقسام الأخرى وطالبت بتوحيد الخدمات بطريقة كان القصد منها القضاء على فكرة نظام التقسيم القديمة ، مع أن الانعزال يسود بين الأقسام المختلفة فى الهيئة الواحدة ، إذ يحدث أحيانا أن الأساليب والآراء السائدة فى قسم ما تتعارض مع مثيلاتها فى القسم الآخر من نفس الهيئة .

إلا أن الاتجاه العلمى فى هذا الميدان يتزايد فى الوقت الحاضر . فلم يعد علماء النفس والمحللون النفسيون غرباء عن الهيئات التى تعمل بين المكفوفين . فمؤتمر متشجان المنعقد فى سنة ١٩٤٧ أبان بكل جلاء حقيقة وهى أنه لا توجد معلومات مجموعة خاصة بطريقة تكييف الإنسان نفسه فى حالة فقدان البصر . وكان من أثر ذلك أن تكون مجلس من المربين وعلماء النفس لهذا الغرض عينه . وقد صرح د . ه . دا بلستاين (D . H . Dabelstein) من مكتب التأهيل المهنى بالقول : فى رأيى أن إنشاء مجلس كهذا فى هذا الميدان هو أهم تطور حدث

فى تاريخ العمل بين الكفيفين . وألح أحد الخطباء فى اجتماع عام عقد منذ ثلاث سنوات على ضرورة استخدام الاختبارات النفسية والبدنية فى الحكم على درجة قدرة الكفيف على تكييف نفسه ، وسألت إحدى العاملات قائلة : إذا طبقنا المقاييس العلمية للحكم على الشخصية ، فلا نقع فى خطر عدم التفكير فى المكفوفين كأفراد .

نظام العمل أحد عوامل البيئة

كم من كفيف تصبح الهيئة التى ينتمى إليها المحور الذى تدور حوله حياته اليومية . ويظهر مقدار تأثير لنظام العمل بين المكفوفين كعامل البيئة مما ذكره عدة مراقبين من أن نحواً من خمسين فى المائة من المكفوفين الأمريكيين على اتصال مستمر أو متقطع بهيئاتهم لأسباب اجتماعية أو مالية ، وخمسة وعشرين فى المائة آخرين اتصلوا بها مرة أو عدة مرات على الأقل فى الفترة التى تلت فقدانهم للبصر ويندر وجود كفيف لم يتصل إطلاقاً بإحدى الهيئات المهتمة بالمكفوفين . ولهذه الهيئات أيضاً تأثير غير مباشر على التشريعات الفدرالية أو المحلية على اعتبار أنها تنوب عنهم فى علاقاتهم تجاه المجتمع وتقوم بحملات مالية لجمع تبرعات وتبنى دعوتها على حالة المكفوفين الاجتماعية

والاقتصادية ، ولا يمكن إغفال ما لهذا العمل من تأثير غير مباشر على حياة المكفوفين .

والمكفوفون الذين ألحوا على كامبل (campbell) بالبقاء فى مدينة بوسطن فى سنة ١٩٠٣ كانت لهم فكرة واضحة عن غرض النظام القائم حتى إذا كان لم يدرك أحد وقتئذ مقدار التقدم الذى يطرأ على العمل فى هذا الميدان . فكانت نظرتهم إلى هذا النظام كأنه سياج يقى بيئة المكفوفين ، ووسيلة لهدم العائق النفسى الذى يحول بينهم وبين تكييف أنفسهم وفق بيئتهم ووفق الواقع ، كانت نظرتهم إليه كأنه مكتب لإيجاد عمل للقادرين منهم جسدياً أو معاونة المصانع التى يعمل فيها أولئك الذين لا قدرة لهم على منافسة غيرهم فى مضمار الحياة . وعلينا أن نبحث الآن إلى أى حد استطاع نظام العمل هذا طوال الخمس والأربعين السنة الماضية أن يحتفظ بغرضه الأصلى أو أن يتطور من وسيلة للتغلب على الحقائق النفسية إلى وسيلة لتثبيت جذورها . وليس من المستغرب أو المخيب للآمال أن يكون النظام قد سلك سبيلا وسطاً لحاد ولو قليلا عن غرضه الأصلى فى سبيل الوصول إليه . ولكن هل هذا كل ما هنالك ؟

إن هناك ناحية واحدة يبدو النجاح فيها واضحاً . وقد لا نعدو الدقة فى التعبير إذا قلنا بوجه عام إنه لم يعد هناك أى سبب اقتصادى

يدعو إلى التسول بين المكفوفين . والكفيف الذى يذرع الشوارع متسولا إنما يفعل ذلك على الأغلب بمحض اختياره . وقد يجوز أن يظن الإنسان أن تفضيل البعض للتسول على العمل الذى توفره الهيئات لهم قد تدل على وجود خطأ جسيم فى هذه الهيئات ، ولكن مثل هذا الظن لايؤدى فى الحقيقة إلى نتائج مؤكدة . لأنه لابد من وجود منشقين وأنذال فى كل مجتمع . ويزداد الشك فى سلامة الغرض الذى يذكى الحياة فى النظام بأكمله إذا أدرك المرء أن المكفوفين بوجه عام لايجدون عملا فى المصانع أو المهن الأخرى. وإذا كان المكفوفون ليسوا بعد متسولين بشكل ظاهر ، وإذا كانوا لايستخدمون بعد فى الصناعة فأين هم إذن ؟ هل جميعهم يعملون فى المصانع وهى مآلهم فى النهاية ؟ وبالإجمال ، إذا كان لم يثبت بعد استحالة تكييف المكفوف وفق بيئته ، فهل أصبح النظام ، بالرغم من السبب الظاهر لبقائه ، عودا إلى نظام الملاجىء ، وبذا يخفى المشكلة بدلا من السعى فى علاجها ؟

قدم جبر يل فاريل (Gabriel Farrell) من معهد بيركنز (Perkins .) سؤالا إلى مجلس نيويورك الأعظم للعمل بين المكفوفين فى خطاب ألقاه سنة ١٩٣٩ قال : إننا نرى الشك يتسرب إلى بعض المبادئ فمثلا أن المبدأ القديم الذى نشأنا عليه والذى يردده فى معهد بيركنز منذ

أيام الدكتور هاو هو أن المكفوفين إذا دربوا تدريباً مناسباً يستطيعون أن يشغلوا مكاناً نافعاً فى حياة العالم الاقتصادية . فهل يستطيعون ذلك حقاً ؟ إن كثيرين فى مختلف الأوساط يشكون فى هذا . فهل لايزال متسع فى الميدان الاقصادى لأولئك الذين فقدوا البصر ؟ أو هل أصبحت هذه الفكرة من بقايا العهود الغابرة ؟

ما الذى دعا فاريل (Farrell) إلى هذا التساؤل ؟ فى وسط ما يبدو أنه استمرار فى التمسك بالإيمان بالفرد وبحق كل واحد فى تقرير مصيره ، وبعد إيجاد نظام يعين مجموعة من الناس على تحقيق الفرصة للمساواة ؟ ويقول جوزيف كلانك Joseph Clunk وإنه فى الوقت الذى تساءل فيه فاريل لم يكن من المكفوفين أكثر من مائتى شخص يعملون فى الميدان الصناعى العام . وفى ظل الديموقراطية التى نعيش فيها يجب أن يكون المكفوفون أحسن حالا من ذى قبل من الناحية الاقتصادية والاجتماعية كما أن الرأى القائل بأن المكفوفين يستطيعون أن يفيدوا المجتمع يجب أن يعزز بكل قوة .

هناك من ينتقد الطريقة المتبعة فى معالجة المشكلة الاقتصادية والاجتماعية . تساءلت روبرتا تاولسند Roberta Townsend التى ظلت تعمل فى مكتب بروكلين للخدمة الاجتماعية نحو عشرين سنة قائلة : إن أحسن مانستطيع عمله هو أن نمتحن ضمائرنا بكل جد

وإخلاص ونسأل أنفسنا إذا كنا نؤمن إيمانا كاملا بإمكانيات المكفوفين الذين نتولى خدمتهم . إذا كنا نفعل فإن تصرفنا أحيانا يدعو إلى الاستغراب . واستطردت الآنسة تاونسند وهى تخاطب مؤتمر سنة ١٩٤٩ قائلة : لقد هالنى أن أرى فرقا من الطلبة المكفوفين الذين تخرجوا من مدارس مختلفة يرفضون بل يخشون أن يتورطوا فى المتاعب التى تنشأ عن اتباع برنامج رسمى معين . إنى لأعترف أننى تحيرت فى الدفاع عن الهيئات العاملة بين المكفوفين فى كثير من الحالات . ولقد أشارت الآنسة تاونسند المبصرة إلىالعوامل المتضاربة فى الموقف بقولها :

هناك من الناحية الواحدة مطالبة قوية بأن يتمتع الكفيف بنفس الفرص ويعطى نفس الاعتبار كالمبصر سواء بسواء فى المجتمع والصناعة . ومن الناحية الأخرى هناك تشريع يرمى إلى حماية المكفوفين لأنه مبنى كما يظهر على اعتبارهم عاجزين لا حول لهم ولا طول . فالمكفوف على هذا الاعتبار يجب أن يعطى الفرصة للكسب، مع أنه لا يقوى على منافسة المبصر ، ويجب كذلك أن يقبل على قدم المساواة مع رفاقه المبصرين مع أنه من المقرر أن حاجاته تختلف اختلافا كليا عن حاجات أى جماعة أخرى فى المجتمع .

فمن الجلى إذن أننا ندرس موقفا معقداً مليئا بالمنازعات حتى على الفرض من وجوده موقفاً لا يسهل التعلم فيه .

أثر كساد سنة ١٩٢٩

يبدو أن النظام الذى سارت عليه الهيئات العاملة بين المكفوفين كان أقرب إلى تحقيق أغراض مؤسسية خلال السنوات العشرين الأولى. ومع أنه لا يوجد إلا القليل من دلائل النجاح إلا أن النشرات التى كانت تصدر فى تلك الفترة تبين كثيراً من الاهتمام بإيجاد أعمال للمكفوفين ، ومن الناحية الأخرى ليس هناك مايثبت أن هذه النقطة كانت محل نزاع .
ولما نشبت الحرب العالمية الأولى وكثر الطلب على الأيدى العاملة اعترف للمكفوفين بحقهم الشرعى فى العمل . وفى نهاية تلك الحرب يظهر أن كثيرين استمروا فى الأعمال التى كانوا يزاولونها . فقد كان مثلا فى مدينة بإحدى الولايات الغربية فى سنة ١٩٢٠ ، ١١٥ مكفوفاً يعملون فى ٥٥ مصنعاً . وفى مدينة أخرى بإحدى الولايات الشرقية كان هناك فى مصنع واحد ٥٥ مكفوفا . ولم تشك المدارس من مواجهة صعوبات فى تشغيل خريجيها من المكفوفين . وكانت الأبواب تفتح أمامهم فى المهن الأخرى . وكانت الكليات تفتح أبوابها لهم فانقطعت مطالبتهم بإنشاء كلية خاصة بهم . ومنهم من حصل على درجات علمية عالية كالماجستير والدكتوراه . ومنهم من أصبحوا أعضاء فى لجان إدارة الكليات ، كما اشتغلوا بالمحاماة وعلم النفس وإدارة الأعمال . ومع أن هذا لم يكن سهلا عليهم ، فإنه تحقق

بفضل التسهيلات التى قدمها لهم النظام المتبع بتيسير الحصول على المنح المدرسية والكتب وغيرها من الامتيازات .

وقد قام كثير من الهيئات بإنشاء مصانع للتخفيف من حدة مشكلة التعطل بين المكفوفين . فا متلأت البلاد بهذه المصانع التى كانت قد بدأتها الكنائس والأندية الخيرية والأفراد الذين أرادوا مساعدة المكفوفين . وفى هذه المصانع كان المعوزون يقومون بنسج بعض السلع الصغيرة التى كان يبتاعها الخيرون بدافع من الشفقة من الأسواق الخاصة ببيع منتجات المكفوفين . واتسعت المصانع التى كانت تشرف عليها تلك الهيئات بسبب تشغيل المسنين أو الضعفاء من المكفوفين فيها أو تشغيلهم فى البيئة حيث يقيمون .

إلا أن تلك الهيئات قد تأثرت بسنى الكساد التى تلت سنة ١٩٢٩ كما تأثر المكفوفون أنفسهم بدرجة عظيمة فى طول البلاد وعرضها . ولقد هزت العاصفة الاقتصادية أمريكا هزة عنيفة على أثر الكارثة التى أصابت سوق الأوراق المالية فى خريف سنة ١٩٢٩ ودام تأثيرها خمس سنوات أو أكثر فى بعض الجهات . وكان هناك من اعتقدوا أن كياننا الاقتصادى قد تداعى فعلا ،فلم يكن مجرد كساد يعقب فترة رخاء . فعمت البطالة البلاد وخاصة المكفوفين . ولم تجد مجهودات الهيئات فى إيجاد عمل لهم . وفى سنة ١٩٣٢ صرح خريجو إحدى مدارس المكفوفين الهامة أن كسبهم لا يفى بنصف

حاجاتهم ، أما المصانع المستقلة التى كان يعمل فيها المكفوفون فقد أغلقت إذ لم يكن هناك فرصة لبيع منتجاتها أو للحصول على تبرعات خاصة تمكنها من الاستمرار . فدعا الحال إلى تكوين هيئات جديدة تستطيع مجابهة الموقف . والولايات التى تباطأت فى تكوين لجان حكومية لمساعدة المكفوفين اتخذت هذه الخطوة فى سرعة . وكثر عدد المتسولين المبصرين فى شوارع المدن الكبرى لدرجة أنه لوكان بينهم من المكفوفين عدد يساوى عددهم فى كساد سنة ١٨٩٣ ما فطن إليهم أحد .

والمكفوفون الذين لم يتصلوا من قبل بأية هيئة كان لابد لهم أن يرتبطوا بها لأن العون للمكفوفين كان يوزع عن طريقها . وأما المصانع فكان يعمل فيها من لا منافسين لهم . ولما كان من المتعذر تصريف منتجاتها كان لابد من تطوير نظرية إدارة هذه المصانع .

وليس من السهل تحديد الوقت الذى بدأ فيه استعمال تعبير « المصنع المحمى » ومن الواضح أن المبدأ الذى يمثله تأصل فى أثناء سنى الكساد ، مع أنه لم يتأصل تماما إلا بعد أن بدأت حدة الكساد تخف . أما المبدأ فى حد ذاته فبسيط يرتكز على بديهية وهى أن المكفوفين الذين يعملون يجب أن يكون لهم ضمان يقيهم شر التقلبات الاقتصادية . ويمكن تحقيق ذلك عن اختيار بعض السلع البسيطة الصنع والتى لا غناء عنها وليست عرضة للتنافس ، على أن

يصدر تشريع من السلطات المحلية أو الفدرالية يضمن شراء هـذه السلع ، وبذا يقف الإنتاج على قدميه وتتجنب الإدارة التأثر بمبدأ العرض والطلب . ولو أمكن تشغيل كل المكفوفين فى هذه الصناعات لأصبحوا قوة صناعية ، وعلى مر الأيام يتقنون صناعة السلع التى يتخصصون فى صنعها ، وترتفع أجورهم لتتساوى مع أجور غيرهم من العمال . ولأنهم يعملون وحدهم بعيدين عن زملائهم المبصرين يتجنبون الاحتكاك الذى قد يسبب لهم متاعب نفسية .

وجدت هذه الفكرة صدى عند الرأي لحل مشكلة المكفوفين كما لقيت قبولا لدى المشرعين الذين كان يطلب منهم تعضيد الإجراءات الخاصة بالمكفوفين . وأما الهيئات العاملة بينهم فرحبت بالفكرة لأن مسألة الضمان الاجتماعى وبعض العوامل الأخرى كانت تزيد موقفهم تعقيداً حيال المكفوفين . وبالإجمال بدا أن وراء الفكرة نفعاً .

وهكذا أصبح مبدأ « المصنع المحمى » مظهر الجانب التقدمى فى النظام بأكمله وأخذت المؤسسة الأمريكية على عاتقها نشره والترويج له فى كل البلاد . ويظهر أن التشريع الذى صدر بشأنه ساعد مساعدة كبرى على تحقيق الغرض المنشود . ففى سنة ١٩٣٨ اشترت الحكومة المركزية وحدها من السلع التى أنتجها مايقرب من خمسين مصنعاً ماقيمته عشرة ملايين من الدولارات . وكانت هذه المصانع تفخر بالنجاح الذى أحرزته . وقد اعترفت البحرية الأمريكية رسميا بحسن صناعة عدد من المصانع .

وما حل عام ١٩٤٠ حتى كان النظام قد كون فكرة عن طريقة حل مشكلة المكفوفين وإخفائها . ولما تحسن الاقتصاد القومى الأمريكى عن طريق الاستعداد للحرب ، تحسنت الحالة فى المصانع تبعاً لذلك باطراد . ولكن هذا الرخاء نفسه دعا إلى الشك الشديد فى إمكان استمرار المصانع فى التقدم . لأن الميدان الصناعى العام بدأ يشغل المكفوفين ويطلبهم بالذات .

واعترضت بعض الهيئات على استجابة بعض المكفوفين لهذا الطلب مبينة أن المصانع الخاصة بهم تنتج سلعاً تخدم المجهود الحربى أيضاً وقدمت مذكرة بأيام الكساد التى مرت بهم وبأن هذا الرخاء لن يدوم ، وأنه إذا دامت أيام الرخاء بعد الحرب فمن المحتمل ألا يستمروا هم فى عملهم . وانقسمت الآراء حول هذه النظرية . وقال قائل إن « المصنع المحمى » إنما هو عودة إلى مبدأ عزل المكفوفين عن غيرهم من العمال ، ولكن لم تنجح المعارضة لأن الأغلبية كانت فى الجانب الآخر الذى عزز رأيه فى المؤتمرات العامة باقتراح توسيع المصانع الخاصة بالمكفوفين وإنتاج سلع أكثر . و بعض هذه التصريحات تظهر بوضوح التخلى عن فكرة إدماج المكفوفين مع غيرهم . فقيل مثلا إن المصنع الخاص يحمى المكفوفين من إصابات الصناعة ، وكان البعض الآخر يبذل الوعود بترقية المكفوفين فى مصانعهم .

وأخيراً وضح للعيـــان أن فترة التوسع فى المصانع الخاصة قد

انتهت على الأقل مؤقتاً . وتشجع الكثيرون من المكفوفين وتركوا مصانعهم واشتغلوا فى المصانع العامة . وبعد أن كان عدد المكفوفين فيها قبل الحرب مائتى عامل أصبح فيما بعد أكثر من خمسة آلاف. وقد كانت هناك محاولات لإرغام المكفوفين على البقاء حيث هم، ولكنها لم تفلح .

والحقيقة التى لا مراء فيها أنه بعد أن انتهى معظم المجهود الصناعى الحربى كان المكفوفون أول من استغنى عنهم فى المصانع العامة . ولا يستطيع الإنسان أن يلقى التبعة كلها على العامل النفسى فإن معظم العمال كانوا يشتغلون فى صناعات خاصة بالدفاع وهذه كانت تسير وفق شروط معينة . ولقد أظهر المكفوفون براعة فى العمل فى أثناء الحرب تركت عنهم أثراً طيباً لدرجة أنه فى تلك الفترة بلغ عدد المشتغلين منهم أعلى رقم فى كل تاريخ الولايات المتحدة .

وكان التقدم فى البرنامج الاجتماعى يسير جنبا الى جنب مع التقدم الصناعى ، وأصبح عالم المكفوفين الخاص فى دور التكوين ، فأخذت الهيئات تهتم بحاجات المكفوفين فى جميع أدوار حياتهم. وكان يعبر عن هذا الاتجاه فى المعاملة بالقول : « خدمة من المهد الى اللحد » مع أن البعض كان يستخدم هذا التعبير فى مجال التندر .

وقل من يشك فى أن الصعوبة فى إيجاد عمل للمكفوفين هى انعكاس لما يشعر به المجتمع الذى يمول ويدير هذه الأعمال . على أن

هناك عاملا يتعلق بالطريقة التى بها انتشر مبدأ المصنع المحمى ، ويبين بكل وضوح أن جزءا من الصعوبة هو من صنع الهيئات نفسها . فبالرغم من المطالبة بإصدار تشريعات ومن إلقاء التصريحات التى تثبت أن السلع التى ينتجها المكفوفون فى مصانعهم تصمد فى مجال التنافس أمام مثيلاتها ، فإن هناك من يصر على أن إدارة هذه المصانع لا يجب أن تخضع لكثير من النظم المتبعة فى العمليات الصناعية الأخرى، وينكر على هذه المصانع قدرتها على التنافس . فمثلا فى أيام إدارة الانتعاش الوطنى اعترضت هيئات المكفوفين بشدة على السعى فى تسمية مصانع المكفوفين «منشئات صناعية» فقد كان هناك شعور، ربما بحق ، بان هذا المسعى كان المقصود منه الحد من قدرة المصانع على التنافس ، ولكن فى نفس الوقت غاب عن البال أنه إذا كان هذا صحيحاً ففيه اعتراف بقدر من النجاح وفرصة للتأكيد الصريح بأن المكفوفين ذوو نفع للمجتمع . وبدلا من ذلك اختارت الهيئات تعريفاً معقداً لمصانعها فوصفتها بأنها مشروعات خيرية . أما موقف مؤيدى المصانع الخاصة من الناحية التشريعية فهو أنهم جعلوا من أنفسهم هيئة لها مصلحة خاصة تطلب ميزات وتريد التحرر من المسؤليات فى نفس الوقت . وقد ترتب على هذا ، بعد عشر سنين ، موقف فى منتهى التعقد يصعب تحليله . إن المفروض فى المكفوفين أنهم يؤدون خدمة ولكنهم لا يقدرون على ذلك تماما ، وأن إنتاجهم ينافس غيره ولكن ليس بالمعنى الصحيح، ومحال شغلهم صناعية فى

طبيعتها ولكنها ليست كذلك ، الهيئات تدفع مكافئات ، ولكن المشتغلين ليسوا عمالا بل « زبائن » . وكان التوفيق بين كل هذه المتناقضات غريباً حقا . ولم يثر المشرعون أو أصحاب الأعمال إلا قيلا من التساؤل لأن مصلحة المكفوفين لها اعتبارها الخاص ولأن أى اعتراض يبدو كأنما هو اعتراض على توفير العمل للمكفوفين. والأمر الوحيد الواضح فى كل هذا هو أنه ،مهما كانت محاسن فكرة المصنع المحمى أو مساوئها فإنها كانت لها الفرصة لإثبات ما لدى المكفوفين من إمكانيات لخدمة المجتمع ولكنها لم تنتهز هذه الفرصة . ولا يبدو مفهوما أن فشلها فى انتهاز هذه الفرصة قد يضر بما لمصانع المكفوفين من فرص للنجاح . وإذا فشلت فكرة هذه المصانع فسيقال كما قيل فيما مضى إن المجتمع لن يقبل أن يشغل المكفوفين تحت أية شروط .

ومنذ انتهاء الحرب وجد المسئولون عن المصانع الخاصة أنهم ، مهما كان الوضع الذى يسعون أن تكون فيه المصانع بحيث يتخلصون من مطالب القانون المكتوب الذى يطبق على غيرهم ، فلا مهرب لهم من القوانين غير المدونة . فمثلا بعض المصانع تنتج سلعاً أكثر من الطلب فكان لابد من مواجهة مشكلة الزيادة فى الإنتاج . ولأن الأساس الذي بنى عليه مبدأ المصنع الخاص هو تأمين المشتغلين كان لابد من اللجوء إلى الهيئات المسئولة لتمدها بالمعونة اللازمة .

وهذا جعل خصوم فكرة التوسع فى هذه المصانع يثيرون مسألة

القيمة الحقيقية للخدمة التي تؤديها للمجتمع . وقصارى القول إنه اتضح لهذه المصانع أنها لا تستطيع أن تتجنب قانون العرض والطلب بالنسبة للمكفوفين ، وأنها تشاطر الصناعة الأمريكية شيئاً مشتركا وهو الحاجة إلى الرخاء فهو وحده فيه التأمين الكافي للمكفوفين وغيرهم .

التوسع والميدان المتضائل

إن السبب الذي كان يتخذ عادة لتبرير الانحراف عن الغرض داخل النظام نفسه الذي تمثل في نمو المصانع الخاصة ، هو أن أيام الكساد أظهرت أن قدرة المكفوفين على الاندماج بغيرهم ومنافستهم ميئوس منها . ويبدو أن السنوات التي تلت ١٩٢٩ أثبتت لهم من هذه الناحية أن التعبير عن المشكلة بهذه الصورة قد يجعلها تبدو أبسط كثيراً مما هي في الواقع إذ أن هناك عوامل يجب أن ألا نغفلها في الحساب ، فقد اتسع العمل في مدى السنوات الخمس والأربعين الماضية ، ولكن الميدان أخذ يضيق شيئاً فشيئاً .فقد تضاعفت الجهود لحماية الناس من كف البصر بنسبة أعظم من العمل بين المكفوفين أنفسهم . وإذا قدر للأمرين النجاح فلابد من حدوث تصادم بينهما في النهاية .

ومع أن العدد الكلي للمكفوفين يزداد في الولايات المتحدة الأمريكية فإن هذه الزيادة أقل نسبياً من الزيادة في عدد السكان

على أنه من الصعب الحصول على العدد الحقيقى للمكفوفين مع ماهو معروف عن مكاتب التعداد من الدقة والأمانة بسبب عدم وضوح الفرق قانونياً بين العمى والنقص البصرى . ويبدو أن أقرب رقم للعددالصحيح لمن يمكن وصفهم بالمكفوفين هو ٣٠٠٫٠٠٠ . إلاأنه إذا كان هناك شك فى العددالإجمالى فليس هناك شك فى التغيرالحادث فى نسب المكفوفين بين الكبار والصغار . فنسبة المكفوفين بين الصغار والأقوياء جسميا تقل . ففى المدارس التى يحتفظ بعضها بسجلات لمدة قرن أو أكثر يظهر بوضوح أن عدد المكفوفين بين الأطفال فى تناقص . فوسائل الوقاية من الرمد وغيره من أسباب العمى عند الولادة تؤتى ثمارها ، وكذا الوقاية ضد حوادث العمل وانتشار الخدمة الطبية . ولولا تأثير عامل كبر السن لأمكن القول إنه ليس هناك زيادة فى عدد من يفقدون البصر وهم كبار . لقد عرف الأمريكيون كيف يطيلون الحياة ولكنهم لم يعرفوا بعد كيف يوقفون عوامل الضعف إذا طالت الحياة . فالبصر من الحواس الأولى التى يعتريها الضعف ، وقل أن تجد معمراً لايشكو ضعفاً فى بصره .

قد يبدو لأول وهلة أن ميدان العمل يتسع بدلا من أن يضيق . فإذا كان الأشخاص الذين يلجئون إلى جمعيات المكفوفين يقل بينهم تدريجاً من يمكنهم الاعتماد على أنفسهم وتقع مسئوليتهم كاملة عليها ،

فى هذه الحالة يظهر أن الجميعات يجب أن يزداد عملها ليتناسب مع الحاجة . فالمكفوف البالغ من العمر خمسا وعشرين سنة والذى له قدرة على بدء الحياة من جديد لا يحتاج إلى العون إلا فى الفترة القصيرة التى تلى فقدانه للبصر . أما الشخص البالغ من العمر الستين فحاجته إلى المعونة مستمرة . وعلى أساس هذه الاعتبارات الواضحة برزت الهيئات زيادة خدمتها للمكفوفين بالنسبة العددية . إلا أن النتيجة الصحيحة يمكن الوصول إليها بعد دراسة أعمق للأرقام .

إن المكفوفين المسنين لا يعيشون طويلا كالصغار ، والأولون قد يحتاجون إلى خدمة مستمرة من الجميعات من وقت فقدان البصر ، ولكن لمدة قد لا تطول . وبسبب عامل كبر السن فإن عدد المقيدين فى السجلات يقل بنسبة أكبر كل سنة ، وخاصة لأن عدد من يصابون بالعمى من صغار السن يقل أيضاً سنة بعد سنة .

وبسبب هذه الاعتبارات قد يكون عدد المكفوفين فى ازدياد أكثر مما يبدو ، ولكن مجال العمل يضيق شيئاً فشيئاً فى هذا الميدان ، ذلك لأن المكفوف الصغير يمثل، من الوجهة النظرية على الأقل، الجزء الذى يحتاج إلى اهتمام طول الحياة ، وأما المتوسط أو المتقدم فى السن فيحتاج إلى عناية لعدد أقل من السنين .

على أن رجلا مثل بركنز جبريل فارل Perkins' Gabriel Farrell

كان يرى الأمر بوضوح عندما قال فى سنة ١٩٣٩ وهو يخاطب مجلس الهيئات العاملة فى نيويورك : سيجيء الوقت الذى فيه يجد من برامجنا ، وثقى ألا يؤثر هذا على مجهودنا . فإننا نقوم بلعبة خاسرة ، وكثير من تنظيمنا يجب أن يتجه نحو التصفية بالتدريج .

ويندر أن نجد مثل هذا الإقرار الصريح ، لأن نظام العمل مشبع بفكرة قوية عن التوسع من ناحية المبانى والموظفين والميزانية . فالتعود على مشاهدة النجاح والتقدم يصبح راسخاً فى الميدان الاجتماعي كما هو الحال فى ميدان الأعمال . وكأى عمل آخر متأثر من الناحية الأخرى بانتظار تضييق دائرة الميدان ، اتجه العمل بين المكفوفين إلى التحسن الكثير . ولذلك حصل المكفوفون على خدمة أحسن لأن عدد المستجدين يقل شيئاً فشيئاً من ناحية النوع ، إن لم يكن من ناحية العدد أيضاً . وقد دعا هذا إلى زيادة أنواع النشاط التى يمكن للمكفوفين أن يشتركوا فيها تحت إشراف الهيئات التابعين لها ، الأمر الذى أدى إلى انتفاع المكفوفين بالبرامج بدرجة أكبر . والمكفوفون الذين كان اتصالهم بهيئاتهم قليلا شجعوا على أن يترددوا عليها أكثر .

وترتب على هذا الوضع تغير فى القيم . فبينما كان روح الاستقلال ورفض المعونة الاجتماعية الخاصة من بين الصفات الممدوحة فى الكفيف ومن أوضح الأدلة على نجاح لنظام العمل ، عمدت الهيئات إلى أن تبث

فى نفس المكفوفين مزيجاً من الاستقلال والتواكل يصعب تعريفه . على أن المثل القديمة لم يمكن تركها بين عشية وضحاها ، أو على الأقل قبل إظهار المشكلات الجديدة التى كانت تتكون بشكل واضح . فالمثل لها قوتها الدافعة . وكل هذه العوامل تظهر فى عجز نظام العمل حالياً عن تحديد الآراء الخاصة بموضوع التكيف ومقاومته لتوضيح هذه الآراء . وهذا يدفع كل من المكفوفين والعاملين بينهم إلى النظر إلى التكيف الملائم الحسن من زوايا مختلفة .

على أن هذا الاضطراب الفكرى يظهر أيضاً فى أمور أخرى مثل فشل الهيئات العام فى تطبيق ما يعتبر عادة فى الميادين الخيرية الأخرى مقياساً للنجاح ، على ما يسمى « الحالات المقفلة » . فعندما يتقدم المكفوف إلى إحدى الهيئات ويطلب أن يتعلم طريقة « برايل » يصبح حالة لها سجلها الخاص وبالتالى يعتبر حالة اجتماعية مستديمة عن طريق غير مباشر .

وقد لا نكون فى حاجة إلى زيادة فى توضيح عدم ميل هذه الهيئات إلى قبول نظريات جديدة والتأثر بها الآن ، إلا أن هناك أمراً آخر وثيق الصلة بهذه النقطة لم نذكره حتى الآن وهو رفض استخدام الكلاب لقيادة المكفوفين ، ومع أن هذا الرفض قد يدهش له كثيرون ممن يعملون فى هذا الميدان ، فإنه الواقع الذى

لامرية فيه . فقد لاقت مدارس تدريب كلاب الإرشاد صعوبة غير عادية فى توصيل المعلومات اللازمة لنصحاء المكفوفين ليتمكنوا من إسداء النصح لهم فيما إذا كان من الخير للفرد أن يستعين بالكلب أم لا لدرجة أن ثمن الكلب وهو أمر بسيط فى حد ذاته لم يكن معروفاً إذ رفعه بعضهم إلى خمسة أضعاف ثمنه الحقيقى بالرغم من السعى المتواصل من جانب المدارس فى تصحيح هذا الرقم . وليست المدارس الخاصة بتدريب الكلاب من الكثرة بحيث تخلق هذه الصعوبة ، ومن المؤكد أن إلمام المرشد بالمعلومات الدقيقة عن نفع الكلاب أوضرها للمكفوف جزء هام من إعداده لعمله . فهناك من يزعم أن الكلب يعمل على زيادة التواكل ، أو أن الشخص الذى يستعين بالكلب قد يصل إلى الحد الذى فيه لا يستطيع الاستغناء عنه . وقد صادف هذا الزعم قبولا عند الموظفين فى مستشفيات قدامى المحاربين . وهناك أمثلة كثيرة على أن من بينهم من نصحوا بعدم الاستعانة بالكلاب .

وفكرة التوسع التى نتحدث عنها هنا لم تأت من أناس يطمحون إلى القوة أو النفوذ فالنظام يجب أن يكون وليد ظروفه ، وفكرة التوسع هى فى لغة هذا العصر علامة الجهد الناجح . والجمهور الذى يمول هذه الحركة ويديرها قد وجد فى حل المشكلة التى أثارها ضيق ميدان العمل سببا للموافقة لأنه رأى فيها حلا لتنازعه الخاص حول

مسألة المكفوفين . والمحتجون وجدوا أنفسهم فى مأزق لأنهم ظهروا ، وأيد ذلك تصريحاتهم ، لا بمظهر قصار النظر ، بل كأن لا قلب لهم ولا يهمهم من أمر المكفوفين شىء .

المكفوفون يكونون جماعات

على أن هناك بعض المعلومات يمكن إضافتها إلى الصورة . إن المشتغلين بين المكفوفين لا يرضون عن الجماعات التى يكونها المكفوفون اختياراً . فالمكفوفون كانوا ولا يزالون يسعون إلى صحبة بعضهم البعض فيلتقون فى منزل أحدهم ويقيمون حفلات سمر وينشئون الأندية ، وتطيح الظروف ببعض جمعياتهم ولكن الاتصال يبقى فيما بينهم . وجمعية قدامى المكفوفين أعظم تلك الجمعيات تجانساً وترابطاً . وهناك ما يدل على أن أعضاءها مشبعون بروح الترابط الصحيح .

إلا أن الهيئات العاملة بينهم تحول دون تكوين هذه المجموعات ، إذ أن الفكرة فيها ، حسب الاعتقاد السائد ضارة من الناحية النفسية ، فالمفروض أن المكفوفين يختلطون بالمبصرين لا ببعضهم البعض . وفضلا عن ذلك يجب أن يمنع تزاوجهم . وإن كانت هذه الهيئات تشجع تكوين هذه المجموعات حتى إذا اشتملت على الجنسين ، ولا حاجة بنا إلى القول إنه بالنظر إلى الخدمات التى تقدمها هذه الهيئات فى المدن يشجع تكوين هذه المجموعات تحت إشراف ملائم حيث تقدم الروايات

وحفلات الغناء للمكفوفين فقط . وليس من الواضح إطلاقا لماذا تعتبر المجموعات التى لا إشراف عليها ضارة سيكلوجيا بينما تلك التى تشرف عليها الهيئات لا ضرر فيها ألبتة . وقد يكون من الهراء أن يفترض أن تكوين مجموعات من المكفوفين سواء أكانت بإشراف أو بغير إشراف يحمل معه نوعاً من الضرر قد يكون سيكلوجيا . فى الوقع أن الشخص الذى فقد البصر حديثاً قد ترتفع حالته النفسية إذا ما انضم إلى مجموعة أغلبها من المكفوفين لأنه عن طريق اتصاله بالمكفوفين المختبرين يفهم الموقف الاجتماعى الذى يجب عليه أن يجابهه طوال أيام الحياة كما يقدر بحق الإلهام الذى يأتيه عن هذا الاتصال ويكون فى الغالب المشجع الوحيد له على الجهد والكفاح .

أما الحق الصراح الذى يؤيده التاريخ فهو أن تكوين هذه الجماعات من المكفوفين هو ما أثار نقداً صريحاً ، وإن يكن من الصعب جداً على العالم المبصر أن ينقد هذا النظام لأنه وجد لخدمة المكفوفين الذين وجهوا نقداً شديداً إليه بعد أن نظموا .

ويتكون الآن (فى أثناء كتابة الكتاب) اتحاد عام للمكفوفين فى كل أنحاء البلاد بقيادة بعض المكفوفين العالمين المشهورين بالصراحة . والتاريخ وحده يستطيع أن يبين السبب فى إنشاء هذا الاتحاد ، إلا أن كثيرين من مديرى الهيئات التى تعمل بين المكفوفين يبدون مخاوفهم من إنشاء الاتحاد .

إن الأفراد يخشون خطر توجيه النقد . وبعض المكفوفين (والمؤلفة واحدة منهم) قيل لهم إنهم إذا أصروا على الاستمرار فى النقدفهناك احتمال ألا يحصلوا على العون الذى قد يحتاجون إليه يوماً ما . وفى المناسبات التى تقيمهاالهيئات ينتدب لها كثيرون ممن هم مدينون من الوجهة المادية إليها فتجعلهم يشعرون أنهم إذا لم يعملوا على انجاح أمثال هذه الحفلات فقد يجيء الوقت الذى يصعب فيه حصولهم على التعضيد المادى الذى يلقونه . إلا أنه يمكن القول بوجه عام إن المكفوفين يلقون ترحيباً من الهيئات وتسهيلا فى الاتصال بها . فأحد المصالح الخاصة بهم ينظم حفلات موسيقية من النوع الذى يسمع فى البارات بدلا من العظات الدينية ويقابل فيها المكفوفون بعبارات الترحيب الودى . وليس هناك شك فى أنه خير لحديث العهد بفقد البصر أن يرسل إلى إحدى هيئات المكفوفين الحسنة حيث يمكنه أن يلتقي دروساً فى الكتابة والقراءة ويتعلم طريقة استخدام المكتبات ، والكتابة على الآلة الكاتبة ، ويتدرب على مهنة خاصة . وفى أثناء ذلك يمكن للشخص المسئول عنه أن يقنعه بطريقة محسوسة أن يحاول بعد انتهائه من التدريب أن يجد عملا ليعتمد على نفسه بعد ذلك .

المكفوفون والنظام

إذا راعينا عدم التجانس بين المكفوفين واختلافهم فى درجة اتصالهم بالنظام الذى يعيشون فى ظله وتعدد الأشخاص الذين يعملون بينهم يصبح من الحماقة محاولة إجمال شعور المكفوفين نحو كل هذا .

ولكن مهما قيل فلن يكون أقل دقة مما يقال عادة بشىء من الرضاء النفسى من أن المكفوفين يجب أن يشكروا الله لأنهم يعيشون فى ظل نظام ما . فهناك كثيرون ممن يشعرون بالامتنان لأجل الدروس التى يتعلمونها والنصائح التى تقدم لهم والأصدقاء الذين صادفوهم وبرامج الترفيه التى استمتعوا بهـا . ولكن هؤلاء يثورون عندما يطلب منهم الاشتراك فى خـدمة اجتماعية أو يشعرون بأن من واجبهم حضور الحفلات الخاصة بهذه الخدمة .

إن محاولة تنظيم المكفوفين فى أعمـال الهيئات تولد فى نفوسهم مشاعر غـير ودية . فالمكفوف الذى يشعر أنه مرتبط ماديا بهيئة ما وأنه مجبر على أن يحضر برامجها الاجتماعية ، إنما يقبل هذا فى الظاهر فقط بغير دافع من شعوره الداخلى ، مع أن كثيرين منهم لا يستطيعون أن يخفوا شعورهم الحقيقى . والعبارات التى يتفوه بها كثيرون من المكفوفين تدل على أنهم يشعرون أنه يكفيهم أن يوافقوا موافقة

ظاهرية على مايطلبه المبصرون من غير أن يضطروا إلى البقاء فى جو مفروض فيه ومقصود منه أن يكون مدعاة إلى راحتهم وطمأنينتهم.

ويبدو أن بعض المشتغلين بين المكفوفين يستنتجون أن وجودهم كمشرفين عليهم هو الذى يسبب ما يصفونه حقاً « بالتوتر » فى كل مجموعات المكفوفين . وكثيراً ما يواجه البعض هذا الشعور بالتوتر حتى إنهم حكموا على كل المكفوفين بحاجتهم إلى عناية المحللين النفسيين .

على أن العنصر المشاغب بين المكفوفين المضطرين إلى التردد بانتظام على مقار الهيئات والمؤسسات هو عنصر التلاميذ ، وقد يبدو غريباً أن الذين يفقدون البصر وهم كبار يندمجون فى نظام هيئة بصعوبة أقل .

وقد لا يكون هناك مايدعو إلى الغرابة لأن الذين يفقدون بصرهم وهم كبار يأتون من عالم المبصرين الذين يكنون كل احترام وتقدير لهذه الهيئات ويضعونها فوق مستوى النقد لأنها تعمل لخير المكفوفين . وعلى العاملين بين المكفوفين الذين يظنون أن التلاميذ المكفوفين هم أقلهم توفيقاً فى بيئتهم أن يذكروا أن المدارس الجيدة ذات السمعة الحسنة تعلم فيما تعمل الهيئات أحياناً على النقيض منها . فالثورة على التسول الاختيارى الذى يقوم به المكفوفون فى الهيئات تتولد فى نفوس التلاميذ المكفوفين فى المداراس .

وتواجه الهيئات مشكلات كثيرة فى علاقاتها ببعض المترددين عليها ممن ربوا على الاعتقاد بأنهم يستطيعون الاستقلال رغم ما بهم من نقص جسمى . وصرح مدير إحـدى الهيئات وهو يتأوه بالقول : وليس هناك شك فى أن كثيراً من اللوم بسبب الفشل الذى يعانيه المكفوف يقع على الهيئات .

فى سنة ١٩٤٨ عقدت إحـدى الهيئات فى مدينة كبرى حلقات لبحث جميع مشكلات المكفوفين.وكان نواة هذه الحلقات نحو سبعين مكفوفاً ينتمون إلى هذه الهيئة . وكان على هؤلاء أن يدعوا المتكلمين فى هذه الحلقات ويديروا النقاش فيها . وقد قيل لهم إن لهم مطلق الحرية فى الإعراب عن آرائهم بصراحة . فلما لم يصدقوا ذلك فى بادىء الأمر ظلت الاجتماعات جامدة تشوبها الرسميات.ولـكنها فى آخر الأمر تغير جوها فسرت الحياة فى المناقشات وقدمت أسئلة لم يكن من السهل تقديمها قبل فى مقر الهيئة . وانتهزت الهيئة الفرصة للتنفس عما يضيق به صدرها من ألم ، وكان من نتيجة ذلك أن خف التوتر فى كثـير من أقسامها .

المكفوفون والعاملون بينهم

إن الهيئات التى تختص بالعمل بين المكفوفين تطلب فى تصريحاتها

العلنية أن ينظر إلى المكفوفين كأفراد لا كمجموعة . وعند ما أشار إليهم أحد الكتاب في حديث عنهم كمجموعة صدر احتجاج جاء فيه أن المكفوفين ما هم إلا أناس لهم اختلافاتهم الفردية كغيرهم. وختم الاحتجاج بالقول : لو أمكن للكاتب أن يحضر حفلتنا الموسيقية هذا المساء ليرى مقدار نبوغ المكفوفين فى العزف . . . .

ومن أحاديثنا مع كثيرين من العاملين بين المكفوفين وجدنا فيهم من يجمعون على اعتبار المكفوفين مجموعة لها جسد مشترك له خواص جسمية وعقلية واحدة .

ومن المحتمل أنه لو أمكن أخذ أصوات جميع المشتغلين بين المكفوفين عن مقدار إيمانهم بإمكان اندماج المكفوفين فى الهيئة الاجتماعية لكانت النتيجة مخيبة للامال ، ولكان هناك اتجاه وحيد فى الرأى وهو أن جمعيات المكفوفين تسد مسد الاندماج المنشود.. وإننا كثيراً ما نسمع عبارات تدل على هذا الاتجاه فى التفكير ، كأن يقال مثلا إنك فى الواقع لا تستطيع أن تفعل شيئاً لأجل المكفوفين» أو «إن جمعيات المكفوفين تخدع الناس» أو «لا فائدة من بذل الجهود سعياً وراء إيجاد عمل لهم يتنافسون فيه مع المبصرين.» وغير ذلك .

حدث نزاع بين إحدى الجمعيات الشهيرة والمكفوفين بها وصلت أخباره إلى الصحف . وكان سبب النزاع مطالبة بعض المكفوفين المشتغلين بأجور بأن يعتبروا أعضاء فى اتحاد العمال حيث إنهم موظفون

ولما أحاط مخبرو الصحف بمدير الجمعية وألحوا فى استطلاع رأيه أجاب بشىء من التهكم قائلا : إن كل مكفوف يعمل ، فى حاجة إلى مبصر يقف بجواره . وقد أثارت هذه الإجابة غضب كثيرين من المكفوفين الذين كانوا يؤدون عملهم بكل كفاية دون حاجة إلى مبصرين يقفون بجوارهم .

ومنذ عدة سنين قام أحد المربين بتجربة أراد منها الوقوف على مقدار تأثير فقدان البصر على الكفيف فى عمله . فعصب عينى عامل يؤدى عمله بيديه وأخذ يدرس النتائج التى حصل عليها . إن هذه التجربة لا تمثل الحقيقة لأن عصب عينى المبصر يختلف اختلافاً كلياً من الناحيتين الجسمية والنفسية عن حال كفيف نظمت حياته جيداً على أساس النقص الذى فيه .

وأراد شخص آخر مشهور يعمل بين المكفوفين أن يبين فى كتاب له كيف يكون شعور الإنسان إذا فقد بصره فاقترح على القارئ أن يتصور أنه بلا بصر وبغتة أخذ ووضع على طريق يمر بين الغابات اعتاد السير فيه وهو مبصر .

هذا اقتراح يدعو إلى الفشل ، مع أنه صادر عن ثقة له مكانته . لأننا نجده على حد قول روبرتا تاونسند (Roberta Townsend) فى جمعيات المكفوفين : إن اللامعين والمبرزين ، والموفقين كل التوفيق فى بيئتهم لا يكونون إلا الأقلية ، والعون المنشود يجب أن يبذل أولا

وقبل كل شيء للذين لم يستطيعوا شق طريقهم بأنفسهم . على أن البراج عرضة لأن تتفق مع حاجة المجموع بغض النظر عن الأقلية فتصبح لدينا صورة عزل بالجملة من ناحية الكم لا النوع . والموظفون يميلون إلى التعميم على أساس ملاحظاتهم وكثيرون منهم قلما يعيرون المكفوفين الأقوياء بدنياً أى التفات . وعدم التدريب العملى الشائع فى محيطهم يؤيد هذا ويؤكد صحة آرائهم الشخصية . وبما أن المسنين من المكفوفين يظلون يكونون الاغلبية بين الذين تقوم الهيئة بإعالتهم تصبح الآراء الخاصة بإمكانيات المكفوفين وقدراتهم أدعى إلى التشاؤم . ومن سوء الحظ أن كل هذا يعنى أن المتشائمين يتزايد عددهم فى الاجتماعات والمؤتمرات حتى يصبحوا أغلبية ، وكان هؤلاء هم الذين أيدوا الاقتراح الخاص بتشغيل المكفوفين فى مصانع منعزلة خاصة بهم .

لقد قابلنا إحدى العاملات وقد قضت عشرين سنة تعمل فى قسم واحد فى إحدى الجمعيات بين جماعة من المكفوفين المضطربين غير الموفقين . كانت هذه العاملة بحكم عملها هذا تعتقد أن كل المكفوفين على هذه الشاكلة . وعلى النقيض من ذلك قابلنا شابة تعلم استعمال آلة « الدكتافون » لبعض البنات الصغيرات الطموحات . كان اعتقاد هذه العاملة أن المكفوفين فى استطاعتهم القيام بأى عمل .

مؤثرات جديدة حيوية

هناك قوى تعمل داخل لطاق ميدان العمل وخارجه لتعيد إلى العاملين بين المكفوفين إدراكهم لغرضهم الأساسى الذى يسعون إليه وتمييزهم تمييزاً واضحاً بين ما يصلح وما لا يصلح .

وأى كلام مصوغ فى قالب مرض يقال فى هذه الأيام التى كثر فيها الجدل حول ما يمكن للحكومة الفدرالية أن تعمله فى الميدان الاجتماعى ـ أى كلام من هذا القبيل يبدو أنه يتجه اتجاهاً سياسياً . إلا أننا فيما نقوله لا نهتم بما فيه من دلالة سياسية إذا اقتنعت أية جهة من الجهات ، بأننا نعرض الحقائق مجردة .

وقد يكون من المفيد أن نستعرض فى إيجاز ناحية من نواحى العمل بين المكفوفين لم ينجح فيها لا المجهود التطوعى ولا المجهود الحكومى فى الولاية ، بل توقف النجاح فيها على تدخل الحكومة الفدرالية . هذه الناحية هى المتعلقة بتوفير المؤلفات والكتب لأجل المكفوفين ، وحتى هذه كان النجاح فيها ظاهرياً فقط .

فوشنطن ، أو بالأحرى الحكومة المركزية ، لم يكن لها يد تذكر فى العمل لخير العميان حتى سنة ١٩٣٠ إلا القرار الذى صدر سنة ١٨٧٩ لتوفير المال اللازم لطبع كتب بالحروف البارزة ، وظل إنتاج هذه الكتب تحت إشراف المدارس وجهات البر الخاصة .

وكان للهيئات الدينية تأثير قوى كما أنه كان هناك اعتقاد راسخ في بعض الأوساط أن الكتب الخاصة بالمكفوفين يجب أن يكون معظمها دينياً . وكل من وصل إلى السنة الثانية حسب طريقة برايل يعرف عن طريق الكلمات المنتقاة أن من أول أغراض واضعى هذه الطريقة فى بريطانيا تسهيل قراءة الكتاب المقدس . ولما عرف أن المكفوفين لم يكن لديهم كتب كافية للقراءة تكونت جماعات من مذاهب مختلفة وأخرجت كل منها كتباً تحاول فيها جذب المكفوفين إلى مذهبها الخاص .

على أن بعض بيوت النشر الشهيرة، مثل المطبعة الأمريكية لأجل العميان ومطبعة هاو التذكارية ، أنتج مؤلفات ومطبوعات عن التربية . هذا بالإضافة إلى ما أنتجته الهيئات الخاصة . وبالرغم من هذه المجهودات التى دامت قرنا كاملا صدر تصريح فى الكونجرس الأمريكى عام ١٩٣١ بأنه لم يكن فى كل الولايات المتحدة إلا خمس عشرة مكتبة لأجل العميان يبرر العمل فيها تعيين أمين مكتبة يعمل كل الوقت ، وهذه المكتبات كانت مركزة فى جزء واحد من البلاد ، وكان بها أقل من ١٥٠٫٠٠٠ مجلد ، وهذا الرقم أقل مما يوجد فى مكتبة واحدة مثل مكتبة سياتل (Seattle) العامة وحدها . وكان كثير من هذه الكتب فى حالة يتعذر معها على المكفوف أن يميز النقط بعضها عن

بعض بأصابعه ، والمكفوفون الساكنون فى الأجزاء النائية كانت طريقة برايل بالنسبة لهم خرافة .

على أنه كان من الممكن استخدام الحاكي (الفونوغراف) فى إفادة المكفوفين وتوسيع إطلاعهم ، إلا أن الهيئات الخاصة لم تستطع أو لم ترد تمويل مثل هذا المشروع ، مع أنه كان يمكن الحصول على ربح بسيط منه . ولكن قيض الله من استطاع أن ينشر طريقة الكتاب الناطق فى شخص إرون Irwin الذى كان يعمل فى المؤسسة الأمريكية .

وكان من نتيجة التصريح الذى ألقى فى الكونجرس عام ١٩٣١ أن أنشىء قسم خاص بالمكفوفين فى مكتبة الكونجرس نفسها ووضعت ميزانية خاصة لإنتاج الكتب والمؤلفات تحت إشراف لجنة من الكونجرس .

وكان من أثر هذه الخطوة أن أصبح للمكفوفين خمس وعشرون مكتبة فى أماكن هامة مختلفة فى الولايات المتحدة والممتلكات التابعة لها ، ووزع نحو ٧٫٠٠٠ كتاب ، وأنشىء جهاز لاختيار الكتب وطبعها بما فى ذلك الكتب الناطقة ، وتألف مجلس ترسل إليه قوائم بالكتب المقترحة يختار منها ما يراه مؤديا للغرض من الكتب القديمة والحديثة .

وقد أصبحت الكتب الآن فى متناول المكفوفين المقيمين فى أجزاء نائية ، إذ اتبع نظام ترسل به الكتب إليهم عن طريق البريد

مجانا . والواقع أن كل كفيف فى الولايات المتحدة اليوم لديه آلة الكتاب الناطق سواء أكان يجيد القراءة بطريقته الخاصة أم لا .

وقد كان لظهور مكتبة الكونجرس فى الميدان أثر نافع من حيث تنظيم العمل بعد أن كان متروكاً فى أيدى جماعات المتطوعين للصدفة العارضة . فالتلميذ الكفيف يمكنه الحصول على أى كتاب يحتاج إليه مهما كان نادراً .

ويمكن القول إجمالا عن حالة المكفوفين فى الولايات المتحدة أنه لا يوجد كفيف واحد ملم بالخدمات المتنوعة التى فى متناول المكفوفين يعوزه الحافز الثقافى الذى يحصل عليه من الكتب التى يحتاج إليها لأى نوع يختاره من أنواع الثقافة الخاصة . هذا مع عدم الاستغناء عن أى من المجهودات التى تقوم بها الهيئات الخاصة ، فكل من يتصفح دليل الخدمات الذى تصدره الجمعية الأمريكية يرى قائمة طويلة لأسماء الهيئات الكثيرة التى تخرج كتباً للعميان فى مختلف المذاهب الدينية . وعلاوة على ذلك توجد مدارس يدرس فيها المكفوفون بالمراسلة .

ومع كل هذا يمكن القول إن موظفى الحكومة الفدرالية الذين نجحوا فى معالجة المشكلة لم يكونوا أكثر إدراكاً للمسئولية ممن سبقوهم . فالواقع أن النجاح لم يحققه إلا التعاون بين الإداريين المسئولين

عن نظام العمل بين المكفوفين الذين كانوا يذكرون سبب فشل المجهودات السابقة . وكما أن رفع المسئولية إلى المستوى الحكومى فى الولاية منذ سنين وسع دائرة تنظيم العمل ، كذلك كان العامل الأساسى فى النجاح الأخير رفع المسئولية إلى مستوى الحكومة المركزية .

فى سنة ١٩٤٣ أدخل تعديل على قـــرار باردن لا فوليت Barden la Follette الذى لم يؤد إلى الغرض المنشود بسبب التقصير فى تطبيقه . وكان من أثر هذا التعديل أن تكون مكتب التأهيل المهنى ضمن نطاق قسم الضمان الفدرالى . واقترح هذا التعديل مواجهة مشكلة العجز الجسمى فى كل البلاد . وعلى هذا المكتب الجديد أن يقدم الإرشاد والعون المادى للأفراد الذين يستحقونه ومن بينهم المكفوفون . وأن يعمل عن طريق الهيئات الخاصة والعامة فى مختلف الولايات .

وكل مراكز التدريب الخاصة بالمدنيين المكفوفين جاءت نتيجة مجهود مكتب التأهيل المهنى . ومع أن النظرية التى تسير عليها هذه المراكز تأثرت قطعاً بالعمل لتأهيل قدامى المحاربين الذين فقدوا البصر وأنها تعمل حالياً تحت حماية الهيئات الخاصة والعامة ، فإنها لم تم داخل النظام العام بأى حال ، وهذا النظام لم يتأثر بها إلا فى الجهات الموجودة بها المراكز التى لم تلفت الأنظار إليها كثيراً . على

أن مكتب التأهيل المهنى ينشر المعلومات عن طريق الصحف والنبذ الصغيرة ، كما حاول أن ينبه الأذهان إلى إعادة تدريب المكفوفين حديثاً فأفلح فى إقامة مؤتمر متشجان الذى ترتب عليه تنظيم مجلس علماء النفس . وكان من الأسباب الداعية إلى عقد مؤتمر متشجان حاجة موظفى مكتب التأهيل إلى معلومات عن المسئولية الملقاة عليهم . وكتب أحدهم مقالا فى إحدى المجلات يؤكد الحاجة إلى برنامج وطنى للأبحاث فأيدته فى مطلبه هذا هيئات مختلفة منها لجنة الرمد المتفرعة عن قسم العلوم الطبية التابع لمجلس الأبحاث الوطنى . ولم يبق على تنفيذ هذه الفكرة إلا موافقة الكونجرس .

إلا أن مدارس الأطفال المكفوفين ظلت متمسكة بأغراض مؤسسيها الأصلية أكثر من أقسام البالغين منهم ، فالفكرة الأساسية التى يقوم عليها التعليم فى هذه المدارس هى أن التلميذ يلزمه يوماً ما أن يعيش فى المجتمع وأن يخدمه . ولم يكن من السهل عليها أن تغير أساليبها أو تنسى أغراضها التى تشبعت بها . وكان هاو (Howe) يكره المدارس الداخلية للمكفوفين لأنها لا تصلح بديلا عن البيئة المنزلية ولأن التلميذ معرض لأن يعتاد حياة نظام معين حتى بعد أن يغادر المدرسة . ومنذ سنة ١٩١٤ والنقاش دائر حول إمكانية تعليم المكفوفين فى مدارس عامة ووضعهم فى فصول خاصة عند الضرورة

القصوى فقط . إلا أن بعض الولايات مثل نيوجرسى (New Gersey) طبقت هذا المبدأ ، وهناك الآن مايدل على أن الأطفال الذين يتعلمون هكذا أقدر على تكييف أنفسهم فى عالم المبصرين من زملائهم فى المدارس الداخلية . وقد أحدث هذا ارتباكا لأن المدارس الداخلية يجب أن تستمر لأجل أولئك الذين يقعون تحت تأثيرات سيئة قبل إلحاقهم بالمدارس . وإرغامهم ، وهم فى هذه الحالة ، على الدخول فى مدارس عامة لن يكون من ورائه إلا الفشل . إلا أن المربين قد توصلوا إلى حل عن طريق مشروع أوريجون (Oregon) . ويقول لوينفيلد (Lowenfeled) فى وصف هذا المشروع ما يأتى : (١) كل طفل قادر على متابعة التعلم فى مدارس عامة يجب ألا يعزل عن إخوانه المبصرين. (٢) إن المدارس الداخلية مهمتها أن تهيء الطفل للتعليم العام ولا يجب أن يبقى الطفل فيها أكثر مما ينبغى . وقد طرأ تغير أساسى على نظام المدارس الداخلية ، روعى فيه هذا المشروع الذى لايحتاج إلى أى تعقيب من جانبنا .

النظام الأمثل

إن حلم وينيفرد هولت (Winifred Holt) الذى ولد الحياة فى القسم التطوعى للعمل بين المكفوفين البالغين كان ينطوى على فكرة إيجاد عالم أو بيئة خاصة يقول البعض إن المكفوفين أنفسهم رغبوا فيها.

إلا أن هـــذا العنصر ، فى رأى البعض ، كان نقطة الضعف المميتة التى أدت من البداية إلى نسيان العنصر الثانى فى الحلم ألا وهو أن المكفوفين يجب أن يعملوا فى المجتمع . إلا أنه قد يكون هناك بعض العيوب التى تذهب إلى أبعد من هذا وهى كائنة فى تفكير البعض تتلخص فى أن النظام الذى أنشىء اشتمل على أقدم مبدأ قام على فكرة أن المكفوفين فئة خاصة يجب أن تعزل حتى عند محاولة إدماجها بالمجتمع .

فلنفرض ، وليس هذا بعيد الاحتمال ، أنه كما ارتفع العمل بين المكفوفين إلى المستوى الحكومى فى الولاية ، سيأتى اليوم الذى فيه يرتفع إلى مستوى الحكومة الفدرالية فمن يضمن أن نفس القوى التى عملت على إفساد الغرض الأساسى من النظام الحالى لن تتسرب إلى النظام فى مستواه الأعلى وتفسده؟ . وإذا حدث أن العمل فى الحالة الثانية انحرف عن غرضه الأصلى فبأى قوة يمكن إعادته إلى ما كان عليه؟ . فالغرض السليم الذى يبديه مكتب التأهيل المهنى الآن لا يضمن أنه فى حالة خمود جذوة الحماسة البادية الآن لا يستسلم هو أمام القوى التى تجابهه . فقد كان هناك نفس الحماسة فى الأيام الأولى للنظام الحالى ولكن الناس يتقدمون فى السن ويعتريهم الكلال ويعتادون نظاما معيناً من الحياة ومن ثم يحاربون كل ما هو جديد . ولا غرابة فهذه هى الطبيعة البشرية . ومثل الحكومة الفدرالية كمثل النظام

الذى نتحدث عنه . فهى مجموعة من الناس ، ومع أنه يحتمل من رفع العمل إلى مستوى فدرالى إتاحة الفرصة للوصول إلى درجة أعظم فى التدريب على العمل بين المكفوفين ، فإن هذا الاحتمال لا يغير الطبيعة البشرية ذاتها .

أما الرجاء فى المستقبل فإنما يقوم على أن البرنامج الفدرالى ليس خاصا بالمكفوفين فقط ولكنه يشمل جميع من .بهم نقص جسمى . ومع أن كثيرين من المكفوفين يوجهون النقد إلى هذا البرنامج إلا أن هؤلاء يجب أن يذكروا أن السبب فى أن النظام الحالى فى توسعه انتهى إلى تضييق نطاق ميدانه هو أنه كان قاصراً على المكفوفين فقط . لقد جاء الوقت الذى يجب أن نقرن تأهيل المكفوفين بتخلص غيرهم من أدواء جسمية أخرى . وليس هناك إلا السبب العاطفى البحت الذى يحول دون اعتبار إيجاد عمل للكبار من المكفوفين مظهراً من مظاهر العناية بالمسنين عامة . كما أنه لا يوجد سبب خاص يدعو إلى التفرقة بين تهيئة العاجزين لأسباب أخرى غير العمى . إن توفير العمل للمكفوفين لا يمكن أن يستمر إلا على حساب الغرض المقصود منه إنه يؤدى إلى عزلهم . وفى عزلهم منافاة أساسية للغرض ، إذ أن العزل والإدماج لا يلتقيان .

ومن العسير أن نعتقد أن النظام ، على صلته الوثيقة بالتقاليد ، يمكن أن يغير وجهة نظره بسهولة . ولهذا السبب يأمل البعض أن يصل

إلى مستوى المسئولية الفدرالية حيث يتوقع أن يصبح جزءا من برنامج أشمل لمحاربة سبب أساسى من أسباب الفقر المشتمل فى العجز الجسمى. أما إذا سار العمل فى مستواه الفدرالى على مبدأ العزل فإن الخسارة لاحقة بالمكفوفين لا محالة .

وإذا كان أحد فى شك مما يريد المكفوفون فليذكر ماقرروه بكل وضوح فى مؤتمرهم الدولى المنعقد فى اكسفورد سنة ١٩٤٩ حيث أصدروا وثيقة ضمنوها أغراضهم وسموها وثيقة حقوق المكفوفين . وهاك بعض ما جاء فيها :

« يجب أن يكون هناك تعريف للعمى فى كل الأقطار . يجب أن يعرف بالضبط عدد المكفوفين فى العالم ، ويجب أن يوضع نظام لتدريبهم وتهيئتهم للعمل . ولا يجب أن يرفض طالب العمل بسبب فقد البصر . وفى حالة عجز الكفيف عن منافسة غيره يجب توفير العمل له فى مصانع خاصة ترفع فيها الأجور إلى مستوى من المعيشة معترف به . ويتصل بهذا مطلب آخر خاص بوضع برنامج لتوصيل العمل إلى البيت لمن لا يستطيعون مغادرته .

وجاء فى الوثيقة أيضاً : على كل أمة أن توفر للمواطن الكفيف (١) حداً أدنى للمعيشة على الأقل . (٢) إعانة مناسبة يتساوى فيها جميع المكفوفين لمواجهة التكاليف الإضافية الناشئة عن فقدان البصر ، على أن تنظم هذه المعونة فى برنامج خاص بالضمان الاجتماعى ،

أو أن تكون ضمن تشريع يتناوله المكفوفون وحدهم . وأما المكفوفون الذين لا يستطيعون مغادرة المنزل فيجب أن تنظم لهم زيارات وخدمات منزلية على يد فئة متخصصة تتكون منها نواة من المدربين المؤهلين منهم مكفوفون كلما أمكن ذلك . وأما بيوت المسنين والضعفاء من المكفوفين فيجب أن يتوافر فيها السكن للمتزوجين حتى إذا كان أحد الزوجين فقط كفيفاً .

وتضيف الوثيقة أيضاً أن مسئولية القيام بكل هذه المطالب يجب أن تقبلها الحكومات المحلية ، وأن يمتد تشريعها إلى الأقاليم التابعة لها . وعلى الحكومات المعنية أن تشجع المجهودات التطوعية وتعاونها ، على أن تعطى الفرصة كاملة فى كل وقت للمكفوفين للإعراب عن آرائهم ورغباتهم . وأما عن الناحية التعليمية فيجب أن يقوم على تعليم المفكوفين أساتذة مشهود لهم بالكفاية حتى يستطيعوا أن يسهموا فى حياة المجتمع مساهمة كاملة ويعملوا على تقويته .

وأما المجتمعات الخاصة بالمكفوفين فلم يضعوها ضمن مطالبهم .

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

رقم الإيداع: ١٧٧٤٤/ ٢٠١٣
الترقيم الدولى: 978-977-718-511-0

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موراافيتلى سابقا)
ت: 23904096 - 23952496

بالنظر لضخامة مشاكل المكفوفين وقدمها وأهميتها الاجتماعية، إلا أن عدد الكتب التي تتناول هذا الموضوع ضئيل، فقد قدره البعض أنه لا يزيد عن ثلاثة آلاف مؤلف في جميع اللغات التي تتناول الموضوع من جميع نواحيه بما فيها الاقتصادية والنفسية، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه محاولة جادة لهدم الخرافات القديمة التي شاعت عن الحياة العاطفية للمكفوفين، كما يعد محاولة لإضافة معلومات إيجابية خاصة بنشاط المكفوفين عقليًا وجسميًا.



الغلاف: د. خالد سرور

الثمن: أربعة جنيهات



www.gocp.gov.eg